

أميليا

الطبعة الأولى

1440 هـ

2018 م

اسم الكتاب: أميليا

التأليف: إيمان الشاذلي

موضوع الكتاب: رواية

عدد الصفحات: 368 صفحات

عدد الملازم: 23 ملزمة

مقاس الكتاب: 14x20

عدد الطبعات: الطبعة الأولى

رقم الإيداع: 2018/23724

التقييم الدولي: 978 - 977 - 278 - 751 - 9



يمنع طبع هذا الكتاب أو جزء منه بكل طرق الطبع، والتصوير، والنقل، والترجمة، والتسجيل المرئي والمسموع والحاسوبي، وغيرها من الحقوق إلا بإذن خطي من الدار.

دار الشريعة للثقافة والعلم



elbasheer.marketing@gmail.com

elbasheernashr@gmail.com



01152806533 - 01012355714

أميليا

رواية

إيمان الشاذلي

دار النشر للثقافة والعلوم

إهداء

إلى الجناحين اللذين ارتفعا للتّحليق رغم ضيق القفص، لم ننس..

عزيزي القارئ، لا أجيدُ كتابة المقدمات.. استمتعْ بما ستمرّ به هنا قدر
المُسْتَطاع، حاولتُ عزلَكَ عن عالمنا القميءِ بصُنعِ عالمٍ مميّزٍ لِكليتنا..

الفصل الأول

تعالى صوتُ أنفاسها الذي كاد وتره ينقطع، تتلفت حولها كغزالٍ يخشى الفتك به، كانت جميلة تشعر بالخوف والوهن.

هُرعت ممسكةً ببقايا ردائها الممزق بين شجيرات يتعمدها الظلام الحالك، حافية القدمين، يخترق جلدها الرقيق الحصى فينزف دمًا، تتألم في وهنٍ مكمله خوفًا.

صوتٌ بالقرب أفزعها صدها:

- ابحثوا في هذا الاتجاه، يجب أن نجد لها قبل الصباح.

تفقد تركيزها رويدًا، تنزف من كلِّ جانب.. بين بعض الحشائش المتوارية عن الأنظار هوت، انسدل جفناها في ضعف.. صمت العالم وانقطع اتصاها به.

كلّ منا له أحلامه التي لا يراها غيره، بعض الأحلام تتحقّق مصادفةً لإيمان صاحبها بها رغم استحالتها ورفض الواقع لها، وبعضها الآخر يتحقّق لسعي صاحبها إليها ومحاربتة الواقع.

وهناك أحلامٌ تتطاير كحفنةٍ ترابٍ بعثرتها الرياح لاصطدامها بأول عقبة من عقبات الواقع.

يقرّر صاحبها التنازل عنها لخوفه من المواجهة أو وهمه بالانهمزام. عالمنا يضمّ الكثير والكثير من مالكي الأحلام، لكنّ القليل من يصنعها.

فكيف لو أهدتنا سطورُ القدر حلماً يحسِّده الواقع بنفسه.

هنا، في أحدِ الأماكن الراقية، تعيش فتاتان - ياسمين وأميرة - في شقّة بإحدى العمارات بمفرديهما، سافر والداهما إلى الخارج للعمل بإحدى الشركات، فهما يعملان في مجال الهندسة بإحدى دول الخليج.

ياسمين.. تلك الجميلة، فتاةٌ لم تتجاوز الثانيةَ والعشرين من العمر، مزيجٌ من القوة والضعف، كالبحر كلما نظرتَ إليها طمأنك هدوؤها، وكلّما اقتربت منها أكثرَ تُهتَ فيها، سيدة لمشاعرها، فعقلها المسير الأول لها، لم تحب في حياتها أكثرَ من أختها أميرة، ملامحها متشابهة إلا أنّ هناك فرقاً في الطول ليس بكثير، لهما نفسُ العينين ولونُ الشعر، أمّا أميرة فقد اشتركت مع أميراتِ الأساطير في بعض الصفات.

كالغصن الرطب، سهلٌ تهشيمُه، هيفاء القدّ، طهارةٌ قلبها تبدو من عينيها.. فهما تلمعان كعيني طفل لم يدرك الجانب السيئ من الحياة بعد.. لا تملك من تجارب الدنيا إلا قليلاً.

جلست ياسمين، وبجوارها أميرة، لاحتساء القهوة في إحدى شُرف المنزل، تمعت ياسمين في ملامح أميرة التي يأكلها الحزن تحدّث نفسها. "يبدو على أميرة الإرهاق كثيراً، لا أدري ما بها! كلّ ما تفعله تردّ على أسئلتني ببضع كلمات، كالتي تحشى سقوط أحرف البوح".

حاولت ياسمين قطع شرودها في مزاح:

- يا بلهاء، ما بك؟! أأكل القطّ لسانك؟

رفعت وجهها إليها بعينين لامعتين، كانت لمعةً تعكس غصّة قلب يعتمر، ثمّ تنهّدت وابتسمت ابتسامة خفيفة، حاولت إخفاء ما تشعرُ به.

— أنا بخير، ألا تسمعين إجابتي؟

— صوت قلبك أعلى من صوت حنجرتك، ما الذي تخفيه عني؟

— لا أخفي أي شيء صدّقيني، أنا بخير.

ساد صمتٌ ملاً أرجاء المكان، ياسمين تنظرُ إلى أميرة لا تعلم ماذا يدور بعقلها، وهي تتحاشى النظر إليها، تحتسي قهوتها وتنظرُ إلى الخارج، ما الذي تخفيه بين جنبَيها، انتهاء من احتساء القهوة فاستأذنت أميرة أختها في الخلود للنوم.

— إلى أين؟

— متوّعة، أريد النوم.

همّت بالمغادرة، فاستوقفتها ياسمين ممسكةً معصمها، التفتت تسألها بصوتٍ وهن:

— ماذا هناك؟

— أنا أنتظرك إن شعرتِ برغبةٍ في الحديث.

أومأت برأسها في استسلام عائدةً مغادرةً إيّاها.

دخلت غرفتها، ثم جلست على سريرها، دقائق صمتٍ مرّت، وانفجرت بالبكاء كطفل صغير غزت الأفكار السيئة عقلها، تذكّرت تلك اللحظات معه. كم أوجّعها..

أيعقل أن يباع الحبّ بأبخس الأثمان، كلمة تُقال ولا يدري صاحبها بما بها، كلّ هذا الكذب يخنفي تحت مظلة الحبّ، يجهلون أننا كتلٌ مشاعر، أنسوا أن أغلى ما فينا قلب؟! يُحوّلون من قلوبنا أحجاراً بعد ألم قاتل، جثّاً هامدة تمشي على الأرض، ماذا ينتظرون بعد قتل أسمى المشاعر.

مشاعرٌ صادقةٌ يذبحونها بدم بارد، ويتنظرون من صاحبها أن يعيش.
يعيش بجرح غائر، بصمتٍ يصرخ بالألم.
أحرق العبرة مآقيها، بكّت بدمع الغمام حتى فقدت الوعي.

فتحت عينها ببطء، حركةٌ ما حولها، ما هذا الصّوت هناك؟ أحدهم
يصيح:

"ها هي الأميرة، لقد وجدناها، قوموا بمناداة البقية لحملها"
حاولت فتح عينها والرؤية مشوشة، لم تستطع، تشعرُ بوهن شديد، بدأ
الصوت في التلاشي، عادت في سبات عميق، ثم انقطع الصوت..

في صباح اليوم التالي، استيقظت أميرة، عيناها متورمتان من كثرة البكاء،
جلست أمام المرأة متممّدة وضع كمّيات كبيرة من مساحيق التجميل لمواراة
عينها، استعدادت للذهاب إلى جامعته.

سحبت أحد كراسي المنضدة.. تحتسي الشاي وتتناول الإفطار، تأكل
وياسمين تراقبها، رغم محاولاتها المستميتة في أن تبدو طبيعية، إلا أنّ أختها لم
تصدّقها، سألتها في محاولة لانتزاع أي شيء منها:

- كيف حالك اليوم؟

- بخير، لا داعي للقلق.

أجابت في لامبالاة، تركت فنجان الشاي من يديها حاملةً كتبها متحدّثة:

- انتهيت من الإفطار، سأذهب حتى لا أتأخّر.

وما أن التفتت بوجهها عن ياسمين حتى تمتمت لنفسها بصوت غير مسموع، وقلبها يعتصر ألماً "أوربها حتى لا تعيدي السؤال عن حالي".

دخلت أميرة المدرّج شاردة الذهن، تعلم أنّها ستراه الآن، لم تمرّ دقائق حتى رآته يدخل إلى القاعة.. لم يكن فارغ اليدين؛ فمعه إحدى زميلات الدّفعة.

"لعلّها ضحيّة جديدة من ضحاياها، يستنزف مشاعرها ويسرق قلبها حتى تتعلّق به، يملّ منها ويرميها.. ثم يبدأ بالبحث عن فريسة جديدة، هواية قدرة أتقنها واحترف فيها.. وقد كنت أنا إحدى فرائسه، اللعنة على قلبي الذي يأبى أن ينسى".

ظلت تحدّث نفسها.. شردت في وجهه فالتفت إليها فجأة، التفت عيناه بعينيها، فأشاح بوجهه عنها وكأنّه لم يعرفها قبلاً، اختنقت فذكرياته تجلّد قلبها.. تدرك أنّ ذاك الكره ما هو إلّا مشاعرها تجاهه بصورة غيظ، لا زالت تحبّه، تحبّه جدّاً. حاولت الهرب فما كان منها إلّا أن تركت القاعة وخرجت. سمعت صوت هاتفها، تتأمل اسم المتصل فإذا بها ياسمين، أجابت بصوتٍ مختنق يقاوم البكاء..

- صوتك.. ما بك أميرة؟!

لم تستطع المقاومة أكثر، انفجرت باكيةً، والأخيرة تهدّئ من روعها، لم يطل بكائها.. فقدت الوعي من الضّغط، تردّد صوت ارتطامها بالأرض بساعات الهاتف، تنادي ياسمين ولا محيب حتى أكل القلق قلبها. الجميع من حولها يناديها، تشوّشت الرؤية رويداً.. رويداً...

فرجت جفنيها في وهن، بقليل من الوضوح التقطت وجهها ما، شابّ طويل القامة.. هذا ما استطاعت تمييزه.. حاولت التقاط خيط الحديث بسمعتها.

- هل استيقظت؟

- لا.. آمل أن تستيقظ قريباً، أنا بالقرب منها؛ لا تقلق.

من هذا؟ أين أنا؟ همست بصوتٍ غير مسموع، عادت للنوم.

أغلقت ياسمين الهاتف في ذعر لا تدري ماذا عليها أن تفعل، قفز إلى ذهنها ابنُ خالتها "ياسين"، ياسين بمثابة الأخ الأكبر للفتاتين في ظل غياب والديهما، متوسط القامة، قصير الشعر، يملك وجهاً منحوتاً تغزوه لمحة من البراءة، له عيان بنيتان، مهندس معماري يبلغ من العمر أربعاً وعشرين عاماً.

بمكتبه بالشركة منهمكاً بأحد مشاريعه الهندسية، فقطع تركيزه صوت هاتفه فأجاب، صوت ياسمين يشوبه الكثير من الخوف:

- ماذا هناك! ما بك؟

- ياسين، آسفة، أعلم أنك بالعمل الآن، لكنني أحتاجك.

انقطع صوت أميرة أثناء اتصالي بها، أنا قلقة.. أريدك معي.

طمأنها بقدومه، يعلم مدى ارتباطهما ببعضهما البعض، أنهى مكالمته فاستوقفه "عادل" زميله بالمكتب، سأله إن كان هناك أمرٌ ما في محاولة للاطمئنان عليه بعدما لمح القلق في عينيه بعد إنهاء المكالمات، عادل وياسين زميلاً دراسة، معرفتهما دامت لسنوات، معظم أوقاتها يقضيانها معاً،

فالمشاريع التي يعملان بها كانت تتطلب المبيت في المكتب لسرعة إنهاءها، كلاهما يحفظ الآخر عن ظهر قلب.

— أأحد أهلي يحتاجني، وعليّ الذهاب إليه على عجل.

— اذهب أنت، وسأقوم باللازم بخصوص المشروع المطلوب، طمئني بالهاتف.

خرج من الشركة على عجل متّجهاً إلى منزل ياسمين ليقبّلها بسيّارته، وقف أسفل العمارة يتّصل بها، سمعت هاتفها فهتّت بالردّ، وما أن علمت بوجوده أسفل العمارة حتى أسرعته إليه.

لم تتفوّه بكلمة طيلة الطريق، غارقة في القلق، يقتلها التفكير فيما قد حدث لأختها، حاول حينها التخفيف عنها ببضع كلمات.

حاولت تكرار الاتصال على أمل أن تحبب واحدة من صديقاتها إن لم تجب هي، وبعدما أخفق الاتصال أكثر من مرّة؛ أجابت إحداهنّ بالفعل.. سألت حينها ياسمين عما حدث.

أخبرتها أن تمّ نقل أميرة إلى مستشفى الجامعة بعدما فقدت وعيها، شكرتها ثمّ طلبت من ياسين الإسراع، كلّ ذراتها تنتفض خوفاً على صغيرتها أميرة، رغم فرق الأعوام القليل بينهما لم تشعر ناحتها بالإخوة بقدر الأمومة.. لطالما شعرت كوّنّها خاصّتها ومسؤوليتها.

بعد وقت ليس بقليل، توقّفت السيّارة أمام مستشفى الجامعة، هُرعت تسأل عن غرفة أميرة.. قدّر لها أن تدخل لها في نفس لحظة استعادة وعيها، التقطت يدها باكية في خوف تسألها:

— أنت بخير؟!

انفجرتُ باكية هي الأخرى ما أن رأَت دموع ياسمين، أسفة على ما سبَّبه لها من قلق، فضمَّتْها إليها الأخيرة وكأنَّها تحدَّثها بأن تطمئن، فهي الآن هنا.. لن تغادر إلَّا بها، أغمضت أميرة عينيها لتسكن بحضن أختها.

ليتَ الهموم كحبيبات الغبار نطرحُها عنَّا بضربة كفٍّ.. ليتنا نفقدُ الذاكرة حين تثقلها الآلام، ليتَ الدموع يسيرة، تأتي إن نادتها صدورُنا المختنقة.. ليت الأمور تظلَّ دائمًا على ما يرام إلى الأبد.

اعتصرتها ياسمين بين ذراعيها وكأنَّها تشعر بكونٍ هناك أمرٌ تخفيه عنها، دخل عليهما الطبيب ليطمئن فاستأذنه ياسين لسؤاله بالخارج، بعيدًا عن مسامع الأختين:

- أهنأك شيء أيها الطبيب؟.

- لا شيء مُقلق، يبدو وكأنَّها تعرَّضت لضغط ما، حاولوا إبعادها عن مسببات القلق أو الضغط النفسي فقط، هي بخير.. يمكنكم اصطحابها للمنزل.

اصطحب ياسين الفتاتين إلى السيارة، جلستا بالكرسي الخلفي حتى تستطيع ياسمين إسنادَ أختها المُنهكة، صمَّت احتلَّ المشهد.. استرق ياسين النظرات إلى ياسمين من المرأة الأمامية، شاردة بالشباك المقابل لها فالتفتت إليه.. توترت؛ فقد التقت أعينهما، تبسَّمت في إنْهاك ثم حدثته:

- سبَّبت لك الكثيرَ من القلق اليوم، أليس كذلك؟!

بادلها الابتسام، ثم هزَّ رأسه نافيًا.. لم يجب بالكلمات، لا يعلم السبب في عجزه عن الحديث عند فتح المجال مع ياسمين.. هي رقيقةٌ في عينيه إلى درجةٍ تُربكه رغم كونها قد تربَّيا معًا.

توقفت السيارة أمام العمارة التي يقيمان بها، تابعتها بعينه أثناء صعودهما ثم غادر بعد أن اطمأن.

دخلت أميرة غرفتها فور دخولها من باب الشقة، تبعها ياسمين.. طرقت الباب فسمعت صوت أختها مختفياً بالبكاء تسمح لها بالدخول.

وكأنها قطعة ثلج تنصهر، اختفت معالمها تحت قطرات الدموع المترقرة بغزارة، اقتربت منها برفق، تسألها عما يجري، حاولت فهم ما تقوله ولم تستطع، تخرج الكلمات ثقيلة متقطعة.

حاولت الحديث والكلام مؤلم له شفرات، كلما مر على خلدتها مزقه تمزيقاً، ضممتها - حينها - أختها في محاولة لتهدئتها، باتت كطفلة تائهة بين الزحام، تكوي العبرات مآقيها.

لم تنفوه ياسمين بكلمة، تركتها تفرغ منسوب صدرها من الدموع حتى هدأت.. حينها عادت لسؤالها.

صمتت لبرهة كالتي تسترجع شريطاً من الذكريات، ثم بدأت تقص عليها قصتها مع ذاك الشاب الذي يدعى سمير.

كان أول يوم لي في الجامعة، كنت تائهة ووحيدة، لا أعرف وجهاً واحداً من الوجوه المارّة بجواري، اقتربت مني فتاة تدعى سلمى، طلبت التعرف علي.



جلس سمير بين أصدقاء ينتمون لنفس فصيلته مراقبين الفتيات، فما أن مرّت الواحدة منهن حتى انطلقت أجهزة استشعاراتهم منقبين بالقل بين

ثنايا الملابس، من بينهم صديقه المقرب المدعو "أدهم"، جذب ناظره طالباً منه الانتباه لفتاة مارة، خلع حينها نظارته الشمسية مطلقاً صفارة إعجاب. - وجهٌ جديد بالجامعة، هذا هو ذوقي.

تعالَتْ ضحكاته بعد أن تفوّه بها، دائماً ما يستغلّ كَوْن الحديثات لا علاقات لهنّ بالجامعة، فَمِن المؤكّد أنهنّ لن يسمعن عن مغامراته، يبدأ الحوار بقناع من العقل حتى يوقع فريسته، ما أن تثقّ فيه ترفض أيّ نصائح موجهة لها متّهمة الفتيات الناصحات بالكذب والغيرة.

ساعده في ذلك وسامته، فقد كان المفضلّ للمغفلات المهتمّات بالمظهر، بعضهنّ يثقنّ فيه لمجرد رؤية وجهه.

كانت أميرة المشار إليها هناك، عيناه لامعتان كذئب مفترس لمح فريسته، جذبته عيناه الواسعتان وملاحها الرقيقة، غرق بين سواد شعرها الطويل.

همس إلى أدهم:

- يبدو أننا سنستمتع كثيراً الأيام القادمة.

- لا تكفّ عن الاستمتاع يا أنت.

انفجر حينها ساخراً، يفهم إلى ماذا يرمي بالحديث، أجاب حينها مبرّراً في فلسفةٍ عقيمة لا أساس لها:

- النساء نعمة.. ما بالك بكسرتنّ، فهنّ شبيهات ما لذّ وطاب من الطعام، يعجزك الاستمرار على نوع واحد، اليوم الطويلة.. غداً القصيرة.. وبعد غدٍ البيضاء.. وبعدها السمرء.. وهكذا، لا تستطيع العيش مع واحدة فقط، كما أنّك لا تستطيع العيش بدونهم، فالامتناع عن الطعام يقتل.. والمواظبة على نوع واحد يسبّب فقر الدّم.

- إذا، كيف ستعرّف عليها؟.

عادَ بناظره إلى صديقتهَا بالقرب.. ثمَّ أشار بحديثه:

- هذه بداية الخِيط.

وقفت سلمى إلى جوار أميرة يتبادلان أرقامَ الهواتف، فاستأذنت أميرة في الذَّهاب حيث بدأت المُحاضرة، أمَّا سلمى فقد ذهبتُ لشراء شيء ما قبل أن تلحقَ بها.

وقفا يراقبان من بعيد، وفي اللَّحظة المناسبة هرولاً سمير تجاه سلمى يستوقفها، تعجَّبَتْ؛ فللمرَّة الأولى تراه، أشارتُ بناظرها تنتظر حديثه.

- إنَّه أمرٌ ما بخصوص صديقتك.

- وما دخلي أنا!

ظهرَ عليها الاستنكار، فحاول السيطرة حينها على الحديث بخباثة:

- مسألة حياة أو موت، من فضلك ساعديني في الوصول إليها.

ومع رجائه المتكرَّر لانت، تهلَّلت أساريره.. اقترب.. اتَّفقت معه على المحاولة، الأمرُ يعود إلى صديقتهَا ولا دخلَ لها بالأمر سوى إيصالِ رسالته. تركته لتلحق بصديقتهَا، رحلتُ ومعها قناعُ البراءة الذي أخفى وجهه الحقيقي، حلَّ وجهٌ آخر يكشف عن مكنونه المستور.



دخلتُ سلمى قاعةَ المحاضرات تبحثُ عن أميرة التي اختفتُ بين تماوج زملائها، المكانُ امتلأ، والجميعُ قد جلسوا في أماكنهم، لوَّحت أميرة إليها

لافتة انتباهها إلى مكانها.. فما أن لمحتها حتى أسرع لتجلس بجوارها، سألتها حينها عن سبب تأخرها، فأشارت إلى إخبارها بالخارج.

تابعت أميرة الحديث.. تخبرها ما حدثتها سلمى بأمره، قطعها ياسمين بسؤال فضولي سبق كلماتها:

- وماذا حدث بعدما أخبرتك؟.

- في الواقع لم أريد الحديث معه، وحاولت تجنب الموضوع، لكن ما تقدّمت خطوتين حتى وجدته أمامي، استسلمت للاستماع لما يريد، واطبّ على ملاحظتي فترة طويلة حتى أدمنته، أخبرني أنّه يودّ الزواج منّي، مرّت الأيام وهو يغمرنى حبًّا، ثمّ انقلبت معاملته رأسًا على عقب.. أهملني.

في أحد الأيام أخبرني أنّه يريد التحدّث معي.

- عن أيّ موضوع؟

- ستعرفين بعد الانتهاء من المحاضرة.

خرجت من القاعة أنتظره، فجذبني من يدي، وذهبنا إلى كافيتريا الجامعة، وقد بدأ كلامه ببعض المبررات.

- أميرة لقد أحبطتُك كثيرًا، لكن....

- لكن ماذا؟

- الطّروف تعيّرت، ولا أريد أن أظلمك، طريقي الآن شائك.

فهمتُ إلى ماذا يرمي.. لكنني كذّبت أفكاري، كيف لمن أحبّني كلّ هذا الحب تركي؟ ثقتي فيه عمياء.. سألته وقد بدا عليّ الاضطراب.

- وما معنى ذلك؟

هربت عيناه من عيني، أكمل جلدي ببقية الحديث.

- أريد منك أن تستمرّي في حياتك كأن لم تعرفيني، سأتحمل الفراق لأجل سعادتك، لا أريد أن أعلّقك معي ويضيع مستقبلك، فأنا سأضحّي بك لأجلك، لا أريدك أن تظلي معي فيأتي أهلك ويجبروك على غيّر فيحترق قلبك.

تلا على مسامعي كلماته؛ لتنهار جوارحي، وكأن نار الدنيا اشتعلت بقلبي، اختنقتُ فحاولت التماسك.. أسأله في استنكارٍ مُصطنع يوّاري وهن قاتل.

- وهكذا لن يحترق قلبي؟!

- حاولي تفهّم الأمر، عليّ الذهاب الآن.

تركني سمير وذهب.. روجي رحلتُ معه، حطّم كلّ أحلامي ببساطة في لحظةٍ، ورحل تاركاً إيّاي خلفه جثةً هامدة تحتضر.

كم حلمت أن أزفّ إليه بفستاني الأبيض كأميرة.

كم تحدّثنا معاً عن أساء أطفالنا.. موافقنا معاً بعد تقدّمنا في العمر.

جاء هو بكلّ بساطةٍ وحطّم أحلامي، داسها بقدمه غير مُكترث، رحل ودموعي لا تتوقف.

اليوم في المحاضرة، دخل وفي يديه فتاةٌ أخرى، نظر إليّ كأنّه لا يعرفني، أرى نفس نظراتي له في عينيها، كاذب.

عادت إلى البكاء، مسحّت ياسمين دموعها قائلة:

- ألم أخبرك قبلاً بأنك بلهاء؟! قد باعك، فلا تشتريه ولو كان ذهباً.

ابتعدَ واستطاع فهو لم يحبّ، الحبّ يصنع المعجزات، مَنْ أحبّ بصدق
حطّم كلّ مقاييس الواقع ليصلَ إلى مَنْ أحبّ، على ماذا تبكين؟ الحبّ نعمة
لا يتخلّى عنها إلّا ناغم، رجل أحبّ وتخلّى فهو يتوهم بالحبّ.. خسرك،
وسيقع في مَنْ تشبهه وسيندم، وسيعود، ولكن حينها...

قاطعتها أميرةٌ قائلة: لن أعودَ إليه ولو تمزّق قلبي، وسأموت بدونه، حتى
لو بكى دماً؛ لن أعود.

عاد ياسين إلى المنزل وقد سَغَب، سمعتُ والدته صوتَ الباب فأسرعت
إليه قلقة، تسأله في خوفٍ عن سببِ تأخّره، أهمل سؤالها أولاً يسأل عن
والده..

- لم أَرِدْ إفلاقه، أخبرتُه أنّك ستتأخّر بالعمل، تناول طعامه وغطّ في
النوم، أخبرني ماذا حدث؟

اتّجه إلى خزانته ليغيّر ملبسه.. حدّثها بينما يزيل قميصه:

- كنتُ مع بنات خالتي، أميرة كانت في المشفى، وياسمين اتّصلت بي
لأكون معها هناك.

شقّت الكلمات سمعها لتسأله في لهفة:

- أهى بخير؟! لم لم تخبرني؟

- لم يكن هناك وقت يا أمّي، الآن هي بخير.

تنفّست الصعداء، هدأ قلبُها بين ضلوعها تحمداً الله.. فإذا بابتسامةٍ صفراء
تربّعت على عرش شفّيتها، سألته وكأّتها تكن شيئاً ما:

- وكيف حال ياسمين؟

التفت إلى أمّه بمحجرين اتسعا اندهاشاً.. فهمَ إلى ماذا ترمي.. فإذا بها
تصطنع التراجع متحدّثة في تردد:

- ماذا؟! هذا مجرد سؤال عن حالها فقط.

أغلق بابَ الخزانة..

- أنا جائع.

استجابت تاركةً الغرفة، ما أن خرجت من الباب حتى عادت إليه تناديه
من جديد.

- ماذا يا أمّاه؟

- في الغد سنذهب معاً للاطمئنان على أميرة.

أوماً برأسه.. صمتت وهلة، بينما انشغل هو بغلقِ أزرار قميصه،
فأكملت:

- وياسمين.

ردّدت اسمها بصوتٍ أجشّ، رفع وجهه إليها فغمزت إليه مازحة،
خرجت وأغلقت خلفها الباب، تركته يبدّل ملابسه.. يتساءل "أأصبح الأمرُ
واضحاً إلى هذا الحدّ؟"

لم يردّ لأيّ من كان أن يعرف حقيقة شعوره، لكنّ حبّه كان أكبر من تخفيه
كلماته.. حركاته، نظراته، وحتى لمعة عينيه عند رؤيتها.

فإذا صدق الحبّ، كلّ الجوارح تخون.

تأهّبت أميرةُ للنوم، فإذا بهاتفها يعلن اتّصال أحدهم، كانت سلمى..
أرادتُ الاطمئنان عليها، تسأل متلهّفة عن صحتّها.. القلق كالسيل مُنفجرٌ
من بين حروفها..

- أنا بخير.

لم تقتنع سلمى، ففتحت المجال للحديث تسألها عن سبب فقدانها
للوعي.. هي تعلمُ السبب جيداً لكنّها أرادت إعطاءَ فرصة لصديقتها لتفرّغ
ما في قلبها.

- بسبب ما تعرفين.

- هل ياسمين علمت بالأمر؟

كانتُ على علم بمدى خوف أختها عليها، لطالما خشيت من ردّ فعلها إذا
علمت بالموضوع، أجابت حينها في لا مبالاة:

- نعم، أخبرتها بكلّ شيء.

تنفّست الصعداء، فالأمور بدتُ على ما يرام، أولى الخطوات لنسيان ذاك
المدعو سمير، لا يستحقّها وقد أسدى خدمةً بتركها، ستدرك ذلك يوماً،
حتى لو لم يكن اليوم.

- ذلك أفضل، انسي.

- وهل سأنسى؟

- الأيام يا أميرة، الأيام الدواء لكلّ الآلام، الألم يشبه قطعة الثلج..
ينصهر مع الوقت حتى يختفي كأنّ لم يكن.. لن يبقى بعدها سوى ذكرياتٍ
ستذبل، لن تمرّ على بالك وإن مرّت؛ لن يكون لها صدى على قلبك.

نزلتِ الكلماتُ بردًا وسلامًا على قلبها، اقتنعت لكن.. ما العمل في مشاعر لا حُكم عليها؟

وكأنَّ ما يدور بخلدِها دارَ بخلدِ سلمى، طلبتُ منها أن تتخلدَ للراحة، حدَّثتها عن كون الأمور ستكون كلها بخير لتنم مطمئنة.. أغلقت الهاتف. أسندتُ رأسها إلى الوسادة في محاولةٍ للنوم، فحتى إن صمتَ لسانها فمن يُخرس أنينَ قلبها؟!

تتلوَّى في فراشها علَّ النوم يحنَّ ويأتي، تجلدها الذكريات.. انفرط عقدُ عبراتها، فالذكرى تطرق رأسها بمطرقةٍ حديد.. تسري صور الماضي بأعصابها كالسَّم، كاد رأسها ينفجر.

لم تتركْ ياسمين أطيفَ الخوف، فكلُّ هواجس الدنيا تجاه أختها الصَّغرى تجمَّعت عند رأسها، التقطها من قاع أفكارها مهاتفٌ خالتها، أرادت الاطمئنان على حال أميرة.

"سعاد" الأقرب للفتاتين في ظلِّ غياب والديها، تعلم مدى تعلق كلِّ منهما بالأخرى، أفلقها إجابات ياسمين، فالكلماتُ تخرج من بين شفثيها في تشَّتت، وكأنَّها بنصف ذهن حاضر، حاولت حينها التَّخفيف، أخبرتها عن كونها ستأتي إليها بالغدِ برفقة ابنها الأكبر ياسين.

ما لبثت ياسمين تنهي الاتصال حتى وجدت أختها أمامها، وجهها ممتنعٌ شاحبٌ.. عيناها زائغتان، تقدَّمت إليها بخطواتٍ واهنة، خطوة تلو خطوة، وفي الثالثة سقطت كمن لا عظام تحته.

فتحتُ عينيها ببطء.. يغلبها الوهن فتتاسقظ أجفانها، قاومت في محاولةٍ للتركيز.. أمعنت النظر.

غرفةٌ قديمة تشبه هذه التي تعرضُها الأفلام التاريخية، حاولت الحركة ورأسُها لا يساعدها، ثقيل.. وكأنَّه مربوطٌ بحجر، تحسَّست جبهتها "ما هذا؟".. التقطت أناملُها ضادةً تحتضن رأسها المجروح، انقبضت ملامحُها فور أن لمست الجرح، رفعت ذراعها الآخر فانطلقت آهاتها؛ فالأخير تحضنه جيرة.. ركزت على قدميها.. بدا وكأنَّها الأخرى لم تسلم من الأذى، تحدّث نفسها بصوتٍ يشوبه البكاء "مَن فعل بي هذا؟".

حاولت النهوض.. ارتكزت على أريكةٍ كانت مضجعتها، انزاح الحجاب قليلاً عن مَاقِيعها، تتمعّن أكثر، اتّضحت الرؤيا أكثر.. هناك بعض المعدات الطبية البدائية تصطفّ بالجوار، تحسَّست رداءها الرثّ المُسدل عن أحد كتفيها، اتّسع محجريها، تحدّثت نفسها في صدمة:

- يا إلهي ما هذا؟! أنا أحلم!؟

هرولتُ إلى بقايا امرأةٍ معلّقة على جدارٍ بليّ، كمَن يتخبّطه الشيطان من المسّ تتأمّل نفسها، ما هذا الرّداء؟ إنَّه يشبه ذاك الذي كانت ترتديه النّيبلات في القرون الوسطى، ممزّق وقديم، ملأته الأوساخ في حالة يرثى لها، اتّحد وهنُ جسدها مع ذاك الصّراع الناشئ في أعماق عقلها.. أمسكت جبهتها وكأنَّها تحاول الاتّزان.. كادت تسقط، حاولت التّمسك.. تتلفّت كعقرب ساعةٍ حائرٍ، تمعّن النظر في المكان حولها، تتساءل:

- أهذا كابوس؟!

تصفعُ خدّها كالمجنونة علّها نائمة فتستيقظ، تحدّثت نفسها كمَن فقد عقله "هذا كابوس بالتأكيد وسأستيقظُ الآن.. يجب أن أستيقظ".

تنادي نفسها، وباءت محاولاتها بالفشل، تسرّب الخوف إلى شرايينها..
استسلمت وبدأت التعرّف على المكان من حولها في حذر.

كوخٌ بدائي صغير، جدرانُه من الخيزران، كلّ شيء فيه قديم؛ موقد
تتراصّ فيه الأخشاب بين حجرين، طنجرةٌ عملاقة تتراصّ حبيبات الغبار
الفاحم على سطحها، وكأنّها عفى عليها الزمن تعرّضاً للحرارة، اقتربت
بحذر من نافذة الكوخ، خطوة تتبعها خطوة ليتّسع الأفق فتتّضح الرؤية أكثر
فأكثر..

— ما هذا؟ يا إلهي!

أنزلت ناظرها لتجد الكوخ على تلّ مكسوٍّ بالعشب الأخضر، وكأنّها
تشاهد فيلماً لروبين هود، تتأمّل من حولها كطفل يستكشف العالم، وعندما
بدا كلّ شيء حقيقياً حاولت استيعاب الأمر "يبدو أنّه ليس حلماً، فلو كان
حلماً؛ لم لا أستيقظ؟".

قطع حبلاً أفكارها ذاك الشابّ بدخوله.. هذه المرّة تراه بوضوحٍ دون
حُجب وبشكلٍ كامل.

شديد الواهنتين، منحوت الوجه، طويل، ذو بنية قوية، كأسنان المشط
أسنانه، غطّى الشعر الأسود جبهته.

ناداها بنبرة هادئة يشوبها الاحترام وبعض القلق: مولاتي الأميرة كاميليا،
لم تركت مضجعتك؟

ما أن أنهى عبارته حتى شخصت، ثم سقطت على الأرض فاقدةً
للوعي.

لحظات كلمح البصر ما بين فقد الوعي وامتلاكه، مرّت خلالها بعض
الأسئلة في ذهنها.. مَنْ تكون كاميليا؟ لم يناديني بهذا الاسم؟

سمعت صوتاً ما يناديها من بعيد، انتشلها من اللاوعي ليعيدها إلى الواقع،
إنّها ياسمين، بدأ الصوت خافتاً ثمّ وضّح شيئاً فشيئاً لتسمعه بوضوح، وجه
أختها بين عينيها كالموج المضطرب الذي بدأ في الرّكود.

- أين أنا؟

- أنت في غرفتك أميرة.

- أين كنت؟

- فقدت الوعي، ألم تتفق على عدم التفكير؟ تريدن قتل نفسك.

مدّدة تستمع لكلمات أختها، ولا أدري إن كانت على وعي كامل بما
وجه لها أم لا، مسكينة.. بدت كيتيم بوادٍ غير ممطور، غطّى الجوع جوارحه،
فأصمت كلّ الأصوات عدا صوت الأم.

جائعة بشكل آخر، تفتقد للأمان، للثقة.. للقدرة على تحمّل كلّ هذا الكمّ
من الوجود، أسمع ما وجهته لها ياسمين؟ لا أظنّ؛ الأم يُفقدك الإدراك،
يُفقد الروح رونقها والعقل قدرته على التفكير.

- أحتاج للرّاحة، سأنام.

قالتها بعينين شاردتين، تركتها لتستقرّ في فراشها، السطح هادئ والباطن
بركان.. بركان يكوي جنبات الروح.

استيقظ ياسين من النوم ليتأهب للعمل، خرج من غرفته بعد أن ارتدى ملابسه، جلس لتناول الفطور.

أمّا بالغرفة المجاورة، فكان أخوه محمود الذي يبلغ من العمر عقدين وعامًا يغطّ في نوم عميق، طالب بكلية آداب في السنة الرابعة، متوسط الطول، قصير الشعر، خريّ البشرة، له عينان بنيتان، نحيف وشعره يميل إلى اللون الأسود.

فشلت محاولات أمّه في إيقاظه، فطلبت من ياسين أن يساعد في ذلك، دخل عليه الغرفة ثم صرخ فيه ممازحًا: محمود، استيقظ؛ ستتأخر على جامعتك.

فزّ من مضجعه صارخًا:

— أجننت؟! أفزعني.

— حاولت أمي إيقاظك ولم تفعل.. عليّ أن أفعل ذلك لتستيقظ يا غبي، هيّا انهض من سريرك الآن ستتأخر.

نهض محمود متممًا بكلمات الاعتراض، تجهّز ولحق بياسين على مائدة الإفطار، جلس الجميع فبادر والدهم بالحديث، السيد "حسين" لم أعرفكم به بعد، فهو رجل خمسيني، يعمل مدرسًا للغة العربية بإحدى المدارس التي يغلب عليها الروتين والطابع الحكومي، متوسط الطول، أشيب الشعر.. أفطس الأنف، خريّ البشرة.

— هكذا يوميًا، تستغرق ساعات لكي تستيقظ.

وجّه كلماته إلى محمود موبّخًا إيّاه، فانفجر ياسين ضاحكًا تهكمًا عليه.. رمقه الأخير بنظرات نارية، قطع بداية الشجار طلب أمهما في الذهاب إلى بنات أختها للاطمئنان على أميرة.

- أبي، أنا أحتاج إلى محمود، أريده مرافقتي.

قالها ياسين معلّقاً ناظريه على أخيه، فاستشاط الأخير غضباً.. أجاب معترضاً بحجج واهية، لم يرغب يوماً في الارتباط بمواعيد، لطالما كره التّجمعات العائلية.. فمن وجهة نظره "تجمّع فاشل"، تتكرّر به نفس المواضيع وتتردّد به نفس الكلمات.. لا يحتوي على أيّة إثارة.. فلم البقاء؟ - لا، لن أذهب.

- محمود، لا تترك أخاك.. اذهب معه لإيصال والدتك، يجب أن تكونوا بجوار أولاد خالتك في مثل هذه الظروف.

أمام كلمات والده وافق مستسلماً في غيظ.. أخرج غضبه بقضمة خبز كادت تقفّ في حلقه من كبر حجمها، عاد ياسين للحديث مُصطنعاً الجدية، يرغب في إثارة غضبه..

- سأنتهي من العمل باكراً حتى أقلّك أنت وأمّي، لا تتأخّر كعادتك.

كتّم ضحكاته من ردّ فعل أخيه الذي بدا وكأنّ النار ستخرج من رأسه، صامتاً ولو وجد فرصة لفتك بياسين.

استيقظت في غرفتها، تتلّفت حولها بحثاً، تحدّث نفسها والدهشة تحتلّها "لا زلت في غرفتي، أكان حلماً؟" متخبّطة وكأنّها بين عالمين، أيعقل أن تتلى الأحلام كسلسلة متتابعة؟، ما أن تغطّ في النوم ثمّ تستيقظ حتى تهاجمها الأسئلة وتسكنها الحيرة، أمسكت رأسها وكأنها تستعيد توازنها "آآه يا إلهي، يكفي ما أراه في واقعي، أطاردني الألغاز واقعاً وحُلماً!".

نهضت من سريرها تحاول الهرب من التفكير، ارتدت ملابسها، وجلست لتناول إفطارها كالعادة، وضع الإرهاق بصمته على عينيها، اقتربت منها ياسمين تمسح على شعرها في قلق.

— أنت بخير؟!

أجابت ببسمة مُصطنعة تهز رأسها بالإيجاب.

— خالتك ستقضي معنا اليوم، لا تتأخري ستتناول معنا الغداء.

— سأحاول أن لا أتأخر.

حملت كتبها مغادرة.. رأسها لا يكف عن التفكير، وقلبها مرهق حد الموت.

ركب محمود بجوار أخيه ليوصله في طريقه، وعلامات العبوس لا تفارق وجهه، لمحها ياسين في المرأة ليلتفت له سائلاً عن سبب كل ذلك، وكأن قتيلاً قُتل له.

— لا أريد الذهاب.

— لماذا يا غبي؟!

— ماذا أملك هناك لكي أذهب؟ أمك وهي خالتهم.. أنت وتذهب

لأجل ياسمين.

داس فرامل السيارة صِعَقاً، صرخ فيه وكأن لا يعي ما وجه له.

— ماذا!! ماذا قلت؟

— لا شيء.

تراجع ما أن رأى الصدمة على وجهه، لا مشكلة لديه في إعادة سرد ما قاله، لكنه يعلم مدى خجله فلم يُرد أن يتحدى فيزيد الأمر سوءاً، أمّا عن ياسين فظلّ مشتتاً لفترة، بدا التوترُ في عينيه الزائغتين، وكأنّه يخفي رأسه في الرّمال كالنعام، الكلّ يرى حبه لياسمين، أمّا هو فينكر ذلك..

دخلت أميرة الجامعة متّجهة للكافتيريا حيث تنتظرُ سلمى، ابتسمت لها فور رؤيتها، جلسنا قليلاً فسألتها الأخيرة عن حالها، وكالعادة تُجيب أميرة بأنها بخير، تخفي الكثير تحت هذه العبارة، لعلّ الكيل ذات مرة يفيض، وينهار الصرخُ فيصرخ صاحبه "لم أكن بخير يوماً".

انهمكت ياسمين في إعداد مأكولات شتّى لاستقبال خالتها وابنيها، اتّصلت بأميرة تؤكد عليها عدم التأخر، اعتذرت حينها فهناك محاضرتان متأخرتان عليها أن تحضرهما.. طلبت منها حينها أن تنتظر ياسين ليعيدها للمنزل.

أمّا عن ياسين، ففي هذه الآونة كان قد أنهى عمله، ثمّ اتّجه إلى المنزل لإيصال والدته، فتح الباب باحثاً عن محمود يميناً ويساراً، ذاب كالمح.. سأل أمّه عنه فأخبرته أنّه لم يأت بعد.

- ألم اتّفق معه على القدوم باكراً اليوم؟!

- ياسمين تنتظر الآن، قم بمعاتبته فيما بعد.

خرج كلاهما من المنزل بعد أن أغلق ياسين باب الشقة في غضب، حمل في صدره الكثير من الغيظ لأخيه الذي لا يلتزم بكلمته أبداً.

ومحمود في هذه الأثناء كان يجلس مع صديقه يونس بإحدى الزوايا بالجامعة يتسامران، لم يكفّ النظر إلى ساعة يده بين الحين والآخر، لفت ذلك نظرَ يونس.

- أنت، ألم تقل أنّ أخاك ينتظرك؟

- دَعَكْ منه.

أجاب في لامبالاة مُعتادة، لم يحاول الحديث في ذلك الأمر فهو يُدرك صديقه جيّدًا، فكما يقولون "أهل روما أعلم بشعبها".

هُرعت ياسمين لفتح الباب عندما سمعتُ طرقة، ما أن رآها ياسين حتى ذاب كقطعةٍ سكرٍ، لمعت عيناه وتجمّدت قدماه وكأنّ الزمان توقّف، والأنام من حوله اختفوا.

- ياسين، أَسْتَظِلُّ واقفاً مكانك؟!

قالتها سعاد لتنتشلَه من أحلامه الوردية، وتعيده إلى أرض الواقع، مسح رأسه تعبيرًا عن خجله، ثم دخل مُسرّعًا، كانت ياسمين - وما زالت - حبّ طفولته وشبابه، تتفتّح الورود في روحه فور رؤيتها، ويمتلئ الكون من حوله بها، فهو لها الوهان الصامت.

- أين أميرة؟

- ستأخّر اليوم، لديها بعض المحاضرات المتأخّرة.

ظَلَّت ياسمين تتحدّث مع خالتها، وياسين متابعٌ في صمت، تتلأأ عيناه بالحبّ، لم يتفوّه بكلمة لكنّ مقتلته قد وشّيا به، أنقذته أمّه قبل افتضاح أمره أمامها، وطلبت منه الانصراف لإحضار أميرة.

أمسك هاتفه محاولاً الاتصال بمحمود، قطع مجلسه مع أصدقائه.. ما أن رأى الأخير اسم أخيه على الهاتف حتى تأفف في ضيق.. تملّص من الإجابة وياسين لا يكف عن الاتصال.

- ماذا؟!

- حسابي معك لن يكون في الوقت الحالي، فقط ينتهي اليوم وسأضع لك حداً، انتظرني أمام الجامعة.

أغلق الهاتف، والعبوس على وجهه ليضاحكه يونس.

- أببكاك؟

- خفيف الظلّ.

أجابه محمود ساخراً، مُقنّعا غضبه باللامبالاة.. مكلّلاً رجليه بالصمت.

جلست أميرة وسلمى معاً تتسامران، تفرغ كلّ منهما ما في جعبتها للأخرى، مرّت عدّة دقائق فبدأ مشهد ما عكّر صفوهما، نعم.. كان هو.

سمير برفقة فتاته الجديدة، مرّ بمحاذاة أميرة كأنّ لم يعرفها قبل، لم يكلف نفسه عناء النظر إليها حتى، وكأنّ كلّ ما حدث بالأمس لم يحدث قط.

كيف له أن يتجنّب الذكريات التي تنهش في ذاكرة المحبين؟! المحبين.. أيّ محبين! فهو لم يحب يوماً، كيف للحب الصادق أن يُنسى في غضون أيام؟!

الموتُ لأميرة فقط، عليها الأخرى أن تدفع ثمن غباؤها، كيف لها أن تثق بأحدهم، لم يصنع خطوة واحدة لأجلها على أرض الوقع، كلّ ما فعله أن رسم لها قصوراً من كلمات، بخيالها فقط.

- يا لوقاحته!!

قالتهأ سلمى بغضب تستنكر ما تراه، التفتت إلى أميرة.. لمحت نظرة القهر مرتبعة بقلب عينيها، بدا وكأنها تقاوم الدموع.. مقيدة بالعجز لا تستطيع رفع الألم عنها، حاولت حينها الانسحاب خشية الانهيار أمام صديقتها.

- سأذهب لجلب شيء ما، وسأتي على الفور.

- أنا هنا في انتظارك.

لم تحاول إيقافها، تعلم مدى احتياجها للحظات انفراد، رحلت وسلمى تتبعها بمقلتين حزينتين، همس لنفسها "مسكينة أميرة".

خرجت لمكان مفتوح فارغ بعيد عن الكافتيريا، يظهر منه الجالسون بها، تسترق النظر إليه، تسترجع لحظات الوهم التي أغرقها فيها، انفرط عقد عبراتها فالتار تأكل قلبها، كيف لها أن تعود إلى الماضي، كيف لها أن تمسح ذكريات هي السبب فيما تشعر به الآن من ألم.

توقفت سيارة ياسين أمام الجامعة، اتصل بأميرة ولم تجب.. تركت هاتفها بالقرب من سلمى، فتشت حينها عنها بناظرها فلم تجدها فهمت بالرد، المرة الأولى بين سلمى وياسين.. طلب منها فيها أن تبقى معه على الهاتف حتى يلقاها لتوصله بابنة خالته.. كل منهما يسير بطريق حتى لمح إحداهما الآخر، فأغلقا هاتفيهما متجهين صوب بعضهما بعضاً.

أما محمود، فقد اختطفته سلمى من الوجود، يحملق بها على المدى الطويل، وكأنها المرة الأولى التي يرى فيها فتاة.

- ألا تعرفين أين هي؟

- ستأتي بعد قليل.

يسألها ياسين فتجيئه، صوته في أذني محمود قادماً من عالم آخر، كاديكشف أمره حتى قطع حديثهم مشهدُ قدوم أميرة من بعيد، نادتها سلمى فلم تجبها، شاردة وكأنها تسير بعالم آخر.

آهات قلبها غطت على مسامعها؛ فصمتت كل الأصوات حولها عدا صوت الألم، تطلق ساقها للريح ولا ترى موضع قدميها، لم تكف سلمى عن النداء، ومن بين صيحاتها ظهرت سيارة وكأنها من المجهول، ارتفعت صرخاتها منبهة:

- انتبهي أميرة.

وفي اللحظة التي انتشلتها فيها من شرودها دهستها السيارة، ثم انطلق صاحبها فاراً، ذابت كفص الملح.. سقطت على الأرض فاقدة للوعي.

استعادت الأميرة كاميليا وعيها، رفعت ستائر مقليتها في وهن رويداً رويداً، أمعنت النظر فوجدته، ذاك الشاب الغريب الأطوار الذي نعتها بكاميليا، حدثت نفسها محاولة التشبث بوعيها مجدداً، ابتسم لها يحدثها:

- ها قد استيقظت، أنت بخير؟

- من أنت؟ أين أنا؟!

- ستعلمين كل شيء في القريب، أعرفك بنفسي، أنا أدعى فارس، أسكن هنا، أحد الشباب المدافعين عن والدك الملك، أبرع في الطب وأمور أخرى كالقتال والمبارزة، لا تقلقي أنت هنا في أيدي أمينة، انتظرتك منذ مدة لتستيقظي لكن سباتك كان عميقاً.

استمعتُ إليه وكأنّه فاقدٌ لعقله، فحتى اللحظة لا يسعها فهمٌ ما يجري.
 - لا أفهم شيئاً.. ما الذي أتى بي إلى هنا؟ وما هذا الرّداء؟ ومن كاميليا؟
 تسأل وغصّة البكاء في حلّقها، ماذا يسعك أن تفعل إذا أغمضت عينيك،
 ثمّ استيقظت فوجدت نفسك شخصاً آخر غيرك يعيش حياةً أخرى بعالم
 آخر، وكأنّه يفهم ما يدور.. حاول احتواء حالتها:
 - أنتِ الأميرة كاميليا.

صرختُ فيه تستنكرُ كلماته، حاولت إقناعه عن ماهيتها، يستمع إليها
 صامتاً يخشى عليها من غضبها..

- اهذهني، ستفقدين وعيك مرّةً أخرى، هذا الصّباح لن يفيد، سأغادر
 وسنتحدّث لاحقاً في هذا الأمر، الآن ارتاحي.

همّ بمساعدتها للعودة إلى مضجعها، تركها فلقاً، فعيناها متردّتان
 حائرتان، لا تعلم من هذا.. ولا عن ماذا يتحدّث، لا تعلم حتى أين هي..
 ولا من تكون.. ولا حتى كيف أتت؟!

خرج من الكوخ شارداً يفكرُ بكلمات الأميرة، جلس على العشب الأخضر
 أعلى التلّ، لا يدري ما الذي ينتظر هذه المسكينة، قطع شروده أحدُ الفلاحين
 يخرج من الغابة صاعداً التلّ، تأهّب فارس للهجوم ثمّ تراجع عندما تأكد أنّه
 صديق، تنفّس الصعداء معاتباً إيّاه.

- كدت أصعقُ يا رجل.

- آسف، جئت أسأل عن الأميرة، كيف حالها اليوم؟

تذكّر فارس مأساتها بعد سؤاله، فأنسدلت أستارُ الحزن على معالم
 وجهه.

- لا أدري ماذا أصابها، بدا وكأنّها فقدت الذاكرة أو أصيبت باضطراب
ما إثر إصابة رأسها، لا تتذكر أيّ شيء، تدّعي أنها شخصٌ آخر من مكانٍ
آخر.

صُعق الفلاحُ لسماعه هذه الكلمات، فهي أمْلهم الوحيد للنجاة من
مغتصب العرش الذي نهب الكنوز واغتصب النساء ودمّر أراضيهم، حاول
فارس أن يهدّئ من روعه محدثاً إيّاه:

- لا بأس، لا تقلق؛ فأنا معها حتى تستعيد ذاكرتها، حتى نستطيع
التخلّص من ذاك الظالم الذي أقال والدها وأسرّه، ثمّ استولى على عرشه،
وأخذ يسطو على كنوز البلاد، وملاً الدّنيا ظلمًا وقهرًا وفقراً.

طلب منه فارس الرحيل، وأن يحفظ ذاك السرّ، ولا يخبر به أحداً، فمن
بين الفلاحين بعض الجواسيس لصالح المَغْتصب، ويخشى أن يصل له خبرٌ
بمكانها الآن.



مملكةُ النور، أكبرُ ممالك السّحر الزّمردي على الأرض، سحر مضادّ
للسّحر الأسود، تحمي الممالك المحيطة، تحوي أكبرَ قصور الكون، حيث
يسكن الملك مقدنيو بعد أن سطا على العرش وانتزع الملكَ عنوةً من الملك
الشّرعي سليمان، أسرّه هو وابنته، رماه بسجن قابع بأعلى أبراج القصر.

رجلٌ ضخّم الجثّة، جامدٌ الملامح، معقوفُ الأنف، عيونه السوداء تشعّ
غضبًا وكرهاً، يخشاه من سمع عنه، جافّ لا يملك قلباً.

فلنقترب من القصر.

صوتٌ صياح يهزُّ أركانه، إنَّه الملكُ مقدنيو، أحدهم يقفُ أمامه بساقين مرتعدتين وجهتهُ نديةٌ تُظهرُ توتره.. مَنْ يكون؟ لنقترب أكثر.. إنَّه أوكتافيوس وزيره..

- ماذا تقول؟ ماذا تعني بأنكم لم تجدوها؟!

صرخَ مقدنيو في وجهه، أجب الأخير كالطفل المذنب:

- هذا ما حدث يا مولاي، بحثنا في كلِّ أرجاء المملكة، ولا أثر.

- كيف؟! أتريد إقناعي أنَّها استطاعتِ الهرب من المملكة؟ أين رجالك!

مسح أوكتافيوس جبهتهُ محاولاً التماسك، أجبَ بصوتٍ مضطرب:

- فعلنا يا سيدي، لكن..

قاطعه مقدنيو يواري غضبه، ابتسم متلاعباً بأعصابه.

- إنَّ لم تجدها سامر بقطع رأسك، إمَّا رأسك أو كاميليا.

ابتلع أوكتافيوس ريقه فور أن سمع عبارة الملك، يعلمُ جيداً أنه رقم يمكن استبداله بأية لحظة، أجب مُنصاعاً:

- بأمرك مولاي.

انحنى مظهرًا الخضوع، استدار للخروج من القصر يتنفس الصعداء، سار كمن لا ساق تحته، أمَّا عن مقدنيو فتبعه بعينه حتى اختفى عن ناظره، ثم همَّ بالجلوس في غضب.

لم يتصدَّر المشهد أوكتافيوس ومقدنيو فقط، بدا وكأنَّ هناك ثالثاً لهما متوارياً يراقبُ في حذر، واحدة من خادِمات القصر، تُدعى "آن".

آن.. واحدةً من أتباع الملك سليمان، تعمل بالقصر دون علم مقدنيو، لم يعلم بأمرها نظرًا لكثرة الخدم وبراعتها في التخفي.. كما أنّ أكثرهنّ يكنّ له الكثير من الكره.. فمن الصعب إنّ علمت إحداهنّ إفشاء سرّها، عملت على التجسس لنقل الأخبار إلى فارس، تمتّ لو يسقط ذاك المغتصب مقدنيو.

هوت أميرة تحتضنها الأرض، يضعف نبض قلبها رويدًا، تخضبت ملابسها بالدماء، وتشربت الأرض البعض منه، تمتّ لو يصمت قلبها إلى الأبد، ويبدو أنّه قد رآف بحالها وقرّر أن يتوقّف.. يتوقّف ليضع الحدّ لذاك الألم القابع بأحشاء الروح.

اجتمع الناس على المشهد الدامي، منهم المتفرّج والآخر مُسعف، انسدلت ستائر مقتلتيها رويدًا، ماجت الصور من حولها على صفحة بيضاء، تسمع نداء سلمى كالشوش حتى انقطعت الأصوات من حولها، انصهر وعيها بشكل كلي؛ فقدت اتّصالها بالأحياء، علّها الآن جثة كما تمتّ.

- اتّصلوا برجال الإسعاف والشرطة بسرعة، تحرّك يا محمود، أميرة لا تنطق.

صرخ ياسين بأخيه ليهزول مسرعًا طلبًا للنجدة، لم تستطع سلمى التماسك، أجهشت في البكاء، وبعد مدّة من الزمن حضر رجال الإسعاف، حملوها للسيارة وإلى جوارها سلمى ياسين.

- محمود، عدّ إلى المنزل، أحضر ياسمين وأمي.

ومن بين الصراخ والضّغط العصبي للجميع، أمسكت سلمى بكفّ أميرة هامسةً إليها "لا تموتي، تماسكي لأجلي".

ذابَ سمير بعيني أسماء، كانت جميلةً هي الأخرى، صيدٌ لإشباع شهواته ورغباته، عيناها كجدائل شعرها بلون الشمس، هيفاء تملك وجهًا ناصعَ البياض وبشرةً نفية، لم يكن ذلك مجانيًا، كانت مغرورة أيضًا.

فوالدهما حمدي مكرم رجلُ الأعمال فاحش الثراء، من حيتان السوق، هي وسمير يشبهان بعضهما كثيرًا، شقَّ وقد وجد نظيره، سمير زيرُ نساء، حاصل على الأوسكار في الكذب والخداع مستغلًا شكله الجذاب وكلامه المعسول، وهي تشتري مَنْ أرادت، لا أحد يستطيع كسرَ كلمة لها، هكذا اعتادت وتربّت، محقّوة بحقّ، محاطة بكثير من المنافقين، فضلًا عن أنّ سمير ابن أحد الأغنياء، فالمال في الغالب لا يفلّ إلا المال في مجتمع طبقي عنصري.

بينما سمير وفاته يتسامران سمعَ صوتَ صياح بالخارج وحركة زائدة، ترك الكافيتيريا يطلع على ما يحدث فإذا به يلمحُ أدهم مهرولًا، فنادى عليه مستفسرًا عما يجري..

- ماذا هناك؟ لم كلّ هذه الضجة؟!

- أميرة دهستها سيارة منذ قليل، ونقلتها سيارة الإسعاف.

اندهش وكأنّه غيرُ مستوعب لما يسمعه..

- ماذا!! مَنْ فعل ذلك؟

تابعتُ أسماء حديثهما، وما أن لمحت على عينيه الحزن حتى اشتعلت الغيرة تأكل قلبها، حاولت حينها تشتيته فتدللت في كيد:

- وما دخلنا بهذا؟! هيّا حتى لا نتأخّر على المحاضرة.

بدا وكأنّ سمير مسروق اللب؛ فكيف لمن كان يراها منذ مدّة لا تتعدّى الساعة أن تدهسها سيارة، قد تكون في عداد الأموات الآن، أعاد نظريه

إلى أسماء محاولاً عدم إظهار ما يدور في رأسه.. أشار بالإيماء دون التفوه
بحديث، ورافقها كما طلبت.

استلقى فارس على العشب مشبكاً يديه خلف رأسه، يتأمل الشمس
وقت الغروب حيث تبتلعها السماء رويداً، وقد تلاها الليل سادلاً أستاره،
فتبدو السماء كثوب مرصع بأروع اللائى.. يفكر في القادم، غط في النوم، لا
زالت الكوابيس تراوده بشأن والديه، كأن ما رآه قد أقسم ألا يمحي.

ذات نهار، عاد إلى منزله.. فوجد والديه مخضبين بالدماء.. قتلهم مقدنيو
حين قاوماه في بحثه عن فارس، يفتش عن أي نبض بجسديهما الرث، وجد
أمه قد قضت نحبها وأباه يلفظ النفس الأخير.. لا زالت كلماته الأخيرة
عالقة في ذهنه، فقد أوصاه أن يقاوم، يقاوم حتى آخر قطرة دم.

استسلمت دمعة حارة على وجنتيه، أجفانه منسدلة، والعقل مستيقظ
يأبى الغفلة والهوان.

استيقظت الأميرة.. وجدت الليل قد حلّ، وقنديل به فتيلة مشتعلة ينير
الكوخ المظلم، تحاملت على قدميها محاولة الوقوف، سارت حتى وصلت
للنافذة، تأملت "فارس" من حيث لا يراها، تفكر في كل ما دار.. في البداية لم
تصدق كونها كاميليا.. لكنّها - ومع الوقت - بدأت تصدق، ثم تعود لسؤال
نفسها من جديد "إن كنت كاميليا فمن أميرة؟ أكانت حُلماً!.."

تراجعت فسقط دلو معدني محدثاً ضوضاء.. انتشلت "فارس" من
أحلامه، انتفض من نومه في فزع.. تاهب لأي هجوم فخشيته كاميليا،

وعادت بسرعة إلى تحتها مدعية النوم، وعندما سمعت خطواته تقترب منها
فزّت في مكانها.. ابتسم محاولاً تهدئتها.

- اهدي.. اهدي لا تخافي، أنا هنا لحمايتك.

نظرت إليه في خوف، تحدّثه وكأنّه أحد أعدائها:

- ماذا تريد؟

- أريدك أن تهدئي فقط، أقدر ما أنت فيه، سأجيب على أيّ سؤال
توجهينه إليّ إن كان سيرحك هذا ويجعلك تثقين بي.

بدأ الأمان يتسرّب إلى عروقها، هدأ نبض القلب ورحل الخوف، تسأله
فيحببها، وكلّ إجابة تصنع لغزاً جديداً لها تحتاج تفسيره وفهمه.

- من أنا؟

سألته ذاك السؤال مرّات عدّة، ليعيد الإجابة نفسها.

- أنت الأميرة كاميليا، وريثة عرش مملكة النور، ابنة الملك سليمان، أجمل
أميرة من بين أميرات الممالك.

- أميرة ماذا؟! يا حضرت، أنا لست كاميليا، أنا أميرة..

قاطعها مؤكّداً:

- أنت بالفعل أميرة.

- هذا اسمي وليست مهنتي، لا أعلم من كاميليا هذه ولا علاقتي بها،
هذا ليس مكاني ولا أنتمي إليه، أعلم أنّه جنون لكنني أعيش بعالم آخر، كلّ
ما أتذكره أنّي تعرّضت لحادث استيقظت لأجد نفسي هنا، مع شخص مجنون
يحدّثني عن كوني أخرى.

مضطربة تتلعثم، الكلمات تخرج من فمها في شتات، يداها لا تكف عن الحركة، هم بالتوضيح أكثر على أمل أن تطمئن:

- لقد تم أسرك، ثم نجحت في الهرب، وهناك إصابة ما برأسك أفقدت الوعي فترة، لعل كل ما ترويه الآن حلمًا روادك، ولا تستطيعين التفرقة بين الواقع والأوهام لاضطراب رأسك بسبب ما حدث لك، لم تفترضين العكس؟

بدا على ملامحها الأسى، تشعر أنه محقّ، تحدّث نفسها في حزن "أكل ذاك كان حلمًا؟ أيعقل ذلك؟، أختي ياسمين وخالتي وكل هؤلاء ليس لهم وجود إلا في خيالي؟ يا إلهي سأجنّ".

نظرات الحيرة التي بدت على ملامحها آلت "فارس"، تنظر إليه غير مستوعبة ما يقول، أغلق المجال في وجه عقلها.. أحضر لها بعض الطعام وطلب منها أن تتناوله.. حاولت أكل البعض.. تابعها وهو على دراية بالمعمعة الطاحنة الي تدور داخلها الآن.

أنطونيو.. أحد قادة الجيش، رجل غليظ عملاق، يملك حياة كثيفة، يتدلّى شعر شاربه على فتحة فمه، حتى إذا رأيته ظننته بلا فم، جاحظ العينين، تغطي الهالات محيطهما.

وقف أعلى أحد الأبراج يتأمل ذاك التلّ البعيد الذي يلي الغابة، ثم التف في همّة تاركًا مكانه، دخل على أوكتافوس فاستقام جالسًا يترقب.

- ماذا هناك؟

- يساورني الشكّ عن أحد الأماكن، أشكّ باختباء الأميرة هناك.
 فزّ بعد أن سمع كلماته، وكأنّها لدغته أفعى صارخاً فيه:
 - وماذا تنتظر؟ أنتتظر جلبَ رقبتَي حتى تتحرّك، قمّ بالتحرّك في الحال.

كان وقعُ الكلمات على أوكتافيوس شديداً، كغريق يتشبّث بقشة نجاة،
 أوّماً أنطونيو برأسه.
 - أمرك.

هرولَ أوكتافيوس لقصر مقدنيو يتلو على مسامعه ما جرى، كانت "آن" تتلخّف بالجدران القرية تطلق مسامعها، سمعت كلّ ما دار، حلّ الليل فتخفّت في عباءة سوداء غطتها من الرّأس حتى أخمض القدم، انصرفت في هدوء من الباب الخلفي للقصر، حاولت الوصول إلى التلّ لتحذير فارس ليهرب بالأميرة.

تتلاحق أنفاسُها تناديه ما أن وصلت للتلّ، فاستأذن الأميرة مسرعاً إليها.

- ماذا هناك؟

- هناك جيشٌ كامل في طريقه إلى هنا، عليك ترك المكان في الحال.
 طلب من "آن" الانصراف قبل أن يلاحظ أحدٌ غيابها شاكرًا إيّاها، هرول إلى الداخل، أمسك بمعصم الأميرة صارخاً فيها.
 - يجب أن نذهب من هنا الآن حالاً.

أجابت في عناد:

- لن أتحرك حتى أفهم.

لم يترك مجالاً للاعتراض، قطع النقاش بحملها مهرولاً، لا وقت لثرثرة
 لن تجدي نفعاً مع امرأة عنيدة، فضلاً عن جروح قدمها وذراعها.
 في تلك اللحظة، اقتحم الجيش الغابة وصولاً للتل.

أسرع فارس يشقّ الأرض عدوّاً في الاتجاه المعاكس للغابة حتى خرج
 منها، وصل الجيش في اللحظة الموازية للكوخ، يفتشون في أرجائه منتشرين
 في بقع مختلفة من الغابة.

توقّف فارس خلفَ جبل في ظهر الغابة، أنزل كاميليا مرهقاً كادت
 تسبّب له خُلعاً من لكماتها المتواصلة له، وتتسبّب في ثقب بأذنه من صراخها
 المتواصل بـ "أنزلي الآن، أنزلي، قلت لك أنزلي".

ما أن وطأت قدمها الأرض حتى دفعته صارخةً في وجهه:

- كيف سوّلت لك نفسك فعلَ ذلك، أجننت؟!

- أكنت تريد أن أنتظر حتى يكون الاحتفال اليوم بقطع رأسينا؟

صاح في وجهها معاتباً، اتسع بؤبؤ عينيها صعباً، تجمّعت الدموع في
 مقلتيها ثم انفطرت كحبات عقد.

- لا أفهم شيئاً، لا أفهم شيئاً، ماذا يحدث لي؟!

رقّ لها، دموعها آلمته، شعر بالذنب لصراخه فيها، حاول التهذئة من
 روعها محدثاً إياها:

- سوف أحميك، أعدك بذلك.

ابتسمت من بين دموعها ساخرة، ثم أجابته في استنكار:

- ومَن أنت؟ أنا حتى لا أعرفك، أنا لا أعرف مَن أنا!!

— أنا هنا لأجلك.

همس بها لتطمئن، شعورٌ غامض خيم على كيانها، تنفادى التفكير به
فهناك أمور أخرى تحتاج لإدخار طاقتها، أضرم فارس النار ببعض قطع
الحطب التى جمعها للتخيم بعد تأكده من أنهم في مأمن.

— سنخيم هنا حتى الصباح.

اقتربت كاميليا من النار طمعاً في بعض الدفء، التفتت إلى فارس تسأله
عماً عليها فعله الآن.

— عندما احتلّ مقدنيو هذه المملكة، فرّ الكثير من أهلها إلى مكان بعيد،
سنسافر إلى هناك.

— ماذا؟ سنسافر؟ والمكان بعيد!! ألا ترى قدمي؟ أنا لا أستطيع التحرك،
ما الشيء السريع الذي سيقننا برأيك، لا أظنّ كون هذا المكان يحوي
طائرات.

— طائرات!! عن ماذا تتحدثين؟

— أوه، حسنًا يبدو وأنتي أصبت.. سأحاول الشرح، الطائرة عبارة عن
آلة ضخمة تشبه الطائرة.. لها جناحان مفرّغة من الداخل وبها مقاعد.. تنقل
النّاس من مكان إلى آخر عبر التحليق في الجو.

رفع فارس أحد حاجبيه ولم يعلّق، تحطّى الحديث في هذا الأمر فهو لا
يفهم ما تقصده.. ظلّها مازالت تهذي.

— أيّاً ما كان الذي تتحدثين عنه، لدينا أفضل منه، ويقوم بنفس المهمة.

نظرت إليه بمنتصف عين، وكأنّها تراه يبالغ.

- وما هو يا أذكى عصرِكَ وزمانِكَ.

مدّ ذراعيه وكأنه سيخلق مجيئاً لها:

- تَين.

- تَين!! كنت أشعر أنّك مجنون، والآن تأكّدت، تَين ماذا الذي تتحدّث

عنه، أتصدّق هذه الأمور؟!

تعجّب منها، فكيف لأميرة ككاميليا أن تنسى تَينها؟ حاول توضيح

الأمر لها:

- أيتها الأميرة، لدى كلّ أميرة بالملكة تَينٌ يمكنها استدعاؤه في أيّ

وقت وتسخره.

لم تقتنع بكلماته، فعرض فارس عليها التجربة، رفضتْ ومع محاولاته

استجابت فبدأ بشرح الأمر.

- سأفعل لإثبات حماقتك.

- اغمضي عينيك، ضعي يدك على قلبك، ومن أعماقِك حاولي مناداته

سيسمَعك ويأتي إليك.

تحدّث إليها بجديّة وكأنّ الكلمات تخرج من قاع روحه، انفجرتْ ضاحكة

فكيف له أن يصدّق ما يقول.

- أنا لا أمزح، من فضلك حاولي فعلَ ما أطلبه.

فشلتِ المحاولة الأولى لفقدانها اليقين..

- سيأتي، آمني به، ناديه من أعماقِك.

لمستها كلماته الهادئة، لا تعلم سببَ تصديقها له رغم عدم اقتناعها بفكرة

التنانين، ففي عالم ظنت يوماً أنها تعيش فيه كانت مجرد أسطورة، تنهدت.. أسدلت ستائر مقلتيها، بدأت في المنادة.

"أيها التنين، أنا سيدتك، هروّل إلي، شقّ السحاب تحليقاً".

ما لبثت أن أنهيت كلماتها حتى سمعت صوت جناحين يقطعان الهواء قطعاً، تطايرت خصلات شعرها، فتحت إحدى عينيها لتجده.

عملاق يقف بشموخ على الأرض مقابلها لها، توقفت الكلمات بحلقها، كادت تصرخ من الخوف حتى وضع فارس يده على فمها.

- اهدهني.

رفع يده عن فيها عندما اطمأن لاستيعابها الموقف، تركها تتأمله.. وكأن الدهشة جمدت ملاحظها.

تدلّ أنيابه من فمه، أجنحته قوية عملاقة، تغطي الحراشيف قدميه وظهره وذيله الذي له نهاية تشبه رأس السهم، أظافره كأظافر الصقر.

سألها فارس التقدّم فتراجعت، تجمّد الدم في عروقها، أمسك بكفّها الذي يرتعش وقد اقترب من رأسه.

- لا تخافي، لقد خلق لأجلك، طوع أمرك أنت.

تحسّست رأسه بعد تردّد بيدها الصغيرة، فبادلها التنين الاقتراب مستحسنًا ذلك، برك أرضاً مطأطى الرأس تعبيراً عن حبه، ضحكت متخطية حاجز الخوف، كيف لهذا الجسد العملاق أن يحمل هذا اللطف.

تأملها فارس بينما انشغلت بتئينها.. همس إلى نفسه بكلمات تحمل الدهشة في طياتها "أيعقل أن أعجب بأميرة؟".

الفصل الثاني

كادت تلقى ياسمين حنفها قلماً، تتصل مراراً وتكراراً بياسين ولا إجابة، لاحظت خالتها اضطرابها فحاولت تهدئتها، قطع حديثهما صوت الباب فأسرعت لفتحه، كان محمود.

نظرت إليه في ترقب، وكأنها تنتظر ما سيقول على الجمر، فشئت خلفه فلم تجد أميرة، رفعت ناظرها إليه بأعين متسائلة فهربت عيناه من ملاقة عينها، لا يعرف كيف يخبرها، قطعت الصمت بسؤالها:
- أين ياسين وأميرة؟

وقف صامتاً تتسارع نبضاته، طأطأ رأسه خشية مواجهتها، فأعادت سؤالها بصوت هادئ كمن أيقن حدوث مصيبة، حسمت سعاد الأمر بسؤالها ليجيبها:

- أميرة تعرضت لحادث، نقلت إلى المشفى وياسين الآن معها.



أمام إحدى العمارات توقفت سيارة حمراء حديثة، خرج منها شاب عشريني مسرعاً باتجاهها، دخل المصعد ضاعطاً أحد أزراره، يتأمل وجهه بمرآة معلقة، نظر صوب مقلتيه مشتتاً، دقات قلبه في ازدياد.. أنفاسه تتسابق شهيقاً زفيراً، حدث نفسه وكأنه يعاتبها غير مستوعب "كيف سوّلت لي نفسي فعل ذلك! يا إلهي.. ماذا عليّ أن أفعل؟، أقضت نجبها، أمر مؤكّد.. لقد كانت تحت عجلات سيارتي، كيف لي أن أقتلها، أحق غبي!!".

صفع نفسه نادماً، أكمل حديثه لنفسه "ماذا لو استطاع أحدهم كتابة أرقام السيارة، ماذا لو أن أحدهم التقط وجهي".

قطع شروده صوتُ باب المصعد يُفتح مُعلنًا وصوله، خرج منه مسرعاً إلى شقته متّجهاً إلى غرفته، أحكم غلق الباب، ما لبث أن جلس على مضجعه حتى فتحه أحد ما.

- جمال؟

كانت السيدة فريال والدته، فجبال بن حسان الدمنهوري، أحد رجال الأعمال ومن الرّواد في تجارة السيارات، فهو الابن الأكبر له، ويبلغ من العمر عقدين ونصف العقد، يعمل في التجارة مع والده، وله أخ أصغر، أمّا عن والدته فهي من سلالة امتدّت منذ عصر الملوك والبشوات، فرغم انتهاء هذا العصر إلا أنه لا زال لاسم عائلتها صدى رنان، تزوّجها حسان لكسب السمعة، كان الأساس صفقة وتحوّلت لزواج.

رفع وجهه إليها متوتراً، حاول حينها التماسك حتى لا تلاحظ فتسأله..

- ما الذي أتى بك باكراً؟

- لا، لا شيء أمّي.

في البداية تعجّبت من صوته المهزوز، وعندما أعادت عليه السؤال ساورها الشك، جمال منذ نعومة أظافره إن ارتكب خطأ وحاول إخفاءه ظهر ذلك في طبقات صوته.. تجنّبت الحديث في الأمر.

- أأمر الخادمة بتحضير الطعام؟

- لا، لا لست جائعاً الآن.

- كما ترغب.. إذا احتجت شيئاً نادني.

أغلقت الباب خلفها، ثم عادت للتفكير، وكأنه يخفي عنها أمراً ما.
 امرأة قوية عُرِفَتْ بحزمها، تتدخل في كل ما هو خاص بأولادها، نظراً
 للاسم والمال تشعبت علاقاتها بذوي النفوذ.. تستطيع حل أي أمرٍ بساعات
 قليلة.

على باب العناية المركزة وقفت ياسمين، اتسع بؤبؤ عينيها عندما شاهدت
 مظهر ياسين، قميصه الأبيض مخضّب بالدماء.. وكأنه يحدثها بفقدان أختها
 الصغرى للأبد، توقفت الكلمات على لسانها، نظرات الفزع في عينيها
 لخصت الحديث.. وأي حديث يقال في مشهد كهذا، وكأنّ العالم ذاب من
 حولها، تسرب الضعف إلى أطرافها، فكادت تسقط بالأرض إلا أن أمسك
 بها ياسين، لا يدري هو الآخر كيف يمكنه طمأننتها، فشكّل أميرة لا يوحى
 بإمكانية إنقاذها، يحدثها على أمل في تسكين هذا الألم، فبعض الكلمات كفيلة
 أن تكون مخدراً مؤقتاً لجرح غائر.

- اهديني ستكون بخير.

- أميرة ضاعت يا ياسين.

انفرط عقد عبراتها، شعر بضعفها يزداد أكثر بين يديه، لم تعد قادرة على
 الوقوف، طلبت سعاد منه الاتصال بهالة وأجد والديها للحضور بأسرع
 وقت.

اقترَبَ فارس من الأميرة كاميليا متحدثاً:

- ما رأيك أن تجربِي ركوبه؟

انفجرت حينها ضاحكة.

- أركب تين!! يا إلهي.. أنا لم أركب حصاناً قبلاً حتى أركب تيناً.
تعجب من كلماتها، يعلم كونها امتطته مرات ومرات، فالأميرات يتدربن
على ركوبه منذ نعومة أظافرهن.

- من قال ذلك؟! هذه ليست المرة الأولى يا أميرة، لطالما أحببت التحليق
على ظهره.

- أنا!!

- نعم أنت.

استجابت إلى عرضه بشأن ركوب التين، وما أن همت بركوبه حتى
تراجعت.

- ماذا هناك!؟

- صراحةً أخشى ركوبه بمفردي.

أوماً برأسه، تسلق أحد جناحيه ثم طلب منها أن تعطيه كفيها، أمسكها
في رفق، رفعها للأعلى حتى استطاعت الوصول إلى ظهره، لم تفلت يده فلحق
بها يجلس خلفها، اقترب منها أكثر لتزداد طمأنينة، تتأمل قدميها وجناحي
التين، تستكشف أجزاء جسده وكأنها المرة الأولى.

- هل وظيفته التنقل فقط؟

- لا.. له وظائف عديدة أيضاً.

- كماذا؟

نظر فارس إلى جذع شجرة قريب، ثم طلب منها التمسك جيداً، تسرب

إليها بعض التوتر من نبرته الجادة، وكأنَّ أمرًا غير معتاد سيحدث.

- مُريه أن يحرق ذلك الجذع.

- أمره؟

- نعم، مُريه الآن.

ما لبثت تنهي عبارتها حتى استدارت كرة عملاقة من اللهب، تكبر طرديًا كلما زاد التّنين من فتح فمه، أطلقتها باتجاه الجذع فجعلت منه كتلة متفحّمة.

انتفضت فرعًا وكادت تسقط، اجتذبتها فارس ففقدَ هو الآخر توازنه وسقطا معًا من أعلاه، اصطدم بالأرض فوقعت بين ذراعيه كاميليا، ما أن استوعبت الأمرَ حتى نهضت سريعًا متورّدة الوجنتين، ابتسم فارس.. حاول حينها تفادي الموقف، نهض ينفُضُ التراب عن لباسه، ثمَّ نظر إليها يحدثها:

- انظري إلى الجذع، كاد يبيت رمادًا.

أومأت برأسها ثمَّ وضعت عينيها بالأرض، طلب منها أن تخلد للنوم وسيقوم هو بحراستها حتى الصباح، جلسَ بعيدًا نسبيًا، بينما استلقتُ هي بالقرب من النَّار لتتعم بالدفء، أعطته ظهرها مدّعية النوم تفكّر في كلّ ما دار، فيها مضي.. وما يمضي، عقلها لا يكفّ ضجيجًا.

عادت تفكّر بفارس، تتساءل عن السبب الذي يدفعها للشعور بالأمان كلّما كان بالقرب.. تحدّث نفسها: - لا أعرفه، ولا حتى أعرف مَنْ أنا، ورغم ذلك أطمئنّ كونه لن يتركني، يحدثني عن كوني أميرة ما، وعلى الرّغم من ذلك أصدّقه، أصدّقه بقلبي لا بعقلي، أشعر بصدّقه لم أستطع منذ اللحظة الأولى تكذيبه.

ثمَّ قطبت حاجبيها تلوم رأسها الذي لا يتوقف.

- لم كلّ هذا الصدااع، توقّفي.

غطّت أذنيها بكفّ يدها في محاولةٍ لإسكات أفكارها، أمّا عنه فعقله محلّقٌ بدنياً أخرى، يتأمّلها بينما استغرقت في النوم، ابتسمَ تعجباً من الأقدار فمقابلتها كانت شيئاً من الخيال عندما كان والدها ملك البلاد، في يوم ليلة تكن أجمل الأميرات بين يديه، يحميها هو فقط.. يشعر بانجذاب مّا ناحيتها.. عليه ألاّ يعترف بذلك؛ فالأميرة تظلّ أميرة، والخادم يظلّ خادماً.. بينهما الكثير والكثير، وكأنها تسكن السماء وهو أحد سكّان الأرض السابعة، كلّ ما يفعله لأجلها الآن ليعيدها لما كانت عليه، استفاق يؤكّد فكرته في حزن "كلّ ما عليّ أن أنقذها الآن".

سمع صوتاً بالقرب، فرفع سيفه خشية أيّ هجوم يحدث، تحرك في حذر، نادى الأميرة بصوت خافت حتى تستيقظ.
- أيّتها الأميرة.

التفتت إليه بعينٍ نصف مفتوحة من أثر النوم، أجابت بصوت ناعس:
- ماذا؟!

- هناك صوتٌ بالقرب، انهضي الآن واتبعيني.
فزّت في خوف، تبعته بحذر.. تشبّثت بجزءٍ من رداء، دقّق السمع حتى حدّد مصدر الصوت..

- إنه من نهاية الغابة حيث خرجنا.
أشار إلى كاميليا واضعاً أصبعه على فمه يحذر من إصدار أيّ صوت.
- هشّشش.

أومأت برأسها فجذبها ناحيته، اختبأ كلاهما خلف شجرة عملاقة بالقرب، صوت خطوات أقدام يزداد رويداً.. تأهب للانقضاض مشهراً سيفه، هجم متبعاً الكرّ والفرّ، كاد يضرب بسيفه لكنه توقف باللحظة الأخيرة، لم يكن بشرياً، إنه حصان مجنّح صغير.

تنفّس الصعداء محدثاً إيّاه ضاحكاً:

- أنت يا صغير من تسبّيت لنا بكلّ هذا الفزع!

خرجت كاميليا من خلف الشجرة بعدما سمعت ضحكاته، تجمّدت لدقائق، ثم اقتربت تتأمل الصغير، لديه جناحان ناصعا البياض كجناحي طائر.. رائعا الجمال، صاحت في تعجّب..

- يا إلهي، حصان مجنّح؟! ما هذا المكان؟!

- ليست المرّة الأولى التي ترينه فيها.

قطع المجنّح الصغير حديثهما باقترابه منها، بدا وكأنّه قد استلطفها، تردّدت في الاقتراب منه فتوقف ينظر إليها بعينين بريئتين، تأثرت بنظراته.

- آه، حسناً يا صغير، لا تحاول.

أمسك فارس بطنه من كثرة الضحك.

- ما بك؟ هذا مجرد حيوان صغير لا يمكنه إيذاءك أبداً.

بدا وكأنّ كلامه مقنعاً، حينها اقتربت منه الأميرة.. مدّت أناملها في محاولة للمس جلده الناعم، اقترب منها مستحسناً ملاطفتها.

- علّه تائه.

تحدّثت إلى فارس، ثمّ التفتت إلى المجنّح تهمس له في لطف: "أأنت تائه يا صغير؟" .. همّت باقتراح البحث عن أمّه فظهرت أمامها، هي الأخرى كانت تبحث عن الصغير.

ترك الصغيرُ كاميليا ليقف جانب أمّه، صهلت وكأنّها تشكرهما امتناناً، نكّست رأسها باتجاه وليدها مشيرة له بالتحرك.. ثمّ رحلا معاً.

بعثَ المشهد الأمانَ بصدر الأميرة، تذكّرت عائلتها من جديد.. كيف لها أن تحنّ للأوهام بهذا الشكل، اغرورقت عيناها بالدموع، أن تشعر بالوحشة في عالمك وكأنّك تسكن جسداً غير جسدك وتعيش حياة ليست لك؛ هو من أفسى أنواع الوحشة.

لمح فارس عبراتها.. كانت بخير، ماذا جرى؟
- لم البكاء؟!

وارتِ الدّمة بابتسامة، أجابت بكلماتٍ بعيدة وكأنّ السؤال لم يخرج من فمه.

- تنانين وأحصنة مجنّحة، ماذا ينتظرن بعد؟!
أضحكها ضحكاً، وكأنّ الشمس أشرقت بعد نهارٍ ممطر.. أطال النظر إليها فالتقت أعينهما، هرب بناظريه خجلاً.. وبعد كثيرٍ من الصمت.

- تعلمين، الطريق طويل وعلينا النوم الآن.

رفعت ذراعها المجبور تسأله:

- والجيرة في ذراعي؟

ابتسم..

— سأفحصها غدًا.

أومأت برأسها، ثم عادت للنوم بالقرب من تينها، وعاد هو لتأملها حتى حلّ الصباح.

عجيب أمرُ البشر حقًا، نفوسهم مثقلة بالغرور.. لا يدركون أهمية الأشياء إلا بعد فقدها، يعودون محملين بالندم والخيبة راجين عودة ما فقد، بماذا يفيد الميت رثاؤه؟ الندم لم يكن يومًا ثمنًا كافيًا لإرجاع الماضي أو تجميد الزمن وحبس الألوان، فإن فات لا أمل في العودة أبدًا.

خيّم الحزن على سمير منذ أن علم بحادث أميرة، لا يعلم سبب هذا الشعور على الرغم من اقتناعه التام بعدم تعلّقه بها، فهي كأي فتاة بالنسبة له، قد يكون السبب كون أميرة قد منحته ما لم تستطع منحه أي واحدة أخرى عرفها، فقد بذلت الغالي والنفيس.. كل ما قدّمته كان صادقًا.

انتهت المحاضرة.. خرج سمير برفقة أسماء شاردًا، شعرت بغيابه، تحدّثه وكأنه بعالم آخر:

— سمير، ما بك؟!

— لا شيء، مجهد قليلًا، سأعود للمنزل.

— ألن توصلني؟

— آسف، لست في مزاج جيد الآن.

غادرها تاركًا إيّاها خلفه، تعصّ على شفيتها غيظًا، منذ حادث أميرة وانقلبَت الأمور رأسًا على عقب، شاردًا حزينًا، تبعته بناظرها إلى أن ركب سيارته وانطلق مسرعًا، تتمتّ في نفسها "على ماذا؟ فلتذهب أميرة إلى

الجحيم". تناولت هاتفها تسبّ السائق لتأخّره، لم يكن ذلك سبب غضبها،
فما لم تستطع قوله لسمير أخرجته على ذاك الضّعيف؛ فلن يعترض.
أوقف سمير سيارته أمام العمارة التي تقع بها شقّته، استقلّ المصعد ثمّ
فتح باب الشقة، التفتت فريال ثمّ نادى الخادمة:
- ورد.

- نعم فريال هانم؟

- أحضري الطعام، سمير قد أتى.

تابعت تناول الشاي بشرفة المنزل، دخل عليها ابنها، قبّل يدها، ثمّ جلس
مقابلًا لها صامتًا غارقًا في شروده، وضعت فنجانها على المنضدة تسأله:
- ما بك أنت أيضًا؟!

- لا شيء يا أمّي.

- إن كان لا شيء، فلمّ وجهك عابس هكذا؟

- أمّي، لا شيء.

ومن بين تساؤلاتها قاطعت الخادمة حديثهما بأنّ الطعام جاهز.

مكث ياسين بالقرب من ياسمين ممسكًا بها، الكون حوله غارق في القلق
والتوتر، ورغم ذلك فقلبه يخفق بشدّة؛ قطعة من فؤاده بالقرب منه.
أمّا عنها فداخلها صدعٌ عظيم، لم تتفوّه بكلمة منذ أن علمت بالحادث،
الأمّ داخلها أكبر من وصفه، أميرة لم تكن أختها الصغرى و فقط، فهي
صغيرتها وعائلتها في ظلّ غياب والديها الدائم.

وسلمى الأخرى مترقبة خوفاً، تعدّ الدقائق لخروج الطبيب تريد أن تطمئنّ، ويجوارها سعاد تتابع محمود الذي ظنّ أن استراقه النظر لسلمى لن يلحظه أحد.

رَنّ هاتفها فأجابت، كانت والدتها تطمئنّ خوفاً لتأخرها، بكت بشدّة عندما سألتها عن سبب تغير صوتها، حدّثها عما دار.. فطلبت منها حينها أن تطمئنّها من الحين للآخر.. محمود بالقرب يسترق النظر، وأمّه أيضاً لا زالت تتابع.

خرج الطبيب من غرفة العمليات بعد ساعات..

يدعى أحمد، تعدّى الربع من القرن بعامين، رغم صغر سنّه شهد له الجميع ببراعته في مجاله.
هرولت إليه ياسمين ما أن لمحّته كالغارق الذي تعلق بقشّة، سألتها في لهفة:

— ستعيش؟! —

أمسك جبهته بأحد كفيه ووضع الآخر بخاصرته. تنهّد في إرهاق محاولاً إيجاد كلماتٍ لا تجرح:

— حقيقة، حالتها خطيرة جدّاً، دخلت في غيبوبة قد تطول.. ففي مثل هذه الحالات لا نستطيع التفرّس بعودتها، سيتمّ نقلها لغرفة العناية المركزة، الجأوا إلى الله بالدعاء.

استأذن لإكمال عمله، أمّا ياسمين فقد عادت لانيارها، كطبيب عليه ألاّ يندع أهل المريض.. فالحقيقة المرّة أفضل من وهم مريح، أجهشت باكية..

التفوا حولها في محاولة لتهدئتها، ففي هذه اللحظة أيقنت فقدانها، هي مسألة وقت.

بعد أن مرّ بعض الوقت.. توقّفت عن البكاء؛ فقد أخبروها بكونها تستطيع رؤيتها من خلف زجاج الغرفة، أسندت إلى الزجاج بكفيها تتأملها.. متّصل جسدها بالخراطيم، جسدها ممتلئ بالكدمات والجروح، كادت ألا تعرفها لولا عينيها الهادئتين، رغم مصائب الدهر لم يثورا كروحها الغائبة.

على أحد المكاتب جلست هالة مقابلةً لبعض الموظفين، بيدها بعض الورق، بدا وكأنه ورق لمشروع ما تقوم بمناقشته، بينما منهمكة بالحديث شقّ سمعها صوتٌ هاتفه فاستأذنت.

- ياسين حبيبي، كيف حالك؟

- بخير خالتي.

لاحظت بعض الحزن يشوب نبرة صوته فهتّت بسؤاله:

- ما بال صوتك؟!

تلعثم في الإجابة، لا يدري كيف بإمكانه إيصال أمّ خبر يحمل مكروهاً أصاب ابنتها.

- حقيقة..

- ماذا هناك ياسين؟

- أريدك أن تتماسكي وتعلمي أن كلّ ما يجلبه الله لنا خير.

ازداد خفقان قلبها، شعرت بمكروه أصاب ابنتيها، أعادت عليه السؤال تترقب إجابته، تمت لو كذب عليها فقط ليتوقف الخوف الذي كاد يفجر فؤادها.

- أميرة أصيبت في حادث، وتم نقلها إلى المشفى.

ما لبث أن انتهى من عبارته حتى سقط هاتفها وتبعه اصطدامها بالأرض.. فقدت الوعي، كان أجدد الجوار، أسرع إليها محاولاً إفاقتها، لم تستجب فحاول حملها جالبا عطرا نفاذاً.

شعر ياسين بمكروه أصاب خالته، انقطع صوتها وحركة ما تصل إلى مسامعه، تناول زوج خالته الهاتف مستفسراً، فعلم ما جرى.. وقف تعتصر الصدمة قلبه.. تأكله الحيرة ما بين زوجته الفاقدة للوعي وابنته التي لا يعلم إلا الله مصيرها، بعد حين استعادت وعيها.. استرجعت كل ما قيل.. تبكي ولسانها لا يردد سوى عبارة واحدة "أريد الذهاب لابنتي".

طلب أجدد أجازة من المدير في العمل للعودة إلى مصر من أجل ابنته، وافق وأعطاه أجازة مفتوحة لحين شفائها، حملاً حقائبها واتجه إلى المطار.

جلس سمير وجمال ليتناولوا الطعام مع والدتهما، ارتفع صوت ارتطام الملاعق بالأطباق، سمير يقلب في طعامه، والأخير متوتر يقتل غيظه في تناوله، يأكل كمن لم ير الطعام قبلاً.

وضعت فريال شوكتها بطبقها، أسندت ذقنها إلى كفيها المطبقين.. تتأمل سمير وكأنها تفكر بشيء ما، تمضغ بقايا آخر لقمة تناولتها، وما أن ابتلعها حتى وجهت الحديث إلى ابنها الأصغر.

- ماذا بك؟
- لا شيء مهم.
- وما هو الشيء غير المهم الذي سرق تفكيرك إلى هذه الدرجة؟
- ترك شوكتة جانباً ثم رفع وجهه إليها.. بعينين حزنتين حدّثها:
- زميلة أعرفها دهستّها سيارة.
- شقّت الكلمات مسامع جمال فاضطربَ وبدا عليه القلق، سقطت الشوكة من يده، تناول كوب الماء يشربه شرباً وكأنّ شيئاً ما توقّف في حلقة، التفت إليه أثناء سعاله:
- ماذا حدث؟!
- متعب، سأستريح بغرفتي.
- ساورها الشك، أوقفته قبل الخطوة الأولى تطلب منه أن يتنظرها بغرفته، انقبض قلبه، كأنّها علمت بشيء ما..
- ***
- دخل أحد رجال الشرطة إلى المشفى متّجهاً نحو عائلة أميرة، وقد بدأ الحوار بسؤاله:
- أنتم أهل أميرة التي تلقينا البلاغ عن إصابتها في حادث؟
- تولّى حينها ياسين مأمورية الردّ.
- نعم، نحن.
- بدأنا في معاينة الموقع، وسنبداً باستجواب الشهود عن الحادث لإفادتنا في التحقيق.

أجاب ياسين بإيماءة، لحق به محمود وسلمى للإدلاء بأقوالهما.

في كلّ مرّة ذهبت فيها "آن" لمهمّة كانت صديقتها كوزيت تبقى في القصر تسدّ عنها لتخفي أمر غيابها، عادت من الخارج ففتحت لها الباب الخلفي.. ثمّ راقبت الطريق خوفاً من إن كان أحدهم يتبعها، أغلقت الباب.

- لم تأخرت هكذا يا آن؟

خلعت عنها العباءة تلتقط أنفاسها، ثمّ أجابت من بين شهقاتها:

- لقد اقترب الجيش من الغابة بينما كنت أحاول الخروج منها، لقد نفدت بأعجوبة.

- يا إلهي.

- نزلتُ من التلّ محاولةً الوصول إلى الغابة بأقصى سرعة حتى قرب خروجي منها، إذا بي أسمعهم يقتربون، اختبأت خلف جذع عملاق، كنت أدعو الله أن لا يروني، أحد الجنود اقترب مني وكاد يكشف أمري لولا أنّ زميله قد نادى عليه، انتظرتُ حتى هدأ المكان وأكملت الطريق للقصر، لو كشف أمري لكنت في عداد الموتى.

في كلّ مرّة اقتربوا فيها من كشف أمرها..

دخل مقديو غرفته على زوجته إيزابيل رأس الأفعى المدبّر لكلّ شيء، من ساعدته على احتلال هذه المملكة، امرأة باردة الطبع بطيئة الحركة، طويلة نحيلة، تحيط الهالات عينيها، صوتها كحفيف الأفاعي، تمتلك بشرة بيضاء يشوبها الزرقة كميّ جفّ الدم بعروقه.

نظرت إلى شرفة القصر المطلّ على نهر، عاقدة ذراعيها، لم تلتفت إليه،
سألته في برود:

- وجدت كاميليا؟

صاح غاضباً فقد ضغطت على جرحه.

- لا، لم يجدوها بعد.

- اعلم أنّ كاميليا مساويةٌ للعرش، إن لم تجدها سيلتفّ أهل المملكة حولها
وستتمكّن من العودة بجيش كبير، وحينها لن يقتصر الأمرُ على العرش فقط،
بل على موتى أنا.. وأنت.

استدارت تنظرُ إليه بينما هو يفكّر بكلماتها، تركها غاضباً ضارباً رداءه
خلفه، ثم أغلق باب الغرفة باندفاع.

صرخ أنطونيو في جيشه فاقداً الأمل في العثور على الأميرة وفارس:
"أين هي يا حمقى؟ أين ذهبوا، اقلبوا الغابة رأساً على عقب حتى
تجدوها".

انتشر الجنود منفذين الأوامر في كلّ بقع الغابة، التفت فوجد طنجرة
بالقرب، دفعها غضباً بقدمه فطاحت أرضاً، حدّث نفسه متحدياً "سأجدك
يا كاميليا ومن معك، وعندها لن أرحم من ساعدوك أبداً".

ولجت الشمس بكبد السماء، تداعبُ بخيوطها معالم فارس ليستيقظ،
كان مستلقياً بالقرب، اعتدل جالساً ينظر حوله متأملاً حتى استردّ وعيه،
حدّث نفسه "يبدو أنّي غرقت في النوم دون شعور مني".

اقترب من كاميليا في حذر حتى لا يفزعها، لمح السكون على ملامحها فانجذب إليها متأملاً، كاد قلبه يتوقف عندما استيقظت على وضعه هذا فوجهه في دنو من وجهها، صدمة ما احتلتها تنظر إليه بعينين مندهشتين، والصمتُ سيد الموقف، حاول حل الأمر بالشرح بشكل لا يثير شكها، الموقف مُربك بشكل ما.

— آآ، أمم، آآ في الحقيقة كنت أحاول أن أوقظك.

تعالت ضحكاتهما فازداد اضطرابه.

— هيّا، يجب أن نذهب.

نهض من مكانه نافضاً عنه التراب، مدّ كفه إلى كاميليا محاولاً مساعدتها على النهوض.

— أين سنذهب؟

أشار إلى تيننها وقد همّ بإكمال حديثه فقاطعته..

— لا.. لا.. لا، مستحيل.

— ما هو المستحيل؟

— لن أركب تينناً، الفكرة أصابتنى بالرعب، فهي ليست تجربة كمرة سابقة، أنت تطلب مني أن أركبه ليحلّق بنا.

— الأمر بسيط.. حسناً أنا سأكون خلفك، لن تركبني بمفردك.. ولن أسمح أن يصيبك مكروه، ثقي بي.

مدّ كفه إليها فسلمت روحها إليه، سحبها خلفه نحو تيننها، ساعدها على ركوبه، اقترب حينها فارس من أذنها هامساً: "مُريه بالتّحليق".

نادته "أن حلق"، مدّ جناحيه.. ثمّ تراجع خطوتين بأقدامه الخلفية، ارتفع عن الأرض فصرخت خوفاً، وكأنّ روحها تهرب منها، طوّحها فارس بذراعيه لتستكين، تعالت ضحكاته حماساً في كلّ مرّة عاكس فيها التنين مطبات الهواء أو التفّ حول نفسه في الجوّ.. وكأنّه يلعب مع الغيمات.

يسرع تارةً ويتمهّل أخرى، وكأنّه يستعرض ما لديه من مهارة، وما أن وصل إلى ارتفاعٍ معيّن حتى هدأ من سرعته، وحلّق على مهلٍ في خطّ مستقيم.

- افتحي عينيك.

فتحت عينيهما ثمّ ألقت ببصرها على الغابة من تحتهم.. تتأمل الأرض والشجر الذي حجب رؤية ما أسفله، ابتسمت فاقترب منها أكثر.. أراد إخبارها كونه هنا، أجاب قلبها بالاطمئنان، لا تفسير لذاك الشّعور داخلها كلّما اقترب.. لا تفكّر، ولا تريد التفكير.

- لا أريد من أحد الدخول إلى غرفة جمالٍ مهّم حدث.

قالتها فريال بنبرة تهديد، شعر حينها سمير بأنّ هناك أمراً ما مرعباً يدور في ذاك المنزل، دخلت الغرفة جاذبة الباب خلفها في شدّة، فرّ جمال من مكانه في اضطراب.

- مكانك.

أشارت إلى سريره عندما انتوى الوقوف فجلس موضعه، اقتربت منه متصنّعة الثبات كوحش بري يتلذذ بشمّ خوف فريسته قبل أكلها.. خطواتها قتلتها، صامتٌ وعيناها تتبع خطواتها ذهاباً وإياباً.

— أخبرني الآن عن سبب تغيّرك.

حاول الإنكار، يجمع شتات الكلمات لصنع كذبة.

— أنا بخير.

ابتسمت إليه ثم حدّثته في هدوء:

— ليس لك علاقة بالحادث الذي تحدّث عنه أخوك اليوم.. أليس كذلك؟!

— أنا ليس لي..

لم يكمل عبارته.. رفعت فريال كفّها وقابلت كذبه بصفعةٍ أخرست كلماته، أمسك خدّه يتأمّلها في صدمة.

— قلت لك لا تكذب.

حلّ الصمت، كلاهما ينظر للآخر، تقتله نظراتها الجامدة، أمّا هي فتزداد غضبًا.

— أنا أنتظرك لتحدّث الآن، فلا تجعلني أفقد صوابي.

— أذ. أنا، أنا من دهسها.

وكأنّ دلو ماءٍ ساخن فرغ فوق رأسها فأذا به، تجمّدت في صدمة، تمّنّت لو استمرّ في الإنكار فلا تسمع ما قاله، فقدت توازنها لتستندّ على كرسي بالحوار، أمسكت جبهتها في وهن.

ركع جمال على ركبتيه بالقرب من كرسيّها:

— أمّي، والله لم أقصد، لقد ظهرت أمامي فجأة.

صامته تتأمّله.. حاولت التفكير، تضع الاحتمالات وتفكر في حلول.

- ماذا أفعل الآن! ماذا لو علم والدك؟ ماذا لو أبلغوا الشرطة؟ بالطبع أبلغوا الشرطة، ماذا لو علم أحدهم أنك الفاعل، سيضيع كل شيء، اسم العائلة والدك، كل شيء يا أحق، ماذا أصنع الآن؟!!

أوقفته فكرة ما لمعت برأسها، وكأنها قشّة ظهرت لغريق، نظرت إليه تحدّثه:

- الآن ابق كما أنت، إياك أن تخبر أحداً بالأمر، أتفهم؟

أوماً بجمال برأسه في خوفٍ واضطراب، أمّا عنها فقد خرجت من الغرفة وكأنّ شيئاً لم يكن، تبرّع في ارتداء الأقنعة وتقمّص الأدوار، لمحت "سمير" أمام التلّفاز فجلست إلى جواره حتى لا يشعر بشيء، تسأله عن فتاة الحادث.

- لا زلت حزينا لأجلها على ما يبدو.

تنهّد صامتاً، لم يعتدّ البوح بضعفه، قطعت صمته بطلبها.

- ما رأيك بالاطمئنان عليها؟

أطال الصمت، تذكر الجرح الغائر الذي صنعه بقلبها، كيف له أن يذهب إليها؟! فلا فرق سيحدث إن قضت نحبها الآن فهي الأصل ميّنة، نعم... هو القاتل الأوّل.

- سأحاول يا أمّي، لا بأس.

- طمئنّي أنا الأخرى، اتفقنا؟

- سأفعل.

كلّ ما كانت تفكّر فيه التأكّد من كون الفتاة على قيد الحياة، تخشى موتها..
فلو قضت نحبّها ستضطرّ لإخبار زوجها، ولو علم زوجها ستقلب الدّنيا
فوق رؤوسهم، ليس بالرجل الرحيم أبداً.

اتّصل أمجد ياسين من أحد الهواتف العمومية بالشّارع فور وصوله إلى
القاهرة، يستفسر عن عنوان المستشفى، أملى عليه العنوان ثمّ أغلق الهاتف،
استقلّ هو وزوجته سيارة أجرة، بينما جلس ياسين بانتظاره.

- أهما في الطريق؟

- نعم يا أمّي.

لم يفارق سعاد القلق لحظة، تفكّر في أختها وموقفها من ابنتها، فبدلاً من
احتضانها بعد طول السفر.. عادت إليها وهي على مشارف الموت.

سمعت سعاد ما دار بينهما في الهاتف فسألته، تغيّرت ملامحها عندما
تذكّرت أختها، فبدلاً من سعادتها بالعودة إلى بناتها، آتية لابنة لربّما هي على
مشارف الموت.

- مسكينة هالة.

ربت ياسين على كتف أمّه يطمئنّها.

- ستكون الأمور على ما يرام.

نظّل تائهين بالحياة، كلّ الوجوه عنّا غريبة تسرق منّا الأمان، متخبّطين
نفقد الدليل في طريق واعر، حتى نلاقيهم.

أناس يتربّع الدّفء على عرش وجوههم، نألّفهم وكأنّ الروح عايشتهم بعالم آخر، والأجساد للمرّة الأولى منذ زمن تتلاقى.

أميرة أكثر المرضى الذين نالوا اهتماماً من الطبيب أحمد، أشرف على حالتها حتى أثناء مراقبة الممرضات لها.. وفي كلّ مرة تأملها فيها اغتالته الألفة.. كأنه يعيش معها منذ زمن بعيد.

وفي كلّ مرّة خرج من غرفتها حدّث نفسه "يبدو أنّي قد جننت، لأوّل مرّة يلفت انتباهي إحدى مريضاتي بهذا الشكل".

بأحد معارض السيّارات الكبيرة جلس حسّان الدمنهوري متابعاً عمله، يباشر إحدى الصّفقات مع مورد السيّارات سالم كمال، تكعكع على كرسيّه وقد بدا عليه الارتياح.

- صفقة ممتازة.

- لو نجحت ستدرّ الكثير من الأموال.

- ستنجح، كيف يكون بها سالم بيه ولا تنجح!

تعالّت ضحكات كليهما، فعبدة المال لا يثلج صدوهم سوى زيادتها، سالم كمال كحسّان الدمنهوري فاحش الثراء، لديه ابنة تدعى جميلة اشتهرت برقتها ونعومتها، زوجته ناريمان هانم إحدى سيدات الطبقة الثرية المشهورة بالجمعيات والاجتماعات، قشرة خفيفة تغطي فراغاً.

أنهى حسّان اجتماعه، ثمّ اتّصل بابنه الأصغر يطلب منه المجيء، كان سميّر في هذه الأثناء يتجهز لإحدى سهراته مع أدهم فاتّصل به يطلب منه انتظاره.

قضى الجيش ليلةً كاملة بالغابة، يفتّش في كلّ شبر عن الأميرة ومن معها، لا أثر ولا دليل على وجودهم، استسلموا وأرسلوا أحدهم إلى أنطونيو يجرّ خلفه أذيال الخيبة ترتعد فرائسه فقد يقتله إن غضب.

- سيدي.. لا أثر لهم.

وكأنّه مترصدٌ ينتظر عبارته تلك، ثارت ثائرتة ودوى صوت صياحه بأنحاء الغابة حتى هربت الطيور من أسرابها، عندها حاول الجندي احتواء غضبه للنجاة برقبته:

- لم نترك مكاناً في الغابة إلّا وبحثنا عنهم فيه.. صدّقني لا أثر.

- اجمع الجيش، سنعود لأدراجنا.

وصل التّنين لأرض فاصلة على منطقة جبلية، قفز فارس من فوقه للأرض، ثمّ ساعد كاميليا في النزول حاملاً إيّاها بعد أن مدّت له يدها، فتّش من حوله وكأنّه يستطلع المنطقة ثمّ حدّثها:

- سنخيّم هنا.

- في هذا المكان الجبلي!

أوماً براسه فامتعضت وتأفّفت، أكملت حديثها في ضيق يشوبه التعب:

- لماذا لا نكمل الطريق على ظهر التّنين؟

نظر فارس إليه في عطف، مسح على جزءٍ صغير من جناحه.

- لسببَيْن، أولاً التّنين يحتاج هو الآخر للراحة.

لم يكمل حديثه.. وكأنّ أمراً ما لمع بعقله دفعه للتردّد في إكمال عباراته.

- ماذا عن ثانيًا؟ أنت لم تكمل...
- حاول التفكير في رسم طريق سهل للشرح، لا يريد إثارة خوفها.. الطريق طويل ولا يريد إحداث بلبلة.
- لم أنت صامت؟!
- سندخل أرض الوحوش.. ونسير على أقدامنا من هناك.
- وكما توقّع فقد بدأت علامات الاضطراب تظهر على وجهها، فالاسم له وقعٌ مخيف.. أكملت أسئلتها وكأنّها تمّني نفسها بإجابات تصرف عنها الوسواس.
- ما أرض الوحوش هذه؟!
- الاسم نقطةٌ في بحر، يعيش بها أشرسُ الوحوش والمسوخ، مرّ الكثير من هناك، لكنّ القليل فقط من سمعنا عن كونه نجا.
- ولم لا نرتاح، ثمّ نكمل الطريق تحليقًا على ظهر التّنين؟
- لن يستطيع التّنين التحليق فوق هذا المكان، أرضه مغناطيسية تجذب كلّ ما يمرّ فوقها، هكذا تتغذى الكائنات بالداخل.
- وأنت أخبرتني للتوّ أنّ الأرض التي سنمرّ من خلالها مشيًّا على الأقدام لم ينجُ منها إلّا القليل.. صحيح؟!
- ابتسمَ ماسحًا شعره في توتر..
- أظنّ ذلك.
- صاحت في اعتراض.. فحاول إقناعها بمنطقية:
- لا يوجد حلّ إلّا ذلك، أتريدنا أن ننتظر هنا؟، جيش مقدنيو يلاحقنا وسيحاول الوصول إلينا.

- سنموت.. الاثنان سواء، لو لم نمتْ على يدِ مقدنيو سنموت على يدِ هذه المسوخ!

- لن نموت، أنا أعرف ذاك المكان جيداً سنتفاداه معاً، ما أريده منك الآن قوى مؤقتة.

لم تفهمْ ما يعنيه، نظرتُ إليه بعينين تقولان عدنا لعبارات هذا المجنون من جديد، فهمِ إلى ماذا ترمي نظراتها فاستفاض:

- بما أنك أميرة حقيقيّة بمملكة النور، فأنتِ تملكين قوى خارقة يمكنكِ منحها لأيّ أردتِ.

- مرّة تحدّثني عن تيّن، والآن تحدّثني عن قوى.. أترى هذا طبيعيّاً؟!

انفعل حينها يحببها في حدّة:

- سيّدي الأميرة، هلاً وثقتِ بي من فضلك، أنصتي إليّ فقط وحاولي تطبيق كلامي.

أريد إيمانك بقواك الآن حتى تتمكنين من استدعائها، تذكّري ما طلبته منك وما طبقتيه بالمرّة الأولى بينما استدعينا التّنين.. أغلقتي عينيكِ، ضعي يدك على قلبك، ناديا من أعماقك، امنحيني بعضها، مُريها فتسخرْ لك.

فعلتْ ما طلبه.. دقائق مرّت.. ظهرت خلاها بلّورة من العدم أحاطت بكاميليا ثم رفعتها عن الأرض، برقتْ عيناها بلون اللؤلؤ، خرج من الهالة شعاعٌ فضرب قلبَ فارس، بدأت البلورة في التلاشي كأنّ شيئاً لم يكن، ثمّ هبطت رويداً حتى لمستْ قدمها الأرض واستعادت وعيها، تتأمّل كفيها بينما يتلّعان النور.. امتلأتْ دهشة.

- وكأنتني في حلم!!

- انظري إلى هذا.

أدار كفّ يده فبدت منه كرة من النار، وجّهما إلى صخرة فتحولت إلى كومة رماد، تابعت في صمت مصحوب ببعض الدهشة.. أيّ قوى تمتلكها تلك حتى يكن القليل منها بهذه الشدّة.

- طلبتها منك فقط من أجل اجتياز أرض الوحوش، أريد أن أمرّ بك من هناك بأمان، هذه القوى مؤقّته، فأنا لست مصدرها، أنا لست أميرًا.

بدا الحزن على وجه فارس، تذكر العقبات بينه وبين كاميليا، لن يستطيع البوح لها بمكنونه، فهو لم يكن يومًا أميرًا.

وكأنّ الحياة تهدينا الحبّ لتؤلّنا، ما حاولنا الفوز بمنّ نحبّ إلّا وجدنا ألفَ عقبة، وقبل أيّ خطوة نفكّر ألف مرّة بالخسائر، نخاف الغد خشية أن يسرق منا منّ نحبّ، ونتألم اليوم خشية من قادم مجهول، نهمل من الوقت نهلاً، علّ القلوب تمتلئ باللقاء وتنسى الفراق، نتمنّى من اليوم أن يمتدّ ألف عام ليبقى من نريدهم إلى جوارنا دون أن تسرقهم الظروف، دون أن تذبّحنا الأيام بفراقهم.

شرد.. همست إليه فعادَ إلى الواقع.. ابتسم بعد عبسٍ يحذّثها وكأنّه يحاول تفادي الأمر:

- ألسّتِ جائعة؟

- بصراحة، جدًّا.

أجاب حينها في حماس:

- سأصطادُ حيوانًا بريًّا، وأشعل النار لنشويه قبل أن يحلّ الظلام.

ثمَّ نظر إلى جبرتها مكملًا:

- ولكن أولاً، يجب أن أفحص ذراعك الأيسر لنخلصه من الجبيرة.
شكّلت الجبيرة عائقاً كبيراً في حركتها.. ضايقها أثناء امتطاء التّنين وأثناء
تحضير قواها، أزاح فارس عن عاتقها هماً كبيراً بعبارته هذه.
أعطته ذراعها فالتقطه، تأمّلته في ارتياح.. أن تجد مَنْ يحمل همّك فلا
تحشى شيئاً في وجوده، يهتمّ لأدقّ تفاصيلك؛ كفيلاً لنومك قرير العين لا
تحشى ما بالغدِ مهْما كان.

ولج أنطونيو إلى داخل القصر فاستقبله أوكتافيوس في ترقّب، ينتظر أيّ
جديد عن الأميرة.

- أوجدتم الأميرة؟

سأله في لهفة، زاغت عينا أنطونيو محاولاً إيجاد تبريرٍ يلحق بإجابته، ثمَّ
بدأ في الشرح.

- هربوا يا مولاي.

ثارت نائرتها، لم يترك مجالاً للحديث، صرخ فيه غاضباً فحاول الأخير
إنقاذ الأمر:

- سابقاً لم نكن نعرفُ موقعهم، الآن نعرف الطريقَ إليهم.

هدأ البركان داخله، استلقى على كرسيّه صامتاً يكتُم غضبه:

- ماذا تقصد؟

- ما بعد الغابة وادي، وبعد الوادي أرضٌ جبلية، ثمَّ بعدها.

قاطعهُ أوكتافِوس متهلِّل السَّريرة:

- أرض الوحوش.

- نعم يا مولاي، سنطلق الجيش لملاحقتهم، إذا أدركناهم فقد حقَّقنا مرادنا، وإذا دخلوا أرض الوحوش سنلاحقهم، وإِما أن تقتلهم المسوخ أو نقتلهم نحن.

اقتنَع بكلمات أنطونيُو، أمره بالتحرك.

- افعل ما قلته الآن، وأنا أنتظر جديكَ على أحرَّ من الجمر.

وقفتُ سيارة سمير الفارهة أمام أحد معارض والده، أبصره من خلف جدران غرفته الزجاجية، ما أن لمحّه حتّى أشار له بالدخول، استقبله بحفاوة أثارت الشكوك بنفسه.. ضمّه، ونادراً ما يفعل ذلك.. وكأنّ هناك أمراً ما برأسه.

- أهلاً بالبطل.

تعجّب من عبارته.. سأله حينها:

- ماذا هناك؟!

- سمعت عنك أخباراً جيدة.

- كماذا؟

أشعل حسان سيجاراً، ثم نفث الدخان مركّزاً على ملامح ابنه:

- علاقتك بأسماء حمدي مكرم، ابنة رجل الأعمال الشهير.

ابتسم سمير سخرية، هزّ رأسه نافيّاً ثم رفعه لأبيه مستنكراً.

- أتراقبني يا أبي؟

- إذا أردت معرفة شيء لا أحتاج أن أراقب، أنسيت من أنا؟!

اختصر سمير على والده الحديث، يعلمه ظهرًا عن قلب، سألته في لا مبالاة:

- ما المطلوب؟

تعال ضحكات حسن فور سؤال ابنه:

- هكذا يكون ابني حبيبي، الآن أخبرني، ما مدى العلاقة بينكم؟

- معقول!! لم يخبرك رجالك بذلك أيضًا؟!

قالها ساخرًا فبدت معالم الغضب على حسن، بدأ في امتصاص غضبه، حدّثه بنبرة من التهديد:

- إن سألتك فعليك الإجابة.

- مجرد أصدقاء.

- أريد لهذه العلاقة أن تتطور أكثر، أريدك أن تتزوجها.

تعجّب من كلماته، ليس على دراية بما يسعى والده إليه، صمت وهلة، ثم أعاد السؤال كمن لم يسمعه:

- أتزوجها!!

- نعم، أبوها يمتلك الكثير من الأراضي كما أنه يحمل مفاتيح ملاك البقية

في شرم الشيخ، له علاقات كبيرة ستساعدنا في توسيع نشاطاتنا في مجالات أخرى غير السيارات.

- هذه صفقة وليس زواجًا.

تعالت ضحكات حسان ليزيد الطين بلة بكلماته:

- وما فائدة الزّواج إذا لم يجلب الربح! حتى زواجي من أمك كان صفقة.

هنا، صمت سمير.. أبوه محقّ، هو يعاني الويلات منذ الصّغر في بيت لم يجد فيه ذرة حبّ، لبنات البيت ملاطها المصالح، أعظم هدية قد يقدمها أب لأبنائه هو حبّ أمهم، لم يحب حسان فريال يوماً، بيت بلا قلب.. بلا تفاهم، أمرٌ مقابل أمر، حال مثير للسخرية.

أكمل حسان كلماته:

- أريد جديداً، فكّر في كلامي جيداً، ستفّذه بإرادتك أو رغماً عنك، يمكنك الآن الرحيل.

تابع حسان عمله على حاسوبه غير مكترث بولده وكأنّه لم يكن يتحدّث معه منذ دقائق، بارع في تبديل أقنعتة، خرج سمير في لا مبالاة من مكتب والده، هناك حربٌ جديدة يريد أن يكون سلاًحاً فيها، وهذا ليس بجديد عليه، لطالما كان أداة.

ركب سيارته متحاشياً التفكير في الأمر، بركانٌ ما داخله يحاول مواراته، نعم. هو غاضب رغم إيدائه الهدوء، كبركان ساكنٍ داخله حمم.

توقّف أمام بيت أدهم ليرافقه فقد كان في انتظاره هو الآخر، أشار إليه بالركوب ليملك بالكرسي المجاور.

لاحظ أدهم تغيّر وجهه، سأله معلقاً ناظريه على ملامحه:

- ما بك؟! -

سمير ساخرًا:

- أبي يريد أن يزوّجني.

تعالت ضحكاته فور أن سمع كلماته، وكأنه يريد قتله وليس تزويجه.

- وما المشكلة؟! هذا شيء جيد، تتحدّث وكأنك ستقتل، ومَن تكون سعيدة الحظ؟!
- أسماء مكرم.

ابتسم أدهم في دهاء؛ فلا عجب، صمتَ لوهلةٍ يحدث نفسه "وكيف لا!!
حسنَ الدمنهورى لن يفوّت صفقة كتلك أبدًا"، لاحظ الأخير الصمتَ المدقع فسأله عن سبب سكونه، تهرّب حينها محاولاً تغيير الموضوع.

- لا شيء، دُعك من والدك، سنلهو الآن وستنسى حتى اسمه وليس أوامره فقط.. الليلة خمرٌ ونساء.

تشابكت ضحكاتها، كلّ منهما يحاول تناسي أمرًا ما في الآخر، وكأنّ اللهو قد يمحو الآلام.

انهارت أحلامُ هالة بلحظة، نادمةً على ترك بناتها سعيًا خلف المال، ظنّت هي وزوجها أنّ هذا السبيل الوحيد لتأمين مستقبلهما، لم تعلم أنّ الأقدار قد تخلف التوقعات، في لحظةٍ إحدى بناتها على حافة الموت، لمن هذه الأموال إذًا!! كان عليها البقاء بجواريهما، كانت بعيدةً في الوقت الذي كان من المهمّ بقاؤها بالقرب.

ارتمت بين ذراعي سعاد تذرّف الدّموع، حالتها يرثى لها، حاولت أختها تهدئتها بالكلمات، لربما خدرت جرحَ أمّ لن يلتئم.

ما أن رأته ياسمين أمها حتى ارتمت هي الأخرى بين ذراعيها باكية بدمع الغمام.

- اشتقت لكِ.

لم تعرفْ هالة بماذا تجيب، كيف لها أن تعتذر عن كلِّ هذا بحقِّ بناتها، تمسح على شعر ياسمين، تعلم باحتياجها لها أكثر من أيِّ وقت مضى، هي الأخرى تحتاج لقربها، فقلبها به جزءٌ مفقود، ألم يصدع بالداخل، لن يشعر به سوى أمٍّ أصاب طفلها مكروه.

جلست ياسمين بالقرب من أمها، ثمَّ أسندت رأسها على كتفها، طغى اللون الأحمر على بياض ملتحماتها، تنظر إلى سلمى في تعبٍ، بصوت تشوبه الدَّموع والحزن تحدّثها:

- أجهدناك سلمى، يجب عليكِ الذهاب لتراتحي.

- لا أريد تركها.

قالتها في حزن، هي الأخرى لم تتوقّف عن البكاء منذ الحادث.

- لا. يجب أن تراتحي، غدًا بعد الجامعة يمكنكِ المجيء للاطمئنان.

قاطع حديثها ياسين:

- حلّ الليل، لا يمكنكِ العودة للمنزل بمفردك، سأطلب من محمود

مرافقتك.

- لا أريد إثارة المتاعب.

- لا تقولي ذلك، يكفي ما سيّناه لك اليوم.

أشار ياسين إلى أخيه بإيصال سلمى، تهلّلت أساريره فحاول مواراة

ذلك، فرصةٌ من ذهبٍ للحديث معها عن قرب، ما أن رآها حتى خطفت روحه.

جلست إلى جواره بالسيارة، ساد الصمت، همّ بالحديث إليها، وما أن التفت حتى لمح عبراتها، بكاء صامت، لان قلبه فحاول تهدئتها:

- ستكون بخير، لا تبكي.

- مسكينة أميرة.

حاول إلهاءها، سألها عن علاقتها بأميرة لتشتيت تفكيرها عن الحادث فتكفّ عن البكاء:

- هل أنتما صديقتان منذ زمن؟

- هي صديقتي الوحيدة، أعرفها منذ أوّل يوم لي بالجامعة، لم أعرف سواها.

ابتسم لها بعينين لامعتين..

- يبدو أنكِ خلصة.

أثارت طريقته اندهاشها، صمتت وهلة تحدّث نفسها "أنّ لم يحادثني بهذه الرقة؟!"

توقّفت سيارته أمام عمارتها، التفتت إليه تشكره ممتّة، ابتسمت في رقة، فأجابها:

- سأنتظر مرآك غداً، ليلة هادئة.

خرجت على عجل من السيارة وهو يتبعها بناظريه حتى اختفت.

ازدهت الجامعة، حيث حضرَ فريقَ التَّحقيقات يستمع إلى أقوال الطلبة،
كلّ منهم ييوح بما في جعبته.

لمح سمير سلمى من بعيدٍ مسرعةً أثناء مرافقته لأدهم، فهمّ على عجل
بملاحقتها يناديها، تظاهرت بعدم السّمع ولم تستجب، كرّر نداءه بينما اقترب
منها فالتفتت إليه في غضب.

- ماذا؟

- كيف حال أميرة؟

صاحت في غيظ:

- وما شأنك أنت، ما دخلك؟ ألا يكفيك ما سبّته لها؟

خيّم الحزن على وجهه، يعلم أنها محقّة:

- فقط، أردت الاطمئنان على حالتها.

ظهرت نبرةُ البكاء في صوتها، يؤلمها ما وصلت إليه صديقتها، ففتاة بقلبها
تستحقّ أن تعيش حياة هانئة بعيداً عمّن يؤذيها أو يبكيها.

- بين الحياة والموت، وكلّ ذلك بسببك أنت.

غادرته باكية.. تلمع عيناه حزناً، مقتنعةً تماماً أنّه أحد الأسباب وإن لم
يكن أوّلها، لحق به أدهم يسأله عما جري، أجاب بغصّة من الألم يوارىها بلا
مبالاة:

- لا شيء مهم.

بعد أن تناولوا الطعام، جلستُ كاميليا بالقرب من النار تتابع "فارس" في صمت، علّقت ناظرها على جبيرتها، ثمّ توجهت إليه بالحديث:

- فحصت جبيرتي، ثمّ أكلنا.. ولم يبقَ سوى أن تفكّ وثاقها من فضلك.. تضايقني جدًّا.

حدّثته بنبرة من الضيق.. ابتسم فارس حينها، ثمّ حرّك رأسه مستنكرًا فهي لم تكفّ عن الإلحاح.

- لاحظني أنّك ما تناولت لقمةً حتى حدثيني عن جبيرتك وضرورة فكّها، لم العجلة؟ هل أخلفت وعدي لك؟

امتعضت فاقرب منها، جلس إلى جوارها، أمسك ذراعها محاولاً إزالتها في حذر، ضغط بيده دون قصد فتأوّهت متألّمة، صُعب فتوقّف وهلة حذرًا.. - آسف، ما زالت تؤلمك؟

نفت برأسها مبتسمة، حاولت تدليك معصمها.. عيناها كمرأتين ينعكس فيهما لهيب النيران فيزيدهما جمالاً على جمال، شرد بهما فارس فقطع شروده التقاء عينيها، تورّدت وجنتها، تلتهم عيناه عينيها في كلّ مرّة، وما أن تدركه حتى يلوذ فرارًا.

- ماذا عن الآن؟ لازال يؤلم؟

- تحريكه صعب.

- لم يتحرّك منذ فترة، هذا طبيعي، سيكون بخير.

انسدلت أستار الصّمت مرّة أخرى، بدا وكأنّه سيد المواقف.

طأطأ أوكتافوس رأسه أمام مقدنيو حيث كان مكانه على العرش.. وقف خاضعاً يقبض بكفّ يمينه على معصم يساره، همّ الملك بسؤاله:

- هل وجدتم كاميليا ومن معها؟

- لا يا مولاي، لكن..

تبدّل وجه مقدنيو من المترقب إلى الغاضب، فأكمل الأخير محاولاً إنقاذ الموقف:

- مولاي، علمنا وجهتهم، وسنرسل الجيش خلفهم، فقط نحتاج إلى مرشد خبير بأرض الوحوش، ليقودنا إذا ما أدركناهم قبل الدّخول إلى هناك.

- من يكون؟

لم يسمع مقدنيو يوماً عن شخص مرّ من هناك وعاد على قيد الحياة، بدا اقتراح أوكتافوس حاملاً إجابة على سؤاله.

- يدعى هنري.

هنري صائدٌ للجوائز، قوت يومه من تسليم المطلوبين ونيل المقابل.. اتّسم بلا مبالاته وأنانيته، فبعد أن رفضت حبّه من أحبّ؛ أصبحت أهمّ قواعده أنّ لكلّ شيء مقابلاً، وهذا هو سرّه الكبير الذي لم يعلم مخلوق عنه بالملكة بأكملها.

- وما نقطة ضعفه؟

أوّل ما قفز إلى رأس الملك نقطة ضعف هنري، على تمام الاقتناع بأنّ لكلّ إنسان نقطة ضعف.. أجاب أوكتافوس:

- ربّما المال، لكنه من الممكن أن يرفض.

— سأهدّده بالقتل.

— لن يهتمّ، فهو غير مبالي لأيّ شيء حتى حياته.

عُرف هنري بعملقة جسمانه، فكان عريض المكنين، مفتول العضلات، طويل الشعر، يشبه مصارعِي الأسود بحلبات الموت في عصر الرومان.

وبينما هو غارقٌ في سكره ومجونه، دخلَ عليه أحدُ الجنود يطلب منه الحضور إلى القصر لمقابلة الملك، تبعه غير مكترث، وما أن ولجَ من الباب الداخلي حتى نادى الحاجب على الملك، فدخل دافعاً رداءه إلى الخلف، ثمّ جلس على العرش، علّق ناظره على هنري ففقطعه تفحصه بسؤاله عن سبب استدعائه.

— أريدك في مهمّة.

— وما هي؟

— سمعت أنّك على علم بمخارج ومداخل أرض الوحوش.. الجيش قد يتعرّض لدخولها لذا سأرسلك معهم.

— آسف، هذا خطرٌ جدًّا، لا أستطيع مساعدتك.

التفت في لا مبالاة وقد همّ بالخروج من القصر ليوقفه مقدنيو:

— سأدفع لك ما تريده قطعاً ذهبية.

توقّفت قدماه حينها، ثمّ استدار إليه، فأكمل الأخير كلماته:

— أنت مغرم بالمال إذاً، لك ما شئتَ منه إذا فعلتَ لي ما أشاء.

ابتسم هنري..

— هكذا نستطيع الحديث.

نادى مقدنيو وزيره أوكتافيوس، فحضر على عجل يستمع في إنصات..

- سيقود هنري الجيش إذا ما دخل تلك الأرض.

- متى موعد تحرك الجيش؟

سأل هنري فأجابه أوكتافيوس:

- غداً صباحاً.

سمعت "آن" ما دار بين ثلاثتهم، تعلم أنهم سيلاحقون الأميرة وفارس،
ما أن انتهى هنري من اجتماعه مع الملك وخرج من القصر، حتى أبصرها
تناديه.

كانت بانتظاره عند أحد الأشجار خارج القصر بعد أن خرجت من الباب
الخلفي خلصة، تهللت أساريه فللمرة الأولى هي من ترغب في محادثته.

- اتبعني هناك.. لا أريد لأحدهم أن يرانا.

تبعها لمكان بعيد عن الأنظار، وما أن وصلا إلى بقعة آمنة حتى بادرت
بالحديث:

- أصبح أنك ستقود الجيش للحاق بالأميرة؟

- سأقود الجيش فقط، لا أعلم من يلاحقون.

صاحت في غضب:

- إنهم يطاردون الأميرة ومن معها، إياك أن تفعل ذلك هنري.

ساد صمته لدقائق تاركاً المجال لها تفرغ ما لديها، أكملت تنتزع هدوءه:

- إن فعلت ذلك، أقسم لك لن أحبك مهما فعلت.

- وإن لم أفعل؟

- سأعيد النظر بأمر أنانيتك.
 ابتسم فقد ظهرَ خيطُ أملٍ جديد يلوح بأفاق خياله، لطالما حلم بعالم
 وردي يجمعه بها، أو مأ برأسه.
 - سيكون لك ما تريدينه.
 نظرت "آن" إلى عينيه متحدية، لم تكن مطمئنة لحديثه..
 - سنرى هنري... سنرى.
 رحلت تاركة إيّاه غارقاً في التفكير، يرتّب ما لديه ليقرّر ما عليه فعله في
 الغد.

طلب الشرطي من ياسين الحضورَ على عجل، ترك المستشفى للقياه،
 جلس أمام مكتبه يسأله في ترقّب:
 - أجدّ شيء في الأمر؟
 - وجدنا السيارة التي صدمت أميرة.
 - ومن مالك السيارة؟
 - ملك لشخص يدعى جمال حسنَ الدمنهوري.
 اتّسعت مقلتا ياسين دهشة عندما سمع الاسم، وكأنه مرّ على أذنه قبلاً..
 أكمل استفساره ليتأكّد:
 - حسنَ الدمنهوري رجل الأعمال؟
 ابتسم الشرطي ساخرًا وكأنّه يستعجب الأمر:
 - نعم هو، بالبحث قد عثرت على الاسم، لكن بشكل غير رسمي،
 وسيتمّ اتخاذ الإجراءات الرسمية لذلك.

انصرف بعد أن أنها حديثهما، سار هائماً في الشوارع يتأمل السنة صامته وأعيناً تبوح بالكثير، متعجباً من زمن يأكل فيه القوي الضعيف، وكأنّ البشر تنازلوا عن عقولهم لاستعمال غرائز مجرّدة، قانون الغاب لبني البشر بات سائداً، لم يعد هناك قانون لردع الظلم، فموقعك يحدّده سلطتك، والقانون مع الدفئة جيوبهم.

وصل المستشفى على قدميه دون أن يشعر، شاردًا يحيم الحزن على ملامحه، أسرع إلىه ياسمين في لهفة:

- ياسين، ماذا قال لك الشرطي؟

التفت إليها صامتاً، والشرود ملتصق بوجهه.. تحدّث بصوت وهن:

- أتعلمين من دهس أميرة؟

رفعت وجهها إليه، همست في خوفٍ تسرّب إليها من نبرة صوته:

- من؟

- ابن حسان الدمنهوري الأكبر، يدعى جمال.

تابعت سلمى حوارهما.. وما أن سمعت اسمه حتى قاطعتها بصدمة:

- ماذا؟!

التفت ياسمين إليها متعجّبة.. وكأنّها تعرفه.

- أتعرفيه؟

تردّدت في الإجابة.. صمتت وهلة، عادت تجمع أشلاء الكلمات في محاولة للحديث:

- إنه.. إنه شقيق سمير الدمنهوري.

لم يكن الاسم بغريب على مسامع ياسمين، وكأنه مرَّ عليها قبلاً، لمع في عقلها.. تذكّرت كلمات أميرة عن ذاك الشاب، تساءلت في ذعر:

- سمير الدّمهورى؟ أهذا الشاب الذي أوهمها بالحبّ وكسر قلبها؟!

أومأت سلمى برأسها في حزن، انهمرت دموع ياسمين شفقة على أختها التي وقعت في شباك عائلة لا ترحم، فأحدهما كسر قلبها، والآخر على وشك إنهاء حياتها، قلوبُ شياطين تسكن أجساداً بشرية لتعايش بين البشر.

أمن السهل قتل ضمير حي؟ كيف لهم النوم ليلاً وهم أسبابٌ لهلاك روح وفناء جسد.

نظرَ الجميع إليهما متعجّبين، من هذا الشاب وما علاقته بأميرة؟ ربتت هالة على كتف ابنتها تستفسر، فقصّت عليهم ما حدث من البداية حتى يوم الحادث المشؤم.



عادَ سمير إلى منزله متأخراً كعادته، لم تكنُ فريال لتهتمّ يوماً، لكن هذا اليوم كان اهتمامها مبالغ فيه، فما أن دخل سمير من الباب حتى وجدها تجلس على أريكة قريبة منه، أمامها فنجان قهوة فارغ إلا من القليل، نادته.. كانت تنتظره على ما يبدو، تعجّب موقفها ليسألها:

- لم أنت مستقيظة حتى هذه الساعة؟

رفعت فنجان القهوة إلى شفيتها ترتشف آخر قطراته، ثم أنزلته على الطبق.. ركنته إلى المنضدة الدائرية أمامها ثم حدّثته في ابتسام:

- كنت أريد الاطمئنان عليك، أهذا ممنوع؟

رفع كتفيه متعجباً موقفها وكأنها ليست أمّه، أثار انتظارها الريبَ في نفسه
لكنّه لا يهتمّ لمعرفة الأسباب، عادتُ لسؤاله:

- كيف حالك صديقتك؟

أعادته لذلك السّعور المقيت الذي شرب كثيراً لينساه.. أجاب بعد
صمتٍ مصحوب بشروء:

- بين الحياة والموت، لكنهم يحقّقون في الأمر.

أراحت قدميها، ثمّ بدت ملامح الفزع على وجهها، لفتت انتباهه.

- ما بك؟ هذا طبيعي، فمَن فعلها هرب.

حاولت أن تبدو طبيعية، سمير للاح قد تمكّنه ردّة فعلها من كشف الأمر،
تماسكت وقد ابتلعت توترها.. ثمّ طلبت منه الانصراف بحجّة الراحة..
تحشى أن تفضحها عيناها.

لم يفكر طويلاً بالأمر، ألقى بالأمر خلف ظهره واتّجه إلى غرفته.. يحتاج
لقسط طويل من الراحة، لقد عمل كثيراً ليصل إلى لحظة الإنهاك التام تلك..
أمّا عن أمّه فلم تنتظر حتى الصباح، دخلت غرفتها ثمّ رفعت الهاتف لإجراء
مكالمة مع أحدِ رجالها.. تريد إحكام السيطرة قبل أن يخرج الأمر برؤيته من
بين قبضتها.

- أريدك في أمرٍ مهمّ، قضية تخصّ فتاة ما.. أريد أن أعرف إلى أيّ المراحل
تطورت.

- ما اسم الفتاة؟

تقصّ على مسامعه ما تعرفه من معلومات وهو خلفها كمسجّل للصوت،
ثمّ وعدّها بأن يكون لها ما أرادت في خلال ساعات قليلة.

أنهت كلماتها ثم دخلت غرفة جمال تحاوره بما تفكر بصوت مرتفع. يتابع تحركاتها ويستمتع إلى صوتها في صمت مضجع.. عيناه تفيض بها يحمل قلبه من حق، ولكن أي قلب يشعر به؟

- أحاول أن أعرف إلى ما وصل الموضوع حتى أستطيع إيقافه.
ابتسم ساخراً، وكأنها تكثر، أردفت قائلة بينما قد أكمل صمته:
- لو علم أحدهم أنك أنت سنضطر لإخبار والدك ليتصرف.
رن هاتف فريال مقاطعاً فهمت بالرد، كان حسان يكيل لها وابلاً من التوبيخ:

- أين جمال؟! الأمس واليوم لم يأت إلى العمل.
تبحث عن مبرر يبتلعه والده فلم تجد أنسب من مرضه، صرخ فيها حسان:
- أنا أحتاجه، العمل يحتاج رجلاً وليس طفلاً يمرض فيجلس في حضن أمه، دلتية ولن يصلح ليحمل تلك الشركات على عاتقه، هو وابنك التافه سمير.

تضايقت من كلماته، حاولت السيطرة على أعصابها، أردفت قائلة:
- ألا تمل هذه الكلمات؟
استمر في صراخه يوبّخها:
- هذا آخر يوم يجلس فيه في المنزل، لن أسمح بحدوث ذلك مرة أخرى.

أغلق الهاتف في غضب تاركاً إياها تلاطم موج أفكارها، ففي أنفه الأمور تتورث ثائرتة، ماذا إن علم بهذا الأمر!!

الفصل الثالث

جلستُ فريال بجوار الهاتف على أحرّ من الجمر، تمرّ الدقائق ساعات..
مرّت ساعة، رنّ الهاتف.. هرولت إليه بسرعة تلتقطه:
- معك.

- تحقّقوا من الفاعل، لكنّ كإجراء رسمي لم يتمّ اتّخاذ أيّ خطوة بعد.
ارتعدتُ أصابعها حتى كادت تفلت سماعه الهاتف، أغلقته وكأنّ جبلاً
من الهمّ رسا على قلبها.. حدّثت نفسها في خوف "ماذا سأفعل، كيف سأخبر
حسنًا؟".



ظلتّ أسماء تتّصل بسمير دون جدوى، لا يرغب في الردّ، فمنذ أن طلب
منه والده الزّواج منها وقد أضحى ماقْتًا لها.. ما أن اقتربت منه أو لمح اسمها
في هاتفه حتى تأفّف مطلقاً اللعنات..
لم تكفّ عن محاولة الوصول إليه.. ألقى هاتفه غير مكترث، وبالنهاية
استسلم لإصرارها وقام بالإجابة.

سمير في حق:

- نعم؟

تدلّلت كعادتها معاتبة إيّاه ظنّاً منها أنّه السبيل الأكيد لإيقاعه بشباكه:

- لم تأخّرت في الردّ؟

أجاب في لا مبالاة:

- آسف، كنت مشغولاً.

- مشغول عنيّ أنا؟ اشتقت إليك، أريد رؤيتك.
- سأحاول.
- اليوم؟
- حاول حينها التملّص متحمّجًا بانشغاله لكنّها لم تكفّ عن الإلحاح:
- من أجلي، من أجلي يا سمير.
- استسلم ثمّ اتّفق معها على أن تنتظره ليلاً سيمرّ على منزلها ليقلّها، أغلقت هاتفها فرحة تقفز كفراشة على زهرات تجمع اللّقاح، نزلت درج الفيلا حتى وصلت إلى الطابق الأرضي، لمحها والدها فهمت بتقبيله، ضحك عاليًا ثمّ استطرد قائلاً:
- ما بال صغيرتي، ينقصها جناحان لتطير من السعادة.
- بادلته الضحك..
- سعيدة جدًا جدًا جدًا.
- صغيرتي تحبّ!؟
- أومأت برأسها في سعادة، ابتسم حمدي لابتسامتها..
- ومن يكون سعيد الحظّ!؟
- زميل لي في الجامعة.
- أراد الاطمئنان على فصيلته.. فلن يتركها لفقر، أجابته:
- اسمه سمير، أبوه يدعى حسن الدّمهوري، سأذهب الآن لأجهّز نفسي.. سيصحبني الليلة بموعدٍ عشاء.
- رحلت ليتوقّف وهلة يغرق فيها بالتّفكير، ثمّ عاد لإكمال ما كان يفعله.

تجهّز جيش مقدنيو في الصّباح الباكر للتحرّك، وعلى رأسه هنري، مرتدين أزياء الجيش المرصّعة بالمعدن لصدّ هجمات السيوف، حاملين السّهام والدّروع، راكبين أحصنتهم السّوداء ذات المُقل الحمرء المجنّحة.

"آن" تتابعهم من بعيد، اشتعلت النار بقلبيها ما أن لمحت هنري بمقدّمة الجيش.. همست لنفسها "صدقتُ لوهلة أنّك أصبحت رجلاً، كنت مُحطّة".

عادت أدراجها، تاركة هنري خلفها، فقد انتهى من حياتها بدءاً من هذه اللحظة، أمّا عن الجيش فقد تحرّك باتجاه الغابة.

نامت كاميليا، ونام فارس بالقرب منها مرهقاً، وما أن غطّت في نوم عميق حتي سمعت صوتاً ما بالقرب.. صياح.. سباب، أحدهم يحدّثها بصوت تهكمي "حان وقت العشاء أيتها الجميلة"، فتحت عينيها ببطء، ذاك الرجل العملاق مألوف الوجه.. لماذا ينظر لي هكذا؟ فارس..

التفتت لتجده جاثٍ على ركبتيه. مقيداً من الخلف يحاول الفكّ ولا يستطيع..

صرخت تناديه.. اقترب العملاق منها، و...

- أيتها الأميرة.. ماذا هناك؟

انتفضت جالسة تتأمل من حولها.. وضعت وجهها بين كفيها، ثم أجهشت في البكاء، مسح على شعرها يهدئ روعها:

- ماذا هناك؟!

- حلم سيئ.. سيئ جداً..

- أيّ حلم!

قصّت عليه ما رأيته.. ممتع وجّهها، تتلاحق أنفاسها وكأنّها انتهت من ملاحظة للتوّ، وكأنّ ما عاشته لم يكن مجرد حلم.. روى الأميرة حقّ، هكذا حدّث نفسه وهو يسمعها، إشارة ما لاقتراب خطر.. تسرّب إليه القلق.. جذب معصمها محدثاً إيّاها في جدية:

- علينا أن نرحل الآن..

- إلى أين؟

من بين روعها تسألّه، حينها أجاب مختصراً للشرح:

- سنواصل.. هم في الطريق إلينا الآن.

بنصف ذهن يتحدّث إليها.. يفكّر عميقاً.. أيّ الدروب سيختار..

- أنا خائفة.

هزّت أركانها فالتفت إليها.. أمسك كفّها بقوة..

- لا تخشي شيئاً مادمتُ حيّاً، اتفقنا؟ لن أسمح لهؤلاء بمسّ شعرة واحدة

منك.

لا بأس بالمخاطر إنّ كان بداخلها فارس، الغد الغيبي طالما يثير الريب في النفس.. فارس هنا فلا ريب.. يدٌ ممتدّة كلّما اقتربت من الهاوية.. وأنامل حانية في أعنى معامع الخوف.

ركبا التّنين.. هذه المرّة لن يخلّق سوف يمشي حتى تلك الأرض. أرض الوحوش المتأهبة لانتظارهما.

أمّر أنطونيو الجيش بالتوقّف بالقرب من المكان الجبلي الذي مكث فيه كاميليا وفارس.. فتشّ بنظره المكان، استوقفته آثار النار حيث بعض

الحطب والرّماد المشثور، صرخ في جيشه "يبدو أنهما كانا هنا، إنهما في طريقهما إلى أرض الوحوش".

التفت إلى هنري هامسًا "سوف نحتاجك" أوّماً برأسه يوحى باستعداده، ثمّ أمر الجيش بالتحرك لإكمال الطريق.

احتلّ الخوف كاميليا، مقدّمة على مجهول لا علم لها به، يتفصّ جسدها كالمسوس كلّما مرّ اسم أرض الوحوش على أسماعها، نادى فارس في اضطراب:

— أواثق أننا سنجتازها؟

— لست واثقًا، فكلّ شيء في هذه الدنيا قد يصيب ويخطئ، سأحاول أن أمرّ بك من هناك بسلام.

شردت فساد الصمت للحظات، ثمّ أكملت:

— وماذا لو..

قاطعها..

— بدون لو، لا تخافي، لزيادة الأمان.. عليك تلبية ما أطلبه.

— كماذا؟

— سيدتي الأميرة، أنت لا تدريين خطورة هذا المكان، فهو مليء بالسحر والخدع، ووحوشه تنتشر في كلّ الأرجاء، كوني إلى جوارى، لا تنساقى وراء أيّ أصوات أو مشاهد إلا قبل أن تسأليني.

توقّف التّين على بعد عدّة أقدام من أرض الوحوش، نزلا من فوق ظهره بعد أن مهّد جناحيه، وقف كلاهما يتأملان خارجها، وضع فارس كفيه في

خاصرته متنهّداً وكأنّه يمهد نفسه لما سيلاقيه.. اتّسع بؤبؤ عيني كاميليا.. ما رأيت الخطّ الفاصل بين مكانها وبداية أرض الوحوش.. وكأنّ الأرض انقسمت إلى نصفين، الشقّ الخاص بأرض الوحوش مظلم، تنسدل به أستار الليل، بينما الآخر يسطع به ضوء الشمس، عالمان متجاوران.

- الشّمس ساطعة هنا، وبداخل هذا المكان ليل، كيف ذلك!؟

- هذا المكان تفصله اللّعنات عن باقي الأرض، مظلم يغطّيه السحر من كلّ جانب.

ما أن سمعت كلماته حتى ازداد خوفها، بدا جليّاً على ارتعاد أناملها عندما همّ فارس بمسّ يدها.

- ماذا هناك؟

تربّعت ابتسامة على عرش شفّتها، صامته تحرك رأسها بالنفي، تواري ضعفها خشية إثارة القلق، وربما خجلاً من أن تظهر ضعيفة.

لم يكن المكان مظلماً وحسب، كانت تحفّه الأشجار المسحورة غريبة الشكل، ما قطع منها جذع حتى تفرّع في لحظات وبشكل أكبر وأقوى، شيطانية لا سبب لها ولا أصل، يغطّيها السواد فما نظرت إليها حتى ظننتها بقايا غابة محترقة تحفّها الأشواك، تسمع همسها وأنفاسها كالبحر.. تكاد تقسم أنّ لها مقلاً تنظر إليك وتتوعّدك بالافتراس.

مع أوّل لمسة قدم لكاميليا وفارس تنحّت الأشجار، وكأنّ للخطوات صدى.. شعرت الأرض بوطأة أحدهم فمهدت ابتلاعه.

ومع شروء كليهما بما يدور.. اقتربت كاميليا منه متعلقة بذراعه، ربت على يدها فالوقوف مُرعب بحق، همس إليها "أن لا تخافي". تقدم وهي إلى جواره وخلفهما التنين يحفّ الأرض بجناحيه.

الأرض نديّة يكسوها الضباب.. التفت إلى كاميليا يحدّثها هامسًا:

— سأتقدّم عليك، امشي خلفي حتى لا أشتت.

أومأت برأسها، سار أمامها بينما تتبعه، ارتفعت أصوات لهمسات ما، وكأنّ مخلوقات أرض الوحوش تخبر بعضها البعض بأمر، بدأ الصوت خافتًا فتلفتت كاميليا، لم تعثر على شيء، تدرّج الهمس حتى ارتفع شيئًا فشيئًا، اتضح يتردد في رأسها "هي الأميرة، هي الأميرة".

اقتربت من فارس في خوف.

— أسمع أصوات ما.

تعالت ضحكاته مازحًا:

— ذاك صوت قلبك الخائف، اهدئي أنا لا أسمع شيئًا.

أومأت برأسها تحدّث نفسها "هو حقّ، أنا أتوهم، هو بالجوار لن يصيبني مكروه، وعدّ بحمايتي"، ثمّ لحقت به.

هناك حركة هادئة ما حول كاميليا، الفروع تفكّ التواءاتها.. امتدت زاحفة كثعبان مجهز لنهش فريسته، ما أن اقتربت منها حتى التفت بأغصانها حول فمها وقدميها ساحبة إيّاها، أصدر التنين صوتًا غاضبًا فالتفت فارس ليجدها تجذب من قدمها مقيدة تحاول الإفلات ولا تستطيع، لوح بسيفه يمينًا ويسارًا يقطع الفروع قطعًا.

بينما هو غارقٌ في ملحمة حتى التفت أحد الفروع خلسةً حول قدميه رافعاً إياه في الهواء يطوّحه، حاول الأخير مقاومته بالسيف، شقّه إلى نصفين.. بدأ الوقت في الانسداد من بين أنامله.. كاميليا لا تقوى على الاستمرار.. تفقد وعيها فالهواء انقطع عن رئتيها وقواها تخور.. وما أن أنهى فارس معركته حتى انتهت هي الأخرى.

سقطت بين ذراعيه بعد أن قطع ذاك الفرع الملتف حولها، حملها في رفق ووضعها على الأرض، بدأ الخوف يتسرّب إليه عندما حاول إفاقتها ولا تستيقظ، بدأ بالضّغط على صدرها محاولاً إنعاش ذا القابع هناك، يلتقط أنفاسه ثم يفرغ الهواء بفمها حتى يصل إلى رئتيها.

صوتٌ صفيّر جهاز تخطيط القلب قد ارتفع، خرجت الممرضة من غرفة أميرة تستغيثُ بالطبيب، نظرت ياسمين في قلق، أسرع الأخير إلى غرفة العناية، صرخ في الممرضة:

- اجلبي جهاز الصدمات، اسرعي.

خرجت إحدى الممرضات من الغرفة فأوقفتها ياسمين:

- ماذا هناك، ماذا يحدث!؟

- من فضلك يا آنسة، ابتعدي من طريقي الآن، المريضة في خطر.

فقدت السيطرة على نفسها، وبدأت البكاء بهستيرية، لمحتها أمّها تسأل عما يدور فأجابتها من بين دموعها:

- لا علم لي بما يحدث، دخل الطبيب والكثير من الممرضات من خلفه.

بردتُ أطراف هالة، بدأت بفرك كفيها توترًا، تبعد الشيطان عن رأسها، بداخلها يقين أنها فقدت ابنتها، اضطربَ الجميع وبدا التوتر جليًا.

تركتُ ياسمين الجموع واقتربت من النافذة الزجاجية بالقرب من غرفة العناية، أمسك الطبيب جهاز الصدمات، كرّر محاولاته مرّة ثم أخرى، وفي كلّ مرّة تبوء بالفشل، همس إليها في خوف "لا تموتي أرجوك".

لم يستجب قلبها للصدمات، تسدل قطرات العرق على جبهته، أشار إلى المريضة يطلب منها رفع قوّة الجهاز، عاد يهمس إلى أميرة قبل الصدمة "لن أتركك للموت، محاولة أخرى"، صدم قلبها فإذا بجهاز التخطيط يشير إلى استجابة القلب وعودة مساره للنض.

فتحت عينيها تلتقطُ أنفاسها كغريق يتشبّث بالحياة، نظرت إليه بعينين مجهدتين تناديه في وهن، توقّف وهلة وكأنّه غير مصدّق، كاد يبكي فرحًا، لم يعِ بنفسه، جذبها بين ذراعيه.

— لوهلة ظننت أنّي فقدتك.

بدأتُ في استعادة تركيزها، نهض وساعدها على النهوض، هذه المرّة لم يتركها تمشي خلفه، حرس على بقائها إلى جواره، كادت في المرّة الأولى أن تضيق منه إلى الأبد.

خرج الطبيب أحمد من الغرفة، فوجد الجميع في انتظاره يملأ وجوههم الرّعب والترقب، يخشون أن يبلغهم بموت أميرة، بادرت هالة بسؤاله:

— ماذا حدث؟

- لا داعٍ للقلق.. كدنا نفقدها، لكنّ قلبها عاد للنبض مرّة أخرى، هي بخير.

استأذنهم لمباشرة باقي عمله، شاردًا لا يشعر بخطى قدميه، يسأل نفسه متعجبًا "لم كلّ هذا الخوف على شخص لا أعرفه! أغرمت بامرأة لم أقابلها في حياتي، كلّما تمعّنت في ملاحظها الهادئة شعرت بألفة ما، أيعقل أن يكون ذلك طبيعيًا؟".

وقفت ياسمين خلف زجاج غرفة العناية تراقب أختها، مرّ أمامها شريط ذكرياتها معًا، اغرورقت عيناها بالدموع، قطع شرودها ياسين مرتبًا على كتفها فالتفتت إليه، لمحّ عبراتها فحدّثها في رقة أن "لا تبكي".

فتحت عبارته مجالًا أوسع للبكاء، حرقت العبرات مآقيها، تتأمّله صامتة بمقلّ حزينه تخبره بالكثير، قابل صمتها بصمت.. تركها تفرغ مخزون صدرها رغم ألمه لحزنها.. مسح ما تفرق على وجنتيها بأنامله.

- هذه العبرات غالية.. تركتها تخرج الآن ليهدأ صدرك، لا تهدريها هباءً. أوقفت كلماته نزيّف عينيها، هدأت بعد حديثه الرقيق لها، ابتسم مكملًا:

- لا تقفي هنا بمفردك، هيّا نجلس معهم بالاستراحة. جذبها من يدها كطفلته، استسلمت تنساق خلفه.. مطمئنة لا تفكر، مشاعر مبهمّة متدقّقة لا تفهمها ولكنّ تشعر بها جيدًا.

من الرائع أن تجد من يهتم بك.. أليس كذلك؟!
عندما تضيق بك وتوشك على الانهيار تجد من يسحبك من يدك، يهرب بك من كلّ العالم لتمكث بجواره ويمكث بجوارك، فيراك الدنيا وتراه الملائكة

الأخير، هكذا كانت تشعر ياسمين تجاه ياسين، فقد كانت طفلته وحبيبته وسرّه الكبير.

جلست إلى جواره بالاستراحة، بينما قد نسي الدّنيا فلم يعد يرى فيها سواها.

— عليك العودة لأجل زوجك، هذا اليوم الثاني لك خارج المنزل.

قالتها هالة لسعاد ممتّنة، فلا تريد أن تتسبّب بأي مشاكل لأختها.

— اتّصلتُ به وأخبرته أنّي سأبقى معك لأجل أميرة.

قاطع ياسين حوارهما معًا:

— أمّي.. خالتي محقّقة، عودي أنتِ إلى المنزل، اتّصلت بعادل وطلبت منه

أن يقدّم لي على إجازة، سأكون معهم لا تقلقي.

استسلمت سعاد أمام محاولاتهم ووافقت على العودة للمنزل.

أسندت هالة رأسها إلى كتف زوجها، يتأرجح التعب على خالاياها،

أغمضت عينيها فمسح أجمد على شعرها، يعلم أنّ كلّ الأحداث التي مرّا بها أرهقتها بشدّة.

— خالتي، أنتِ أيضًا تحتاجين للراحة.

حزت الدّموع بجلباب خدّها، ألمها فكرة ترك أميرة، رفضت الدّهاب،

حاولت ياسمين إقناعها:

— أمّي، تركتينا بالشّهور وكنا بخير، أنت الآن بجوارنا يجب أن ترتاحي

وتطمئني.

حاول زوجها إقناعها هو الآخر بالعودة إلى المنزل لتنعّم بقسطٍ من الراحة.. أخبرها ياسين بكونه سيتصل بأمّه لتبيت معها بشقتها.. ثمّ طلب من محمود إيصالها بينما يوصّل سلمى.

بعد صمتٍ عادت للبكاء.. أكمل حينها:

- خالتي، أميرة لا تشعرُ بأحد، لا تحتاج إلّا دعواتنا، من فضلك هي تحتاج إلى تماسكك الآن.

وافقت، فأسندها أجدٍ لإيصالها حتى السيارة وخلفهما محمود وسلمى.. رحل الجميع، لم تتوقّف ياسمين عن الشرود لحظة، تعود إلى أرض الواقع بنداء، ثمّ تشرّد من جديد، متورّمة العينين محمّرة الأنف.

- أأنت بخير؟

سألها ياسين في قلق، فأومأت برأسها في ابتسام، نظر إلى عينيها معاتباً:

- عيناں جميلتان لا يجوز لهما البكاء مهنّا حدث.

تورّدت وجنتاها خجلاً، خيّم الصمت.. محدّثها ولا تردّ سوى بإيماءة، لا ترفع ناظرها عن الأرض، ينجذب إليها ياسين أكثر فأكثر، تدوّي كلماته في قلبها طرباً، لم تكن تريد أن تظهر سعادتها بها يقول.. فهي الأخرى لا تعلم ماهية مشاعرها.

انشغل حسن ببعض الأمور على حاسوبه.. استأذنت سكرتيرته الدّخول، أخبرته برغبة أحدهم في رؤيته يدعى "سيد"، سمح لها بإدخاله، رفع رأسه بعد إظهار اللا مبالاة.. شبك أصابعه مسنداً كفيه إلى المكتب يسأله:

- ماذا تريد؟ سريعاً لأنّي مشغول.

— الأمر الذي أتيت لك من أجله خاصّ بولدك جمال.

اعتدل في جلسته منتبهًا..

— ما به جمال؟

— زوجتُك طلبت مِنّي البحث في قضيةٍ بخصوص فتاة أصيبت في حادث تدعى "أميرة"، وبالبحث علمت أنّ ابنك هو من ارتكبه، الإجراءات حتى الآن لم تتم بشكل رسمي، ولكنهم في الطريق لجعلها رسمية.

صاح به حسن غير مصدّق، ارتعد سيد محاولاً تأكيد الأمر هرباً من غضب حسن.

— هذا ما حدث وجئتُ لأعلمك.. فأنت كلّفتني بإخبارك عن كلّ تحرّكات زوجتك وأولادك.

تماسك حسن، لم يردّ إبداء الضعف أمامه، ثمّ طلب منه الانصراف.

— حسنًا، اذهب أنت الآن للحسابات سيعطونك ما تريّد من المال، وسأتصل بك لاحقًا لأخبرك ماذا تفعل.

تهلّلت أساريه، رحلَ يفعل ما طلبه منه سيده، أمّا عن حسن فجلس يغلي كالقدر، رفع ساعة الهاتف يتّصل بالمنزل، أجابته زوجته..

— أنا قادم للمنزل.

— ماذا حدث!؟

— ستعرفين عندما آتي.

شعرت بالقلق، ربّما علم بشيء ما، أظهرت التماسك خبرةً إيّاه أنّها في انتظاره، ما أن أغلقت الهاتف حتى بدأت دقّات قلبها في الارتفاع، تتساءل عن سبب قدومه، هو لا يقطع عمله إلّا للضروريات.

وصل إلى المنزل ففتحت وردُّ له الباب، دخل مندفعًا يبحث عن جمال، استوقفته فريال مدّعية عدم الفهم.

- ماذا هناك!؟

صرخ فيها:

- لا أريد سماع صوتك، أين جمال؟

- في غرفته، ماذا تريد منه؟

- ستعلمين الآن.

أمسك فريال من ذراعها فاتحًا غرفة جمال، ثمّ دفعها إلى الداخل، تراجع جمال عدّة خطوات، دفع حسن خلفه الباب في قوّة، أيقظ صوت المشاجرات "سمير" من نومه.. فتح باب غرفته يستكشف ما يدور، لم يجد أحدًا، فنادى الخادمة يسألها عن الجميع..

- السيد حسن دخل غاضبًا منذ قليل، أمسك يد السيدة فريال ودخلا غرفة السيد جمال.

طلب منها الذهاب، ثمّ تحرّك إلى غرفة أخيه، همّ بفتح الباب فاستوقفته عبارة أطلقها والده:

- لماذا قمتَ بدھسها يا غبي!؟

أمسك المقبض ملقيًا بأذنيه إلى الحديث بالداخل..

- أنتِ السبب في كلّ ما يحدث، دلّلك أفسدهم.. لماذا لم تخبريني بما حدث!؟

حاولت حينها التبرير:

- كنتُ أريد التصرّف، ظننتُ أنّي سأستطيع إنهاء الأمر دون التسبّب لك بالقلق.

أجاب متهمكماً:

- الأمر بدأ في الافتضاح، يومٌ آخر وستكتب الجرائد عمّا فعله المدلّل..
ستنهار شركاتنا، وسيرمى ابنك الكبير في السجن.

- سجن!! أتريد لطفلنا أن يرمى في السّجن بين المجرمين والقتلة!؟
نهرّها في غضب:

- لا أريد سماع صوتك، أنتِ السّبب في كلّ هذا.

- مللتُ هذه النبوة.. كفّاك، دائماً ما تلومني كأنهم أولادي بمفردي وأنتِ لا، أنتِ شريكي في تربيتهم، فلو كانت تربيتي لهم هي السّبب في هذا فأنتِ تشاركني هذا.

ما أنْ أنهت عبارتها حتى وجدت صفعةً على وجهها أصابت كلماتها
بالبكم.

- اخرسي، لا أريد سماع أيّ كلمة.

اغرورقت عيناها بالدموع، لا ترغب في الانهيار أمامه.. وكأنّ ما فعله لم
يجرّك شعرة بضميره.. التفت وكأنّ شيئاً لم يكن؛ إلى جمال مكماً حصّته:

- الفتاة بين الحياة والموت، سأحاول التصرّف.. ولكنّ أقسم لك يا جمال
لو كنت سبباً أنتِ أو أيّ شخص في انهيار تلك الإمبراطورية التي أفنيتُ
عمرى في بنائها، لن أرحمك.

أنهى كلامه وقد همّ بفتح الباب ليجد "سمير" في وجهه، رmqه بنظرة غضب ثم أكمل طريقه، دخل الأخير حينها يتساءل في دهشة "أأنت من صدم أميرة يا جمال؟!"

اقترب جيش مقدنيو بقيادة أوكتافيوس وهنري من أرض الوحوش، بينما فارس وكاميليا مازالا بالداخل..

— أين ستتجه؟

سألت كاميليا فأجاب حينها فارس:

— لا علم لي.. سنذهب للبحيرة المسحورة نسأل الجنيات هناك عن أي الطرق نسلك.

— جنّيات!! وستتجه إليهم؟

وكانّ الكلمات ضربت عقلها.. تعالت ضحكاته متعجباً من ردّة فعلها:

— وما المشكلة في ذلك؟!

— هذا شيء مُرعب.

— أخبرتك ألا تخافي من شيء.. وكانّ هذه الأمور تدريكيها للمرة الأولى، رغم كونها مرّت عليك مرّات ومرّات.

وصل كلاهما إلى هاوية بها صخور متطايرة متخذة شكل سلم.. متدرجة تتصل بمكان ما قريب، بين كلّ صخرة وأخرى مسافة.

— يجب أن نمرّ هنا.

— والتّين؟

- سينتظرننا هنا ريثما نعود.

- أسيكون بخير؟

تعالت ضحكاته ثم حدّثها ساخرًا:

- مَنْ يراك الآن، لا يعرفك وأنتِ خائفة من الاقتراب منه في أوّل مرّة رأيتّه.

رمقته بنظراتٍ نارية.. فكيف له أن يسخرَ منها وهما في هذه الحالة، حاول تهدئة الموقف.

- على رسلك.. أنا أمزح، هيا الآن.

تأمّلت الصخور المتباعدة المعلّقة في الهواء.. بدا عليها الاضطراب، كيف لها أن تجازف بالقفز على هذه.. إن تعثّرت لن تنهض أبدًا.. فالخطأ هنا بنحْب، جسدها الضعيف ولياقتها لن تؤهّلاها للقفز عليها.

- كيف سأمرّ من هنا!؟

- لا سبيل سوى حملك.

رفضت ذلك بشدّة، احمّرت وجنتها لمجرّد التفكير في الأمر.

- هذا مستحيل.

ابتسم في دهاءٍ.. يلعب على نقاط ضعفها.

- حسنًا، يمكنك المشي خلفي، كما تريد.

تعلم أنّها لا تستطيع ذلك، تنظر إلى السّلام الصخرية، ثم تعاود النظر إلى فارس في حيرة من أمرها، استسلمت في خجل.

- أنا موافقة، سأدعك تحملني.

حملها بين ذراعيه، ابتسم ابتسامة المنتصر، فهي في الأخير أنثى موطنها الضعف.

- أغمضي عينيك ولا تنظري للأسفل مهما حدث، اتفقنا؟
تشبّثت بقميصه، أغمضت عينيها بقوة.

- سأفعل.

بدأ فارس بالقفز، ما أن لمست قدماه الصخرة الأولى وشعرت الأخيرة بذلك حتى تشبّثت به أكثر، فتحت عينيها فضولاً فصرخ فيها فارس محذراً:
- قلت أغمضي عينيك لا تفتحيهما أبداً.

تتابع قفزاته من صخرة إلى أخرى، انزلت إحدى قدميه ليسقط عن الصخرة فصرخت كاميليا، تشبّثت بأحد ذراعيه، ثم حاول التسلق إليها مستعيداً توازنه، تتابع أنفاسه، يهمس لها أن تطمئن، أكمل الطريق حتى وصلَ لنهايته، أنزلها أرضاً، تمعّنت نازرةً فقد أبهرها جمال المكان.

وكأنّ الأرض تتزين بثوب أخضر يزيد جماله الياسمين، تتدلّى من الأشجار عناقيد الثمار، لا.. لا.. ليست ثماراً عادية، حبّات زمرّد، تتدلّى من فروع مكسوّة بالذهب، عصافير تجمع الألوان على حوافّ الريش زقزقتها أناشيد، على بُعدٍ ما من الأرض بحيرة زرقاء صافية.. لم تنفّو حينها سوى بكلمة واحدة.

- يا إلهي.

همّت بأوّل خطوة فاستوقفها فارس:

- مهلاً.

- ماذا؟

- ذاك سحر، كل ذلك وهم ليس حقيقياً، أنصتي إليّ.. لا تحاولي لمس أي شيء، سندخل إلى هناك لنسألهم عن الطريق ونخرج سريعاً، إيّاكِ الإنصات لشيء أو لمس أي شيء، اتفقنا؟

أومأت برأسها في اضطراب، تملكّتها مشاعر الغضب من أوامره التي لا ترى أي مبرر لها، قطبت حاجبيها ثم تبعته، أخرج فارس سيفه متأهباً لأي هجوم.. يسير في حذر، أما عنها فلا تكفّ عن التأمل، فكل شيء هنا يجذبها، وما أن وصل كلاهما إلى البحيرة الزرقاء حتى جثا فارس على ركبتيه ينادي:
- أيّتها الحوريّات، يا جنّيات البحيرة.. اظهرنَ أحتاجكنّ.

تبدّل لون البحيرة إلى الأزرق القاتم كالخبر، كساها دخان ضبابي، ماؤها يغلي بعضه في بعض، أخرجن أنصاف رؤوسهن من تحت سطحها، بينما باقي أجسادهنّ تحت الماء لا تراها، جلودهنّ بيضاء تشوبها الزرقة كجلد الأموات، أعينهنّ واسعة مشقوقة بالطول، أجفانهنّ للأسفل، فزحيتهنّ لؤلؤية زرقاء، رموشهنّ متشابكة من كثافتها وطولها، يمتلكن فتحات بجانب أعناقهنّ الطويلة كالخياشيم، تتدلّى أنياب من فم كلّ واحدة، خنّس، جميلات إلّا من الأنياب، يطفو جزء من شعورهنّ الطويلة الناعمة على السطح.

رغم جمالهنّ تراجعت كاميليا خوفاً من مظهرهنّ الغريب، اختبأت خلف فارس متشبّثة بقميصه، ربت على يدها مطمئناً إيّاها:
- لا تخافي.

اقتربت من أذنه خشية أن تسمعها إحداهنّ:

- لم هنّ بهذا الشكل؟

- دمائهنّ لا تشوبها الحمرة كدمائنا، دمائهنّ زرقاء كالدماء الفاسدة.
خرجنَ بأنصاف عارية من تحت السطح، ظهرنَ بشكل أكثر وضوحًا،
آذان طويلة تتدلى، قزحية عين واسعة، ملامح تجمع ما بين الروعة والغرابة.
بدأ في سؤالهنّ بينما إحداهنّ استغلّت انشغاله وبدأت بجذب الأميرة
بسحرها، اقتربت منها لا إرادياً رويداً.

جذبت كفّها في رفق تستدرجها للأسفل، شعر فارس فالتفت في فزع..
جذب الأميرة إليه ثمّ نظر بغضبٍ إلى الجنيّة فبادلته النظرات.. تبدّلت عيناها
إلى اللون الأحمر الناري، بدأت الأميرة باستعادة وعيها، فتح كفّه فتخلّقت
كرة بلورية، وجّهها نحو الجنية فتعالّت صرخاتها ألماً، تصرّخ كحيوان يسلمخ،
انهار العالم من حول كاميليا وفارس في لحظة.. ابتلعت الأرضُ حشائشها
وأخرجت الجمر، واسودّ لون الأزهار، تحوّلت السماء إلى دخان أحمر،
وبدأت النار تخرج من البحيرة.

ملاً الخوف مقلتي كاميليا.. همست إليه:

- ماذا يحدث؟!

- بدأت تغضب، هيّا بنا من هنا بسرعة.

حملها مهرولاً، يعدو بينما الأرض تهتدّ من تحت قدميه، صرخات الجنيّة
تتعالى شيئاً فشيئاً، صاح فارس:
- أغلقي أذنيك.

يعدو عدواً فاهلاكُ خلفه يلاحقه، وبين يديه كاميليا مُنكمشة، خرج من
أرض الجنيات قافراً على الصّخور وما أن اقترب من مكان التّنين حتى هوت

آخرُ صخرة في الفراغ، تعثر على الأرض، نام على ظهره تتلاحق أنفاسه من هؤل المغامرة وهي إلى جواره، ضحك عاليًا وكأنّه غير مصدّق بنجاتها.

- كاد نفسي ينقطع.

- ماذا!! أنا ثقيلة؟

أكمل ضاحكًا:

- جدًّا.

ضربته في كتفه مصطنعة الغضب:

- أيها الأحمق.

لا يكفّ عن الضحك ولا تكفّ هي عن الابتسام.. صامته تتأمّله في فخر، من الرائع أن يحميك من مثل فارس، أليس كذلك؟ فالمخاطر إلى جواره باتت أمتع ما يكون.

في غرفة الطّعام بالقصر، جلس مقدنيو وزوجته إيزابيل لتناول الغداء، منضدةً واسعة تحفل بشتى الأصناف، أمام كلّ منهما كأس نحاسي مملوء بالخمّر.

تتأمّل إيزابيل طعامها ببرود، تتحرّك كالأفعى رويدًا، بينما زوجها غارق في التفكير، شاردٌ في أمر كاميليا.

رفعت عينيها إليه، قطعت صمته بحديثها:

- ما الجديد؟

توقّف عن تناول طعامه، وضع ملعقته بجوار الطبق ثمّ أجاب:

- الجيش يلاحقهم.

نظرت إليه بنصف عين، أردفت قائلة:

- ماذا إن لم يستطع الجيش القبض عليها؟

- ولم لا؟ أرض الوحوش ليست مكاناً سهلاً للحركة، كما أنّ الجيش

كبير.

ابتسمت سخرية:

- أراك تستهين بقدرات خصمك، كاميليا تملك قوّة كبيرة، لو استطاعت

الخروج من أرض الوحوش ووصلت لجيش الأمير سليمان الذي فرّ هارباً خلف ذاك المكان؛ ستعود به، وسيقضى علينا.

فكّر في كلماتها، هي بالفعل محقّة، لا مجال سوى التخلّص منها، نظر إليها في حيرةٍ يشوبها الاضطراب.

- وما العمل؟

- أنا أنتظر كما تنتظر.

تناول مقدنيو كأس الخمر دفعةً واحدة، يحاول قتل اضطرابه بالشرب،

وإيزابيل تتابعه، ونظرة البرود لا تغادر محيّاها.

جلست سعاد إلى جوار زوجها يتناولوا الطعام معاً، خيم على الجميع

الحزن منذ ذلك الحادث، نظر حسين إلى زوجته يسألها عن حال أميرة،

فأجابته في حزن:

- لا زالت في غيبوبة .

- أتمنى من الله أن يشفيها.

أخبرته عن رغبتها في الذهاب للمبيت مع أختها حتى لا تكون بمفردها بعد أن اتصل بها ياسين، وافق على الفور، لم يتردد لحظة، يعلم قيمة أن يكون الأهل إلى جوار بعضهم في هذه الظروف، في أيامنا هذه قد يرفض الزوج زيارة زوجته لأهلها، متجاهلاً حرمة ذلك، فقطع الأرحام كبيرة يحاسب عليها الله.

- أخبريها مني السلام، ولزوجها أجمع.

- سأفعل.

تجهّزت سعاد للذهاب لأختها بعد أن اتصل بها محمود، فبعد أن أوصل حالته ذهب لإحضار أمّه بسيارة أخيه كما طلب منه.

فتح الباب لها، فركبت إلى جواره، فبادرت بالسؤال عن سلمى:

- أين سلمى؟

تعجّب من سؤال أمّه، فلأول مرّة تسأله عنها، فما علاقته بها لتختارها من بين البشر لسؤاله هو مخصوص عنها.

- مع خالتي في المنزل، لم ترغب بتركها بمفردها حتى تأتي أنت.

- مخلصة جدّاً، وطيبة القلب أيضاً، ويبدو أنّها على خلق، وكذلك جميلة.

ظلّ غارقاً في تعجّبه من كلمات أمّه، فلا علم له بمناسبة هذا الكلام.

- ما الأمر؟

صمتت تنظر إليه في دهاء، يعلم ما يدور بمكنونها، لكنّه يدّعي عدم الفهم، أنقذه انتهاء الطريق، وصل كلاهما إلى منزل خالته.

- وصلنا، نادي سلمى من الأعلى حتى أوصلها بطريقي.

- ومنذ متى هذه الشهامة!؟

اضطرب يستجمع الكلمات ليحببها، بدأ التّوتر يظهر على ملامحه.

- ماذا؟ ياسين طلب مني إيصالها.

- ياسين!! آآه حسناً.

ادّعى عدم الفهم، يعلم ما ترمي إليه أمّه، ولا يرغب في تمكينها، تركته.. مرّ بعض الوقت كالأعوام العجاف فترقّب الأحداث يوقف الزمن، تراه يمرّ كرجل عجوز يجتاز درباً مزدحماً.. ظهرت سلمى، صوت قلبه كان أعلى من صوت خطواتها، تسلّلت برودةً لطيفةً إلى جسده، شعر بوخزها في أطراف أنامله، تزوغ عيناه، أهكذا يكون الحبّ في بواده؟ قطعت شروده:

- أكنت تنتظرنى؟

فتح باب سيارته مومئاً برأسه، فشكرته في خجل:

- أستاذ محمود، أنا ممتنة كثيراً لذلك.

- أستاذ!! نادني دكتور.

تعالت ضحكاتها، فأكمل حديثه:

- لست كبيراً إلى هذه الدرجة، ولا أستلطف الألقاب.

هدأ صوتها، سأله في خجل:

- بماذا أناديك؟

— محمود فقط، ولن أقبل بأيّ مزايدات.

— حسنًا.

— يا ماذا؟

— يا محمود.

ابتسمت إليه، مضطربة مشتتة، خجل البدايات على ما أظنّ.

جلس سيد ينتظر حسان بالسكرتارية، مرّ بعض الوقت ليجده، وقبل دخوله إلى مكتبه أشار إليه أن يتبعه، ثمّ أخبر السكرتيرة أنه باجتماع مهمّ، ولا يريد أن يرى أحداً أو يتلقّى أيّة اتصالات حتى ينهيه.

فتح حسان زرّ بدلتته، ثمّ جلس على الكرسي الخاصّ بالمكتب، أشار بالجلوس إلى سيد مبادراً بالحديث:

— أريد إخفاء أيّ أوراق متعلّقة بسيارة جمال من المرور.

— سيحتاج ذلك مبالغ طائلة.

— سأعطيك ما تطلب، فانه هذا الأمر سريعاً.

— أو ما سيد برأسه، فأكمل حسان:

— أما عن سيارة جمال ستفكّك، وأريدك أن توزّعها على تجار الخرّدة لبيعها.

— حسنًا سيدي بأمرك.

— يمكنك الذهاب الآن، قبل غروب الشمس أريد اتّصالاً منك تخبرني

فيه أنّ كلّ شيء انتهى، مرّ على الحسابات واطلب المبلغ الذي تحتاجه.

ما أنّ خرج سيّد من المكتب حتى رفع حسان الهاتف.. طلب من

السكرتيرة إحضار موظفين من موظفيه في الحال؛ الأوّل يدعى إسماعيل،
والآخر حمدي؛ فأسرعت إلى تلبية طلبه..

مرّ بعض الوقت.. ثمّ طرقت على باب المكتب تستأذن الدخول.. لا
أحد منهما يفهم سبب طلبهما.. بادر حمدي بالسؤال:

- أهنالك شيء سيدي؟!

- نعم هناك أمرٌ ما أريد التّحدث معكما بشأنه.

انتبه كلاهما فأكمل حديثه:

- سيتمّ استدعاؤكما لقضيّة بخصوص ولدي جمال لأخذ أقوالكم،
المطلوب منكما الإجابة على الأسئلة لصالحه، والشّهادة بوجوده في الشّركة
بوقت وتاريخ الحادث.

أسدلّ الصّمت أستارَه، قطع حمدي السّكوت بسؤال وكأنّ الأمر بدا له
كفرصة:

- والمقابل؟

ابتسم حسن ابتسامة الواثق:

- جيّد، بتّ تفهمني، مائة ألف كفاية؟

لمعت عيناه بالطمع، حلّق بساء أحلامه، ليسقطه إسماعيل على رأسه
بسؤاله:

- ما هي القضية؟

- جمال متّهم بدّهس إحدى الفتيات بسيارته.

تسرّب الخوف إلى روحه، تخيّل أحد أطفاله بدلاً من الفتاة.. أكان سيسرّ شهادة زور تضيّع حقّه؟ تحدّث في خضوع وحسرة:

— سيدي، أنا لديّ أطفال، ولا يمكنني فعل ذلك.

— افعل ما أطلبه منك، وإلّا ستُطرد من الشركة، وسيجوع أطفالك بحقّ.

يحملُ بين كلماته تهديداً.. أمّا عن إسماعيل فقد قيّد الضعفُ أوصاله، كلّ ما استطاع فعله هو طلب فرصة للتفكير.

— من المحتمل أن تطلبوا غداً للشّهادة، لن أنتظر طويلاً، أتفهم؟

وجّه حسنّ كلماته إلى إسماعيل، ثمّ نظر إلى زميله قائلاً "دلّه على مصلحته، يبدو أنّه لا يعرفها".

انتهى الاجتماع وخرج كلاهما من المكتب، مقلّتا إسماعيل تحمل الكسرة حزينة، فهو رجل فقير، ينفق على أولاده الثلاثة من العمل بهذه الشركة، يسكن هو وعائلته بحيّ فقير في إحدى المناطق الشعبية.. إن وافق سيحمل ذنب فتاة بريئة، إنّ رفض من أين له أن ينفق على ثلاثة أولاد وأمهم؟!!

عادَ إلى منزله والهَمّ يعتليه، قابلته زوجته بعد أن دخل المنزل وكأنّها شعرت بما حدث، تربت على كفّه:

— ما بك؟!!

— بعض المشاكل في الشركة.

— لا أريد أن أراك حزيناً تحمل الهَمّ هكذا.

— لا تشغلي بالك أنت.

- سأحضر لك الغداء، وغير أنت ملابسك، اتركها لمن خلقك، كفيلاً بتدبير أمورك.

تركته وذهبت لتحضير الطعام، أمّا عنه فغرق في التفكير، يمرّر كلام حسان على عقله، طعم الظلم مُر.. والعجز علقم.. حدث نفسه "ماذا سأفعل؟ أأرفض وأعرض حياة أسرتي للخطر والجوع، أنحن بلا ثمن إلى هذه الدرجة! فالظالم إذا امتلك المال والسلطة تمكّن من شراء أيّ شيء ولو كان ضميئاً، يا إلهي دبّر لي.. ماذا أفعل؟ أشهد زور وأظلم فتاة بريئة؟".
لم تشعر زوجته بالراحة، دخلت عليه لتجده لا زال شاردًا، اقتربت منه..

- ألن تخبرني بما يسرق تفكيرك؟
ابتسم محاولاً تمويهها، فأكملت مشفقة:
- أنا وأنت عشرة سنوات، لا تخفي عني ثقلاً يؤمك، شاركني بما تفكر فيه.

أوماً برأسه، كسا الحزن ملامح وجهه وهو يروي لها ما قابله بالشركة، حيرته وألمه.. كيف له أن يتصرّف.
استمعت إليه دون حديث، انتهى من كلماته ليجد ابتسامة هادئة على محياها تطمئنه بها.

- لن أتركك مهما كان قرارك، هيّا لتناول الغداء.
استوقفها إسماعيل سائلاً إيّاها:

- لم تخبريني.. ماذا يجب عليّ أن أفعل!

صمتت تفكر، لم تعرف بماذا تجيب، لم تذهب ابتسامتها للحظة.

- هناك مواقف لا نستطيع الفصل فيها، فنعم ولا.. كلاهما صعب، سأتركك تفعل ما تراه مناسبًا، واثقة حتى وإن كانت البداية خطأ، سوف تفعل الصواب.

ازداد هما على همّ بكلماتها، نظر إليها مستعطفًا كطيرٍ مذبوح يلفظ آخر الأنفاس:

- ساعيني مهّما حدث.

- سأسأحك مهّما حدث، فلتتركها لله.

ثقل ما سقطَ بقلبها بعد سماعها لكلمات زوجها، لم تُظهر سوى التماسك، فيكفيه ما يحمله من هموم، ثم جلس كلاهما لتناول الطعام.

توقّفت سيارة سمير أمام فيلا حمدي مكرم، خرجت أسماء تتهادى بمكياج صارخ وفستان قصير يُبرز مفاتها، ركبت إلى جواره فلم يلتفت إليها، جذبت ذراعه في دلالٍ محاولة لفت انتباهه.

- ما بك؟! -

أجابها بملامح جامدة، لم يتحرّك له ساكن:

- لا شيء، ألم تطلبي أن نخرج معًا؟ ها نحن نخرج.

تركت ذراعه متذرّمة، تنظر إليه بعتاب طفلة:

- أردتُ أن نخرج معًا، لا أن أراك حزينًا هكذا .

علا صوته، نظر إليها في غضب:

- أسماء، ليس لدى طاقة لحركات أطفال بالية الآن.

قطبت حاجبيها، عقدت يديها في ضيق:

- حسناً سأصمت.

انطلق بسيارته غارقاً في شروده، كل شيء بحياته انقلب رأساً على عقب، تحوّل من شاب تافه إلى آخر عليه تحمّل الكثير ليمرّ من القادم بسلام، كلّ الأمور من حوله تسرق انتباهه فتزيد من ذاك الثقل على قلبه وعقله، وكأنّ الحياة خبّأت مفاجأتها له منذ ولادته لتخرجها دفعةً واحدة.

خروجه مع أسماء لم يكن تلبية لرغبتها، بل كان ثغرةً يحاول الهرب فيها من حياته، حياته!! من قال إنّها حياته، لم تكن ملكاً له يوماً، هي لوالده صاحب إمبراطورية السيارات ووالدته ذات الحسب والنسب، فهو وأخوه دمي مريونت تتحرّك بأمر صاحبها، هذه ليست حياة؛ بل جحيم.. بوابته مرصّعة بالأماس، لهوه بالخمر والنساء أحد سبله للفرار.

عاد لتأمل أسماء، جريمة أخرى سيرتكبها بحق نفسه وأولاده مستقبلاً، سيكرّر خطأ والده، زيجة جديدة قائمة على المصالح، فمن أجل السلطة والنفوذ ليهلك العالم، والنهاية!!؟ صغار لا ذنب لهم يدفعون ثمن أنانية الكبار غالباً.

توقّف جيش مقدنيو أمام الخطّ الفاصل لأرض الوحوش، يتأمل أنطونيو وجنوده السواد الحالك، الشرّ المنتشر بالأرجاء، تسرّب الرعب إلى أرواحهم، بلغت قلوبهم الحناجر، يقدمون على المجهول، فاهلاك حليفهم، لا علم لهم

أَيَّ مِنْهُمْ سَيَدْخُلُ هَذَا الْمَكَانَ وَسَيُخْرِجُ مِنْهُ عَلَى قَدَمَيْهِ، رَائِحَةُ الْخَوْفِ تَفُوحُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ، أَمَّا عَنْ هَنْرِي فَلَمْ يَكُنْ مُصِيبُهُ مَا أَصَابَهُمْ.. تَأَمَّلِ الْمَكَانَ فِي لَامِبَالَةِ، ثُمَّ حَدَّثَ الْجَيْشَ:

لم يتحرك الجيش خطوة واحدة، فصرخ أنطونيو في الجنود:

تتابعت أقدام الأفراس، تعدو بانتظام، وفي المقدمة هنري وأنطونيو،
تسحب الأغصان كالشعابين لفتح الطريق، وما أن لمست القدم الأولى
الأرض حتى انقضت الأغصان على الجيش تهاجم الجنود، جذبت البعض
من فوق الأفراس فصاح هنري في فرع:

اضطربت الصّفوف، تعالت صرخات الجنود ملوّحين بسيوفهم يمينًا ويسارًا، وعلى غفلة من أنطونيو التّفّ أحدُ الفروع حول قدمه، حاول التملّص ولا جدوى، يزداد عليه التفافًا، يعصره عصرًا كاد يحطم عظامه، همّ أحد الجنود بإنقاذه فقطع دابر الغصن، سقط أنطونيو على الأرض يلتقط أنفاسه، مرّ الجيش من هناك بعد أن اختطفت الفروع المسحورة عددًا من الجنود أحياء.

- نجونا بأعجوبة.

- أرض الوحوش ملعونة، هذا أقلّ ما ستره هنا.

جلست كوزيت إلى جوار "آن" بالمطبخ تسامرهما، فقد خيم الحزن على ملاحظهما منذ أن سافر هنري على رأس جيش مقدنيو، بادرت كوزيت بسؤالها عن السبب، فأجابتها بغضب:

- ذاك الكاذب المخادع هنري، لن يتغيّر؛ فالكذب يجري بدمه.

- أتحبّه؟

فاجأها سؤال كوزيت.. لطالما هربت من ذاك السؤال، صمتت لوهلة ثم أجابت بتردد:

- ربّما، لكنّه لا يصلح للحبّ.

- لا يوجد رجل غير صالح للحبّ، حتى الأشرار يدقّ قلوبهم الحبّ.. إليزابيت أثنى الثعبان تحبّ.. مقدنيو كلب البراري يحبّ.. وإلا كيف له أن يتحمّل باردة الطباع تلك!

تعالّت ضحكات "آن" من تشبيهات صديقتها، ثم عاد وجهها للحزن من جديد، استطردت:

- الحبّ يغيّر الأشخاص للأفضل، وهنري لم يتغيّر.. كلّ ما يفعله هو الكذب.

- وما أدراك بما يفعله الآن؟ لعلّه ذهب معهم ليساعد في إنقاذ الأميرة.

تكعكعت.. نعم كوزيت محقّة، لربّما ذهب بالفعل لإنقاذ الأميرة.

- أعتقدين ذلك؟

- أنا على يقين بحبّه لك، فعل الكثير من أجل أن يظفر بقلبك، لا أظنّه سيضيع فرصة كهذه أبداً.

شردتُ في كلماتها، بدا عليها الاقتناع، أجابتها في تحدٍّ:

- سنرى.

خيّم التعب على كاميليا، فقد ضعفت حركاتها وتباطأت خطواتها.. فكلّمها همّوا بالسير تأخّرت.. لاحظ فارس ذلك.

- تعبتي؟

ابتسمتُ نافية بالرأس.

- تعالي.. سنرتاح هنا.

استوقفته في خوف:

- لكن يا فارس...

- لكن ماذا؟!؟

صمتت وهلة، فتّشت بناظرها الجوانب حولها، أكملت حديثها إليه:

- هذا المكان مخيف، أخشى التحرك داخله، ما بالك باللكوث فيه!!

ابتسم إليها، أمسك يدها محاولاً بثّ الطمأنينة بروحها، ذكرها بوعد

لها:

- أنا على قيد الحياة.. فلا مكروه سيصيب الأميرة، ردّدي ذلك دائماً

بعقلك حتى لا تخشي أيّ شيء.

- لن أخاف، أعلم أنّك ستفي بالوعد.

- سنمكث هنا وسنشعل النار للتدفئة.

هدأت كاميليا، كلّما فرّ منها الأمان أعاده إليها فارس، يضرّم النار وهي بالقرب تنتظر انتهاءه، فإذا بشيء ما بحجم عقلة الأصبع يشعّ منه النور يجلّق، اقترب منها متوقفاً أمام أنفها، تأمّلت به باعجاب شديد، تمتدّت إليه بكلمات وكأنّها تسأله عن ماهيته، انتبه فارس لهمسها فالتفت إليها:

- فارس، انظر.

لبّى نداءها مقترّباً يتأمّل ذاك الكائن المشعّ.. كانت فتاة، لها جناحان صغيران يتساقط عنهما تراب سحريّ منير، ذات وجه ملائكيّ مستدير، فتحت كاميليا كفّها بلطف فوقفت عليه الصغيرة، وبفضول طفلة تستكشف العالم سألته:

- ما هذه؟

- حوريّة صغيرة، تعيش بباطن الأشجار، ليست مؤذيةً على الإطلاق، كما أنّها تخشى البشر كثيراً.

- لو كانت تخشى البشر، لم اقتربت منّي إذا!!

ابتسم حينها..

- ربما لكونك أميرة.

وقفت الصغيرة على كفّها تضرب بجناحيها فرحاً، تمنعُ النظر بعيني كاميليا، وهي الأخرى تتأملها بفضول.

- أهى بمفردها؟

- لا، الحوريّات الصغيرات يعشنّ في عائلات كبيرة، قد تدلّك على موطنها.

مرّت دقائق، خرج نورٌ من بواطن الأشجار العملاقة المحيطة بالمكان، أسرابٌ من الحوريات خرجت من منازلها، اقتربت منها فتعالت ضحكات كاميليا فقد تحقّق ما حدّثها به منذ قليل، بدا وكأنهم علموا بقدوم الأميرة.. نظرت إليه لتجده متعلّقاً بمقلتيها فحلّ الصمت.

تلمع المقل بالدفء، تعكس ضوء الحوريات، ارتفع صوت القلوب رغم صمت الألسنة، تتحدث الأرواح بعالم آخر، عالم من صنع أقرانه وفقط.

جذبت الحوريات بعض الخصلات من شعر كاميليا فتعالت ضحكاتهن: - آه، يا إلهي، ماذا سيفعلن؟

ابتسم إليها فارس، ولا زالت تلك اللعة تحتلّ عينيه:

- يرحبن بك، يبدو أنهم أحبك كثيراً.

يصنعن من شعرها ضفيرة للخلف، تقدّمت بعض الخطوات نحو فارس، فإذا بالحوريات تنثر الغبار السحري خلف خطواتها، فتخرج الورود بأثار قدميها، انحنى فارس يقطف زهرة ثم علّقها بشعر كاميليا فتورّدت وجنتاهما خجلاً..

كلاهما يشعر بالانجذاب للآخر، وكلاهما لا يبوح بما في قلبه.

أيشترط في الحبّ البوح؟

ربّما الأفعال هي أكبر إثبات للحبّ.

فالحبّ هو تلك اللعة في عيني كليهما عند اللقاء.

هو ذاك الاهتمام المبالغ فيه من الطرف القوي للطرف الضعيف.

الحبّ أن تشعر بقلبه قلعة محصّنة تحميها.

أن يشعر بها أميرة داخل قلبه يخشى عليها حتى من نفسه.
 ففارس وكاميليا اعترفَ كلاهما للآخر بحبه دون كلمات، فالأفعال
 جسدت الحروف، والعيون نثرت البوح.
 - أنت جميلة جدًا.

ازدادت وجنتاها احمرارًا، سقطت إحدى الخصلات على وجهها فزادته
 جمالًا، لمسها فارس مرجعًا إيّاها للخلف.
 - أأنت بخير؟
 أو مأت برأسها في خجل:
 - نعم، أنا بخير.

جلس "حسن" منتظرًا مكالمة "سيد" على أحرّ من الجمر، رنّ الهاتف
 فالتقطه على عجل:
 - ماذا فعلت؟!
 - اطمئن سيدي، الملف لم يعد له أي أثر بالمرور.
 - كيف؟!
 - الموظف المسئول بالمرور طلب عشرين ألف جنيه، فلما وضعت أمامه
 المبلغ وافق على إعطائي الملف الخاص بالسيارة.
 ابتسم حسن متنفسًا الصّعداء، فقد انزاح الجبل عن قلبه.
 - جميل.. كنت واثقًا أنك يُعتمد عليك.

أجابه مدّعياً التواضع:

- أنا من تلاميذك.

- لم يبقَ سوى بيع السيارة خُرْدة، مرّ على الشركة لأعطيك مفاتيحها،
تخلّص منها.

- سأفعل سيدي.

أغلق حَسَّان الهاتف، والسعادةُ تغمر أركانها، انتهى الكابوس الذي أرقّ
حياته، مملكته قد أوشكت على الانهيار، فلو أُلقي جمال بالسجن لِلْحَقِّ شُبْحُ
العار به، وبشركاته.

عاد "حَسَّان" إلى المنزل بعد أن سلّم المفاتيح إلى "سيد"، فتح الباب ليجد
فريال بوجهه، بدا وكأنها بانتظاره، سألتها في لهفة:

- ماذا فعلت؟!

- كلّ شيء انتهى.

بدت السعادة على ملامحها، سألتها في فضول:

- كيف علمت ذلك؟

أجاب في غرور:

- عندما يريد حَسَّان الدمنهوري شيئاً يأتي به، ولو رفضته كلّ الدنيا.

ما أن ولج سمير من الباب حتى أمره والدّه أن يلحق به إلى المكتب، تبعه
غير مكترث بما سيقال، متململاً غير آبه.. أغلق حَسَّان الباب، جلس على
مكتبه ناظراً إليه:

- كنت مع ابنة حمدي مكرم، أليس كذلك؟!

أوماً برأسه في برود، كالرجل الآلي يحدّثه، يجيب بقدر السؤال لا أكثر..
أكمل حسان حديثه فرحاً:

- جميل، المرحلة القادمة عليك أن تدعوها للمنزل.

بدا على سمير الانزعاج، سأل بلكنةٍ اعتراض، وكأنّه لم يسمع:

- ماذا!!!

- كما سمعت.

نظر إلى والده في ضيق:

- ولم المنزل!؟

- هذه خطوة أولى قبل خطوات متتالية.

- وما الخطوة التالية؟

- إقناع والدها بك، وعندها سادعوه لتناول الغداء، ثم أطلب يدها.

ظهر الحزن على ملامحه، شرد بهاضٍ لم يرتكبه يدفع ثمّنه الآن ألف مرّة،
ها هو يكرّر خطأ والده.

- أين ذهب عقلك؟ أسمعت ما أقوله؟

خرجت لشفتيه ابتسامة جمعت بين الألم والسخرية:

- نعم.. فهمت.

بعد أن عادت سعاد وأختها إلى المشفى، طلبت من ياسين الاتصال
بالشرطي لمعرفة المستجدات بخصوص القضية، في هذه الأثناء كان أحمد
بالقرب من سرير أميرة يطّلع على آخر تطورات حالتها.. يشعر باستمتاع

وهمةً كلّما دقت ساعة متابعتها، يتملكه الارتياح بتأمل ملامحها، وكأنّها تسرقه إلى عالم آخر، فتاة لم يقابلها يوماً سرقت لَبَّه وفؤاده دون كلمة واحدة.

خرج من العناية لتستوقفه ياسمين سائلة عن حال أختها، ابتسم في رقة:
- بخير، أفضل من ذي قبل.

- متى ستستعيد وعيها؟ اشتقتُ لها.

تدلّى الوحشة من كلماتها، تفتقد أختها إلى جوارها كما كانت سابقاً، شرد بكلماتها، فعبارة ياسمين أطلقت العنانَ لخياله، لم يرها ولم يتحدث معها قبلاً، وعلى الرّغم من ذلك فهو ولهان، بمقلتيه هي الجميلة النائمة، ماذا إن استعادت وعيها!؟

أيقظته ياسمين من خيالاته:

- دكتور، أنت بخير؟

أجاب مبتسماً:

- نعم.. نعم بخير، أنتِ تشبهينها كثيراً.

- أميرة أختي وابنتي وصديقتي وأمّي، هي كلّ شيء لي.

أثرت فيه كلماتها فحاول طمأنتها..

- ستكون بخير، لا تقلقي.

استأذن بالانصراف، التفت ولا زالت الابتسامة على شفيتها لتجد ياسمين

بوجهها، لم يكن طبيعياً، بدا غاضباً من شيء ما، حدّثها بنبرة عتاب:

- فيمَ كنتِ تحدّثيه كلّ هذا الوقت؟

تعجّبت من طريقة حديثه.. ولكنّها أجابت بهدوء:

- كنت أطمئنّ على حال أميرة.

- أكلّ ذاك الوقت معه والحديث القائم عن أميرة فقط؟!

صاحت به في ضيق:

- ما بك ياسين؟ لم تحدّثني بهذه الطريقة؟!

ادّعى اللا مبالاة، أجاب بملامح جامدة:

- لا شيء.

تركته غاضبة، جلست إلى جوار والدتها، لمعت العبراتُ بعينيها، وقف ياسين معاتباً نفسه، فكيف له أن يحادّثها بهذا الشكل!! يحادّثها كالمجنون بصوتٍ يكاد يُسمع "لم فعلت ذلك؟ ألا تستطيع التحكم بنفسك قليلاً؟ لقد أغضبتك منك يا غبي".

على الجانب الآخر، لم تكن تكفّ سعاد عن المراقبة، سمعت كلّ ما دار، تتأمل مقاومة ياسمين لدموعها، ثمّ تعاود النظر إلى ابنها حتى ترك مكانه النائي، واقترب حيث يجلس الجميع، جلس إلى جوار أمّه فمالته عليه هامسة:

- ماذا حدث؟

- لا شيء.

قالها ملتفتاً إلى ياسمين، لم تعدّ تستطيع المقاومة.. ازداد فيض الدّموع في عينيها فكادت تتساقط، استأذنت هرباً، همّت بالرحيل وقلب ياسين تندفّق دقّاته محازاة لصوت خطواتها وعيناه تلازمانها، أشارت له أمّه باللاحق

بها، صاحتُ به لتخرجه من ذاك المأزق "اذهب ياسين لشراء الماء لي من الكافيتيريا"، رزقته حيلةً جيدةً للانسحاب من بين جموعهم دون أن يشعر أحدٌ بشيء.

تسارعت خطواته في البداية، حتى اقترب من الشرفة التي تقف فيها.. تباطأ.. سار في حذر متردداً حتى وجدها مسندةً كفيها على سور الشرفة، رافعة رأسها إلى الأعلى وكأنها تلتقط أنفاسها، ناداها ياسين في هدوء يشوبه التوتر، التفتت إليه بعينين متورمتين ووجهٍ غارق بالدموع، سرتُ قشعريرة ما بجسده.. لحظة ارتكاب الفعل غير مواجهة نتائجه، كيف له أن يكون سبباً في كل هذا البكاء!!

قد نبكي من جرح أحدثه غريب.. نفرّ إلى القريب لمداواته، فكيف إذا كان القريب مرتكب الجرح!
مسح بأنامله دموعها في رقة..

- آسف، لم أقصد التسبب بكل هذه الدموع.

ازداد بكاءها.. نكست رأسها خجلاً من بروز عبراتها، تتنهد كصغير فطره البكاء.. رفع وجهها إليه، نظر إلى عينيها المتورمتين، ثم حدثها بصوت هامس:

- اهدي، لن يتكرر هذا أبداً، أعدك.

هدأتها تلك النظرة، كانت كالسَّماء بعد ساعةٍ مطر، انقشعت الظلمة لتبدو عيناها بكامل صفائها، خطفت ياسين من عالمه.

- ما هذا الصفاء!؟

صمتَ وهلة، ثم أكمل كلماته:

- ياسمين، هلا تزوجتيني؟

لم تتفوه بكلمة واحدة، تنظر إليه باندھاش، اختلطت الفرحة بالحزن،
إعصار عصف بها بعد سماعها لطلبه.

- سأطلب يدك من والدك.

أوقفته بصوتٍ وهنٍ من أثر البكاء:

- ياسين....

قاطعها هامسًا:

- هشش، لا تقولي أي شيء، أعلم أنّ الوقت غير مناسب، لكنني سأخلق
الوقت المناسب في أقرب وقتٍ لنكون معًا.



الفصل الرابع

اقترب ياسين من أمّه هامسًا:

- أريدك بموضوع مهمّ.

- وما هو؟

- أريد خطبة ياسمين.

تعجّبت سعاد من كلماته، فكيف له أن يطلب مثل هذا الطلب في مثل هذه الظروف.

- ألا ترى ما يمرّون به؟

- أرى، أريد فقط طلبَ يدها، المهمّ أن أضمن كونها لي الآن أيّ حفلات بعد شفاء أختها.

أقنع والدته، وعدّته بالحديث مع أختها بشأن زواجه من ابنتها..

همسات كليهما استثارت حاسّة الفضول لدى محمود، ما سبب كلّ هذا الهمس، ما أن ابتعد ياسين عنها حتى همّ الأخير بالاقتراب، وكأنّه شعر بأنّ المرة متعلّق بموضوعه مع ياسمين.. حاولت التملّص من قبضته ولم تستطع.

- أتريدان إقناعي أنّ كلّ هذا الهمس خلفه لا شيء؟

ضحكت لعناده، لن يكفّ عن التذاكي أبدًا.

- ماذا تريد؟

- أريد أن أعرف فيمَ كنتم تتحدثان؟

- ولا تخبر أحداً؟

- ولن أخبر أحداً.

خفضت سعاد من صوتها أكثر..

- أخوك يريد خطبة ياسمين ابنة خالتك.

"خطبة"؛ أيقظت هذه الكلمة رغبته بخطبة سلمى، هو الآخر يريد الارتباط بمن يحب، لكن يا ترى. أسلمى تبادل نفس الشعور؟ يتمنى حقاً لو يملك قلبها كما ملك قلبه.

تمزق شروده بدخول سلمى، تابعت سعاد صغيرها، تعلم جيداً حقيقة شعوره فهي أم، يختلس النظر إليها أثناء حديثها.. يتابع تحركاتها، يحفظ ابتسامتها..

على جانب ليس ببعيد ياسين.. بدا وكأنه ترك المكان للحديث مع أحدهم بالهاتف.. التفت الجميع لصياحه وكأنّ أمراً جلاً قد حدث..

- كما أخبرتك، أوراق السيارة اختفت كأنّ لم يكن لها وجود.

- والسيارة؟

- هي الأخرى اختفت، على الرغم من أنّي اطلعت على الأوراق.. الإجراءات الرسمية تأخذ وقتاً.. اتخذت الخطوات اللازمة، وقبل إنهاؤها اختفى كل شيء، وكأنّ السيارة لم تخلق يوماً.

سأله ياسين في ضيق:

- وكيف حدث ذلك؟

- لا تنسَ أنّ والده حسنَ الدمهوري.. رجلٌ كهذا يستطيعُ بسلطتهِ فعلَ أيّ شيءٍ، أشكّ أنّه وراءَ ذلك، لن يقفَ مكتوفَ اليدين أمامَ مستقبلِ ابنه وشرَكَاته.

تغلغلَ الشّعور بالعجز داخله، يسأل الشرطي عما يجب فعله؛ فقد نفدت الحيل.

- لا أمل سوى في الشهود الآن، سيعرضون على النيابة، أتمنى حدوث جديد. أغلقَ الهاتف بعد إنهاء المكالمة، جلس إلى جوارهم بالاستراحة والحزن على ملامحه، يسأله من حوله عما حدث في قلق..

- لا يوجد جديد.

- لا يبدو على وجهك ذلك!

قالتها ياسمين في قلق فأجابها بصوتٍ وهنٍ مُحبط:

- الشرطي أخبرني بأنّ كلّ الأوراق المتعلقة بالسيارة اختفت، حتى السيارة نفسها لم يعد لها أيّ وجود.

دق قلبها خوفاً، تسأله عما يجب فعله، أجاب ولا زالت نبرة الإحباط بصوته:

- الأمل في الشهود، أتمنى أن لا يحدث الأسوأ.

اقتحمت الشرطة بيت حسنَ الدمهوري، الجميع في دُعر، فرّ جمال من مكانه رعباً، همّ أحدُ عساكر الشرطة بجذبه من ذراعه، فاستوقفته فريال صارخة تهتّد:

- ماذا هناك؟! كيف أمكنكم اقتحامُ المنزل هكذا؟! ألا تعلمون منزل من هذا؟

- معي إذن نيابة بضبط وإحضار المدعو كجمال للتحقيق معه في قضية متهم فيها.

صاحت في الشرطي:

- كيف تجرؤ؟!

- هذا عملي وأنا أنفذه، من فضلك نريده دون إزعاج.

تأملته في غضب، لم تكف عن التهديد والوعيد:

- ستدفع ثمن هذا غالبًا.

جذبه واحد من العساكر إلى الخارج، فطلبت فريال من الضابط مرافقة ابنها للأسفل حتى لا يلاحظ أحد من سكان العمارة، وبعد مناوشات وافق الضابط على مرافقة ابنها، بل وإيصاله القسم في سيارتها بشرط أن تتبعهم سيارة الشرطة.

مر بعض الوقت حتى وصلوا للقسم، اتصلت فريال بحسان فأتى سريعًا ومعه الشهود والمحامي، علا صوت حسان بالقسم مندداً ومخوفاً:

- كيف يحدث هذا!!؟ كيف لابن حسان الدمنهوري أن يدخل قسم شرطة متهمًا بقضية ملفقة كذلك؟

حاول الشرطي تهدئته، فحسان له مكانة مالية وعلاقات سياسية، تجعل كل من يتعامل معه يهابه.

- اهداً سيدي، هذه إجراءات لا بد منها.

قبل عرض كجمال على النيابة للتحقيق معه، وقف المحامي يلقن كجمال ما يجب قوله:

- كجمال، أي شيء يسألك عنه أنكروه.

— سأفعل.

— الحادث كان في الثانية عشرة إلا ربعًا تقريبًا، أريد منك أن تقول إنك كنت في الشركة في ذاك الوقت، وهناك شهودٌ بوجودك، حاول أن تكون متهاكمًا، ولا تظهر الاضطراب، اتفقنا؟

أومأ برأسه، جذبته الشاويش للعرض على النيابة، تبعه المحامي إلى الداخل، ثم جلس في الكرسي المقابل لوكيل النيابة، وبدأ بتعريف نفسه: — أنا المحامي رأفت منصور، حاضر عن المتهم.

بدأ التحقيق، وجه وكيل النيابة السؤال الأول إلى جمال:

— أنت متهم بدهس فتاة تدعى أميرة أمجد.

لم ينظر حتى إلى عيني من يحقق معه، العيون صادقة تنطق بما لم ينطقه اللسان.. ظل منكس الرأس لوقتٍ.. أجاب بصوت متوتر:

— لم أفعل، هذا لم يحدث.

لم يعطه وكيل النيابة فرصة للراحة، لقنه السؤال الثاني سريعًا:

— أين كنت وقت الحادث؟

— كنت في الشركة.

— في أي وقت؟

بدأت غدده العرقية تقوم بدورها.. بدا عليه التوتر، يتلع ريقه، يفرك أصابعه في توتر، ثم يجيب:

— في الساعة الثانية عشرة إلا ربعًا ظهرًا تقريبًا.

- أهنأك شهود على وجودك؟

- نعم.. كان هناك اثنان من الموظّفين في ذاك الوقت، فقد كان لديّ بعض الأعمال التي يجب أن أنهيها، وظلاً بجواري لمساعدتي.

قطع المحامي الحديث مؤكّداً كلام جمال:

- الشهود بالخارج سيدي إذا أردت سؤالهم.

نادى وكيل النيابة على العسكري بالخارج لإدخال الشهود، فدخل حمدي وهذا متوقّع، أمّا عن إسماعيل . تشاقل قدماءه، ويعتصر قلبه حسرة وألم، نعم.. فشیطان كحسان أجبره على الشهادة زوراً، لكن.. أمام الله ما الحجة؟ كيف سيبرّر موقفاً كهذا؟ طغى خوفه من حسان على خوفه من الله، أسيفيق قبل النهاية؟ أم سيظلّ حجاب الخوف حاجزاً؟

- أين كنتم يوم الحادث؟

ردّ حمدي في ثقة، فأموال حسان دفأت جيبه وأثلجت صدره:

- كنّا في الشركة.

- هل كان جمال في الشركة حينها؟

- نعم سيدي، ففي ذلك الوقت من اليوم كنت مرافقه أنا وزميلي إسماعيل.. فلدينا بعض الأعمال التي يجب إنهاؤها.

يسأل وكيل النيابة وحمدي يحيب، إسماعيل شاردّ وكأنّ على رأسه الطير، فاجتذب من شروده بسؤال وكيل النيابة:

- يا سيد إسماعيل. أين كان جمال في تمام الساعة الثانية عشرة إلّا ربعا؟

صمّت لوَهلة، الكلمات ثَقيلةٌ على لسانه، يخشى النطق زورًا، خرجت الكلمات زحفًا يحيطها هالة من التوتر.

- كان. ك..كان في الشركة.

خرجت فازداد الثقل في قلبه، لم ينزاح الهمّ كما اعتقد للحظات، بل ازداد وفاض، همّ بالنهار وغمّ بالليل، ستكون لعنة تطارده كالأشباح.

- حسنًا شكرًا، يمكنكما الخروج الآن.

أكمل المحامي كلماته تمهيدًا لخروج جمال:

- ليس هناك ما يثبت أنّ جمال من ارتكب الحادث.

أملى وكيل النيابة الكاتب بجواره "أغلق المحضر من ساعته ويتم حفظ القضية"، ثمّ طلب من جمال الانصراف.

حسّان وزوجته بالخارج ينتظران على أحرّ من الجمر، خرج لهما فهرولا إليه يسألون المحامي عمّا حدث بالداخل.

- مبروك، أغلقت القضية.

تهلّلت أسارير فريال، احتضنت ابنها غير مكترثةً لفتاة تصارع الموت بسببه، فهؤلاء يرون العالم زاوية واحدة تضمّهم فقط، يوتوبيا على الأرض، فالبقية دونهم خلقوا عبثًا، همّ الأسياد وما تبقى شرذمة من الرّعاع.

توغّل جيش مقدنيو بالغابة، أنطونيو خائفٌ مترقّب لأيّ كارثة قد تُلحق بهم، فتشّ حوله بمقلتين زائعتين محدّثًا نفسه "هذا المكان غريب إلى حدّ مخيف".

لم يكن هنري أبهاً به ولا بجيشه، ولا بالمكان نفسه، صمتَ وهلةً وعلى شفتيه ابتسامة ساخرة ثمّ توجه إليه بالحديث:

- أنطونيو قائدُ جيشِ مقدنيو والذّراع الأيمن لأوكتافيوس يشعر بالخوف كالبشر؟! هذا شيء مثير للسّخرية.

ابتسم أنطونيو في ريبٍ ممزوج بغیظ:

- لا أثقُ بك هنري، لكنني أنفذُ أوامر فقط.

تعالَتْ ضحكات هنري.. يستثير غضبه أكثر، استطرد متحدّياً:

- ليس أمامك أيّ حل سوى الثقة بي، أنا أو موتك أنت وجنودك.

- أتدري يا هنري؟

- ماذا؟

- فور انتهائنا من هذه المهمّة، سوف أقتلك.

ارتفع صوتُ ضحكاته أكثر وأكثر.. وكأنّ أنطونيو أطلق على مسامعه نكتة..

- أنت أضعف من ذلك أنطونيو.

- أنت حشرة سآدهسها بقدمي.

- لم أكن أظنك أحق إلى هذه الدرجة.

أخذتُ كاميليا قسطاً من الراحة، فارس إلى جوارها ينتظر معافاة قدميها حتى يستطيعا إكمال الطريق معاً.

- كيف حال قدميك؟

- ارتاحت قليلاً.

أراد مغازلتها لتضحك..

- قليلاً!! ليلة كاملة في هذا المكان وتقولين قليلاً؟!

بادلت تعليقه بنظرة نارية جعلته يتراجع عن قوله:

- حسناً.. حسناً. اهدئي أنا أمزح، علينا إكمال الطريق.

- لكنّ قدماي.. حقاً تؤلماني.

لو انتظر فارس أكثرَ للحقّ بهما الضّرر، لا يعلم ما قد يحدث، فلا شكّ
أنهما مراقبان من الكائنات المجهولة هناك، حاول دفعها للمشي قائلاً:

- تريدان أن أحملكِ إذا.

رفع حاجبيه ينتظر ردّة فعلها التي يدركها جيداً.

- قدماي بخير، سأمشي.. ولمسافات تطول.

تعالّت ضحكاته، يزداد حبّه لها كلّما خرجت هذه الطفلة، سار إلى
جوارها، تأخّرت قدماها فسارت خلفه بعدّة خطوات.. التهي بحراسةِ
الطريق، خرجت بعضُ الورود الحمراء ذاتُ السيقان الطويلة من تحت أقدام
كاميليا تستفزّها للانجذاب، همّت باستشاقها فالتفت فارس سريعاً، صرخَ
فيها قبل أن تمسّها:

- أيتها الأميرة، لا تفعلي.

جذبها من كتفها بقوة، نظر إليها بعينين تشتعلان غضباً.

أفزعها.. نظرت إليه في صمتٍ مندهشة من ردّ فعله، لا زالت أصابعه حول ذراعها تعتصره، حدثته في خوفٍ شاب صوتها:

- ماذا هناك؟ ذراعي يا فارس المتنّي.

لم ترحل عن وجهه نظرة الغضب.. أكمل حديثه في صياح:

- هذه الزّهرات سامّة، ألم نتفق على عدم لمسك لأيّ شيء قبل سؤالِي؟
لمعت عيناها بالدموع، تتحدّث إليه في حزن:

- لم أقصد، نسيت، جذبني شكلها.

سمع نبرتها المختنقة فرق لها، ترك ذراعها مترجعاً وكأنّه قد عاد إلى رشده، لا يصحّ أن يفعل بها ذلك، حاول التبرير بما في قلبه لها، فهو يخشى أن يصيبها مكروه..

- خفتُ فقدانك، افهميني.

- حقاً لم أقصد.

- أعلم، ولكنّ واجبي أن أحميك.

استوقفتها عبارته، لم يكن ذلك حبّاً فيها، لقد كان يؤدّي مهمّة لا أكثر..
يوهمها.

- واجبك؟ أتحميني فقط لأنّه واجبك.

أعطته ظهرها، سارت خطوات تباعد بينها وبينه، لا تريده أن يرى عينيها الحزيتين، يعلم أنّ عبارته ألتها، لكنّه لم ينسَ أيضاً كونها أميرة، درباهما متوازيان لن يلتقيا.. لن ييوّح الآن بما يعذبها غداً.. عليه إخفاء شعوره.

اقترب منها مرتبّاً على كتفها، يناديها في حيرة لا علم له بما يستطيع قوله

تخفيفاً عنها.. لم تجبه، حاول إيصالَ ما في قلبه بشكل مُبهم علّها تهدأ؛ قد تغفر له الذنب الخارج عن سلطته.

- داخل كلِّ منا صندوقٌ أسود، مدفونٌ بالأعماق، نلقي به أسراراً ثقيلة لا تُباح، نواريه بتراب النسيان ولا يُنسى.. علينا أن نكمل طريقنا.

وقفتُ مكانها بعناد، لا تريد التحرك معه خطوةً واحدة بعد الآن، أمسك يدها جاذباً إيّاها، فالدرب لم ينتهِ بعد.

- هيّا بنا.

حاولت إفلات يدها، صرخت فيه:

- اتركني.

- لن أفعل.

- لن أكمل معك الطريق، اذهب بمفردك.

صاح غاضباً:

- أتريد الموت؟

- هذا لا يخصك.

- بل هو شأني، عليّ حمايتك.

- وأنا لا أريدك.

تنهد ثم استسلم للصمت، تأملها في حزن محدثاً نفسه "لكنني أريدك".

قطع حديثهما صوتٌ بالجوار.. وكأنّها حركة ما، أشهر فارس سيفه متأهباً،

حاول تغطية المكان حول كاميليا لحمايتها.. بدأ الخوفُ يعتريها، تحوّل الكائن

الغاضب داخلها منذ لحظات إلى طفل صغير يحاول الاحتباء بمن كان يرغب نأيه بمجرد أن فقد الأمان، اقتربت من فارس:

- أنا خائفة.

- لا تخافي، حافظي على هدوئك.

هدأت الحركة ثم عادت من جديد وبشكل أقوى، ظهر شيء مريب.. يشترك مع البشر بهيئة الجسد وليس بشعر.. جلده أسود مكسو بالشعر.. له أنياب تتدلّى من الفم، لحم وجهه متأكّل كوجه الميت، محروق فروة الرأس.. فتحة فيه تمتدّ إلى مخجريه، لديه مخالب حادة ويخرج من داخله صوت يشبه الزّجاجة، ما أن لمحته حتى تعالت صرخاتها، صاح بها الأخير:

- قلت لا تخافي.

لم يكن بمفرده، معه رفاقه.. ظهروا تبعاً، يحيطون بكليهما، سألتها كاميليا في خوف:

- ما هذا؟

- المسوخ التي أخبرتك عنها قبل أن ندخل هنا.

صاحت في خوف واضطراب:

- كيف أهدأ. كيف أهدأ؟ إنهم يحيطون بنا من كل جانب.

حاول هو الآخر تمالك نفسه، يجمع شتات تفكيره، حدّثها في هدوء:

- الآن اسمعي الخطّة، سأحاول رفعك على التّنين والركوب خلفك

لحماية ظهرك، حاولي الحفاظ على هدوئك.

أومأت برأسها، قام فارس برفعها في خفة لتركب على ظهر تينها، كانت معركة وقت، المسوخ اقتربت على بُعد أقدام منه، لم يكن الوقت كافٍ للحاق بها على ظهر التين، لم تتحرك كاميليا.. متشبثة فيه بناظريها، فصرخ فيها:

— ماذا تنتظرين.. ارحلي الآن لا وقت.

انفرط عقدُ عبارتها وكأنها لا تعي ما يقول، صرخت فيه:

— ما الذي تقوله أنت، لن أتركك.

— لا وقت لهذا الكلام، ارحلي الآن، بسرعة.

هرب التين بكاميليا، عيناها معلقتان بالخلف، ودموعها لا تتوقف.. وقبل أن يخنفي فارس عن أنظارها رأَتْ تلك المسوخ تتكالب عليه، ما عادتُ تراه من كثرتهم.. همستُ باسمه تناديه بصوتٍ بالكِ يكاد يسمع.. توقّف التين بمأمن بعد أن نأى مسافةً كافية عن هؤلاء الوحوش، طأطأ رأسه ليساعدها على النزول.. بجانب شجرة توسّدت، تبكي فارس.. تيقّنت موته، لن يستطيع الهرب من هؤلاء أبداً، كيف ستكمل الطريق بدونه؟ أين ستذهب، كان دليلها ووالدها وخلييلها، لن تستطيع التحرك بدونه حتى لو خطوة واحدة.

فتّشت حولها في خوف، مكانٌ مظلم مُحترق، تشعر بالوهن الشديد، أخفت وجهها بين كفيها، انهمرت دموعها بغزارة، حدثت نفسها بعتاب لروح قد تكون بالجوار "لم تركتني يا فارس؟".

اقترب منها تينها كأنه يشعر بحزنها ويحاول مواساتها، شعرت بشيء ما، ديب يقرب وكأنه أصوات أقدامٍ قطعٍ يعدو، كان جيش مقدنيو.

تذكّرت كلمات فارس والرؤى، همست لنفسها في خوف "الجيش.. لقد أتى"، اختبأت خلف جذع شجرة، أغمضت عينها مرةً تَينِها بالاخفاء، فاخفتى كأن لم يكن.

أمر أنطونيو الجيش بالتوقّف.. نظر إليه هنري في تعجّب يسأله:

- لم توقفت؟

- أشعر بأنّ هناك أحدًا ما.

أدار هنري وجهه متأفّفًا محدّثًا نفسه "ها قد بدأنا".

أمر أنطونيو جنوده بالانتشار والبحث، فانطلقوا منفذين الأوامر، أمّا عن كاميليا فصوت قلبها قد ارتفع تدريجيًّا.. تشعرُ باقتراب خطواتهم منها، وهلات واقترَبَ من مكان اختبائها أحدُ الجنود، تعالت أنفاسها حتى بدا صوتُها واضحًا، وضعت كفّها على فمها لإيقافه حتى ابتعد الجندي، حاولت التأكّد فتقدّمت خطوتين في حذر مُسندة على الجذع فانزلقت قدّمُها، احترق أحد الأغصان اليابسة الحادّة إحدى قدميها ممزقًا لحمها فصرخت ألماً.

حاولت كتمان الصوت ولكنّ فات الأوان، عاد الجندي بعد أن حدّد مكانها يلاحقها، تهرب ولا جدوى فقدّمُها لا تسعفها.. قبض عليها، حاولت التملّص وقبضته قويّة لا يمكن الفرار منها.

تهلّلت أسارير أنطونيو ما أن رأى فريسته الثّمينة بين يدي أحدٍ خدمه، ألقي بها إلى سيّده فارتمت كغزال جريح على الأرض وهنري متابعٌ في صمت، اقترب منها أنطونيو يحدثها مستفزًّا:

- أووه يا مسكينة، ما هذا التّزيّف؟ أجرحت؟!

وجَّهت إليه نظراتها في حنق، قرب كفّه من جرحها ملامسًا إيَّاه بأنامله ثم اخترق بهم الجرح.. يَضْغَط ليصلَ إلى أعماق لحمِها، فتعالت صرخاتها ألماً، وكأنّه منتشيّ بصراخها.. همس إليها كساديّ جائع:

— أيؤلم؟! —

أغرقت الدموع وجهها، لم تجبُ فجرحُ قلبها غطّى على ألم قدميها، فقدت من أحبّت بلحظة، خارت قواها رويداً.. الألم فاقَ تحمّلها، تابعت أنطونيو في وهن، فأكمل حديثه هامساً مقترباً من أذنها:

— خسارة أن تقتل جميلة مثلك، أليس كذلك؟! —

همّ للمسّ خدّها بأنامله ليجدَ سيفاً يفتح جرحاً بكفّ يده، سحب ذراعه متأوهاً ينظر خلفه في صدمة، إنه فارس، صرخ أنطونيو في غضب، فابتسم فارس:

— مفاجأة، أليس كذلك؟! —

— من أنت؟ —

— أنا شبح الموت.

ابتسمت كاميليا من بين دموعها وألمها ما أن رآته، وكأنّ روحها ردّت إليها، عاد الأمان، حملها مهدداً بسيفه من يقترب، كادت تفقد الوعي، فهمس إليها "تماسكي".

أجابته في وهن "ظننت أنّي فقدتك".

أمر أنطونيو بالهجوم عليهما فأحاطه جنودُه من كلّ اتجاه، أسندها فارس إلى شجرة بالقرب، وعاد يكمل التحامه.. تكاثروا عليه ففتح كفّه لتتكوّن البلورة النارية ثمّ دفع بها تجاه الجنود فتطايروا يميناً ويساراً وهمّ البقية

بالفرار، وما أن التفتَ إليها حتى وجدها بين كَفِّي أنطونيو وعلى رقبتها السيف.

- أيّ فعل آخر؛ سأقتلها.

تجمّد مكانه، لا يعرف ما يجب عليه فعله، فنقطة ضعفه كاميليا، ثمّ حدث ما لم يكن في الحسبان.

- اتركها.. وإلاّ قتلْتُك.

قالها هنري مشهراً سلاحه، قيّد أنطونيو من الخلف مهدداً إيّاه بقتله.

- أيها الجبان.

- لا تتفوه بأيّ كلمة أخرى.. اتركها الآن وأمر جنودك بالابتعاد فوراً.

تركها خوفاً من القتل، انهارت كاميليا فاقدة الوعي، حملها فارس وخلفه هنري محاولاً توفير الحماية لكلاهما، ظهرت هالة من النور فجأة ثمّ خرج منها ذاك الفرس المجنّح، نظر إليها فارس متعجباً، تحدث بصوت مسموع:

- إنه الفرس المجنّح الذي قابلناه في الغابة.

انتبه هنري لكلماته.. سأله محاولاً الفهم مع الحفاظ على انتباهه:

- ماذا؟ غابة!

- سأشرح لك لاحقاً، هيّا الآن.

وضع كاميليا على الفرسة، وأمرها بالتحرك لتهرب بها، بينما استقلّ فارس وهنري التّين، مبتعدين تاركين الجيش خلفهم يقاسي الهلاك، لنّ يستطيع أنطونيو التحرك أيّ خطوة دونّ دليل، فهنري كان دليلهم أمّا الآن فلا أحد يدلّهم حتى على طريق العودة.

بأحدِ الأندية جلس سَمير بالقرب من أسماء، صامتًا شاردًا لا يتفوّه بآية كلمة، قطعت شروده منادية إِيَّاه، اجتذبتَه تسألُه في ضيقٍ يوارى:

— ما بك هذه الأيام! تغيّرت كثيرًا معي، أين اهتمامك؟

حدّثته في حزن، فأجاب غير آبه:

— آسف، بعض الأمور عقلي منشغلٌ بها.

— منشغل بها عني أنا؟

نظر إليها صامتًا، ثم عاد إلى شروده يفكّر بكلمات والده.. عليه تنفيذ ما يطلب منه، حتى وإن كان كارهاً له.. حدّثها:

— ما رأيك أن أعرفك بأهلي؟

تهلّلت أساريرها تعبّر له عن مدى سعادتها بذلك، فأكمل:

— تناولين العشاء معنا اليوم، ما رأيك؟

— موافقة.

— حسنًا، تجهّزي وسأنتظرك.

— أغلقت القضية!! كيف؟

عبارةٌ قالها ياسين في الهاتف ردًّا على الشرطي الذي اتّصل ليخبره كَوْن كلِّ شيء قد انتهى.. اسودّت الدنيا بوجهه..

— اهدأ، كما قلت لك.. رجل كحسان لن يترك الأمر يسير هكذا.

— والشهود!؟

- دارت شهادتهم حول سيارة لم يعد لها أي أثر.. جمال الدمنهوري لم يره يومها أحد.. شهادة الشهود لم تكن كافية.

- يا إلهي!

- كما أن حسن الدمنهوري أحضر موظفي الشركة ليشهدوا بأن جمال كان موجودًا في الشركة في وقت وقوع الحادث.

- وما العمل الآن؟ أغلقت القضية هكذا؟! ضاع حق أميرة؟

- سنتظر لعلنا نجد خيطًا آخر يفتح القضية من جديد.

أغلق ياسين الهاتف غاضبًا، الجميع منتظر يترقب، بادر أمجد بالسؤال:

- ما بك يا بني؟

اضطرب، لا يعرف ماذا عليه أن يقول، جلس على أحد كراسي الاستراحة بالقرب، صمت لوهلة واضعًا وجهه بالأرض، تنهد ثم رفع عينيه.

- أغلقت القضية.

صدم، استطرد مستفسرًا، فبدأ ياسين بالشرح، أخبرهم بما رواه له الشرطي بالهاتف، هالة متابعه تستمع في صمت، وكأنّ بركانًا من الألم انفجر داخلها، انهارت باكية فاقترب منها زوجها، ضمّها إليه يهدئ من روعها.

- اهدئي حبيبتي، سنجد حلًا.

أكمل ياسين في تحدّ، وكأنه يعدّ بجلب الحقّ.

- سأبحث عن خيط، لن أترك حسن الدمنهوري يفلت بفعلته.

دخل إسماعيل المنزل على زوجته يجرّ أذيال الخيبة، يموت كمدًا؛ فقد شهد زورًا، كيف سيقابل الله وماذا سيقول له؟ ما مصير هذه المسكينة؟ ضاع حقّها؛ وكان هو سببًا من الأسباب.

كيف سيضع رأسه على وسادته ليلاً، كيف سيخرس ضميره، نظرت زوجته فاحتلّها الفزع.

— ماذا هناك؟

نظر إليها بمقلتين يملأهما الكسرة والألم، وكأنّ الخزي تسلّق ذراعيه فبات ثقيلاً.. ثقيلاً جداً.

— ستظلّ صامتًا؟

جلس على أحد كراسي المنضدة بالصّالة، سقط على الكرسي كمن لا قدم تحته، ساد الصمت لبعض الوقت، جلست زوجته هي الأخرى إلى جواره ترجوه أن يجيبها، قد بدأ القلق يلعب بأفكارها.

— أخبرني ماذا هناك؟ أنا قلقة عليك.

روى لها ما حدث، حدّثها عن الحساب الذي فتحه باسمه حسن محولاً الأموال إليه، تنهّد ثمّ أكمل صمته، تأمّلت زوجته للحظات، وكأنّها تفكّر فيما عليها أن تقول، أعادت على مسامعه ما ردّده قبلاً.

— هناك دائماً طريقٌ للعودة، أنا أثق بك.

تركته لتحضير الغداء، غرق في التفكير، أيقظت كلماتها الهمة في العودة، أيغير أقواله!؟

دخل حسان منزله في اندفاع حاملاً أحد الجرائد، فزعت فريال تسأله عما حدث، لم يجب.. أزاها عن طريقه ثم أكمل حتى غرفة جمال، هرولت خلفه.. ما أن نظر في وجه ابنه حتى صفع وجهه بالجريدة في يده.

- ما هذا؟!

- هذه جريدة من المفترض أن تصدر صباحاً.

- وما دخلي أنا؟

ألقى بالجريدة على سريره، ثم همّ ناهضاً فجذبه حسان من قميصه.. نظر إليه في غضب..

- أتسأل ما دخلك؟ كادت فعلتك تصبح حديث العصر، بسبب غبي مثلك كاد كل شيء يضيع.

اضطرب.. ينظر إلى والده الثائر، وعلى وجهه خليط من التعجب والخوف.

- أنا لا أفهم شيئاً.

تدخلت فريال.. أرادت تخليص ابنها من هذا الشجار، وجهت حديثها إلى حسان:

- ماذا هناك، اترك الولد.

دفع بجمال إلى سريره، ثم صاح بوجهها:

- انظري إلى عنوان الجريدة.. بالخط العريض عبارة تصف الحادث الذي ارتكبه المصون، لولا أن لي رجالي في كل مكان لكننا في عداد الموتى.. رئيس الجريدة قدّم اعتذاراً وأوقف الطباعة بعد أن هدّدته بغلقها.

- حسناً، يعني ذلك أنّ الأمر قد انتهى، لا داعي لهذا.
وكأنّها لا تتحدّث.. التفت إلى ابنه من جديد بالتهديد:
- أقسم لك يا جمال، إذا بدّر منك أيّ أمر؛ سأقتلك. أأنفهم؟ سأقتلك أنا
بيديّ.

خرج من غرفته، أشار لسمير باتباعه، يعلم جيداً ما يريده والدّه منه،
لكنّه بقي صامتاً كعادته.. وكما المتوقع سأله عن أسماء..

- دعوتها على العشاء اليوم كما طلبت منّي.
نادى زوجته فلحقت بهما على مضض، احتلّها التعجّب، فليست من
عادته إن دخل اجتماعاً مغلقاً مع أحدِ أبنائه أن يسمح بدخولها.
- تحضّري للقاء شخصية مهمّة على العشاء اليوم.

- من تكون؟

- خطيبة ابنك سمير.

- ماذا!! خطيبة من؟

- ليس من المهمّ أن تفهمي الآن، ستعرفين كلّ شيء بأوانه.. جهّزي
عشاءً فاخراً، واطلبي من جمال التجهّز.

أومأت برأسها وانصرفت، عليها تنفيذ ما طلبه منها، هكذا اعتادت،
كانوا دميّ ماريونت يحركها حسّان تبعاً لرغبته، لم تحاول الدّمي الهرب من
الخيوط يوماً.

تعلّقت مقلتا ياسين يياسمين، تمّنّى لو يفتح والديها الآن، لكنّ الوقت غير مناسب.

- يجب أن أذهب فلديّ جامعة غداً.

- سأوصلك.

وكأنّ الكلمة جديدة على مسامع الجميع، جذبت انتباه ياسين، فما أن همت سلمى بالمغادرة حتى فرّ محمود من مكانه يعرض عليها إيصالها.

في العادة هو شخصٌ غيرُ مبال، ولكنّ الاضطراب بدا عليه عندما أحسّ بنظرات من حوله..

- ماذا هناك؟

ابتسم أخوه في دهاء..

- لا شيء، عليك إيصالها.

تأمّلها مطولاً قبل أن يدور السيّارة، تعجّبت من نظراته لكنّها لم تعلّق عليها، انطلق.. وما أن وصل إلى مكان بعيدٍ نسبياً عن المشفى حتى بدّل طريق العودة.

- ماذا تفعل؟ هذا ليس طريق المنزل.

لم يتفوّه بكلمة، تابع النظر إليها في صمتٍ ممّا أثار الرعب بقلبها، وصل إلى مكانٍ خالٍ من الناس، ثمّ توقّف.

- لماذا أوقفت السيّارة؟ ماذا هناك؟!

أغلق أبوابَ وشبابيك السيارة أوتوماتيكياً، فحاولت الهرب، تفتح الباب ولا يفتح، صرختُ فيه تأمره بفتحه وهو صامت لا يردّ، بدأت في البكاء فاستطرد متعجباً:

— لماذا تبكين؟

— لأنك تريد الاعتداء عليّ.

— ماذا؟

انفجر ضاحكاً، تكعكع متنهّداً يلتقط أنفاسه من كثرة الضحك، تتأمله من بين دموعها وكأنّها تحدّث نفسها "يا لقلبه الميت.. يضحك لخوفي منه".

— مَنْ قال ذلك؟ كلّ ما في الأمر أنّي أريد أن نكون بمفردنا لأستطيع إخبارك بما أريد، ولم أجد فرصةً لفعل ذلك سوى الآن.

مسحت دموعها، حدّثته باطمئنان:

— أكلّ ذلك من أجل أن تتحدّث معي؟ أخفتني.. ما الأمر المهمّ الذي دفعك لفعل كلّ ذلك.

صمتَ برهةً يستجمع شجاعته لسرد طلبه.

— دونَ أيّ مقدمات، أنا أحبّك وأريد الزّواج منك.

وكانّها لم تستوعب كلماته..

— ماذا قلت؟

— قلت أحبّك، أتوافقين على الارتباط بي؟

صمتت مطوّلاً ولا زال الاندهاش على وجهها، التقطت نفساً للاسترخاء..

- حسنًا. هذا ليس الوقت أو المكان المناسبين للحديث بمثل هذه المواضيع.

بدت عليه الحيرة.. لم يكن هذا ما ينتظره..

- كل ما أريده معرفة رأيك، أتوافقين إن تقدّمت لخطبتك.

ابتسمت بعد صمت لتجيبه:

- ربما.

هدأ قلبه لإجابتها، تهلّلت أساريه، ثم استطرد:

- هكذا يمكننا أن نكمل الطريق.

ارتدت أسماء فستانًا خاصًا لهذه المناسبة، لم تتبرّج بشكل مبالغ فيه، سيكون عشاءً عائليًا، ولا تريد إعطاء انطباع سيئ عنها، فلا يجب أن تُظهر الجانب المتحرّر منها، تتهدى على مهل، ركبت أحد سيارات والدها حيث كان السائق ينتظرها بالخارج، انطلق بها إلى منزل سمير، تفكّر في القادم، تتمنى أن تصل إلى منزله سريعًا متشوّقة للقاء عائلته، وما أن وصلت حتى اتّصلت به لتعلمه بكونها أسفل العمارة.

أغلق هاتفه.. هرول إليها ما أن رآها.. فتح باب السيارة لها ثم ساعدها على الخروج منها، صعدت معه وما أن خطت الخطوة الأولى بمنزله حتى وجدت والدته في استقبالها ترحّب بحفاوة، عرّفها على عائلته.

حدّثتها فريال مدّعية السعادة:

- جميلة أنت.

ادّعت الأخيرة بدورها الخجل، أجابت ببراءة على استحياء:

- شكرًا.

- هذه أمي فريال هانم، وهذا أبي ح.....

قاطعته أسماء متحدّثة:

- غنيّ عن التعريف والدك، تشرفنا.

صمتَ لوهلة يتأمل والده، ازداد غرورًا على غرور، أكمل معرّفًا:

- هذا أخي كجمال.

- سعيدة للقياك.

قطع حديثهم حسن بدعوتهم إلى مائدة العشاء، جلس الجميع.. أسماء تضحك من تلك النكات التي يلقيها، وفريال محاولة إظهار وجه الملاك.. وكجمال متابع صامت، كلّ ما يفعله أن يتبسم، وسمير شارّد يحدث نفسه "ما هذه المسرحية؟ حسن الدمهوري الرجل القوي الجادّ يلقي النكات، وفريال هانم الذي ما رأيت إلّا وجهها العابث؛ تبسم!! وكجمال المكسور الحزين يظهر السعادة لتنفيذ أوامر والده، حتى أنا، أدعي حبّها والرغبة بالزواج منها، وأنا لست كذلك، ولا ألوم إلّا نفسي فأنا من أقحمتها بتركي أميرة لأجلها".

يتأملهم وكأنّه عرض ما.. لكنه لم يكن مستمتعًا على الإطلاق.. استفاق من شروده على نداء أسماء..

- لست معنا.

ادّعت الحزن فادّعى هو الآخر الضحك، لثم يدها اعتذارًا.

- أنا هنا إلى جوارك.

انتهت الأمسية، ودّع حسان وزوجته أسماء بعد أن وعدتها بتكرار الزيارة، أمرت سائقها بالرحيل، أرادت من سمير إيصالها بسيارته إلى منزلها، جلست إلى جواره وكأنّ فراشات باللون الوردي تتطاير حول رأسها، هائمة في الحبّ والسعادة، سألها مكملًا دوره:

- أعجبك الجوّ العائلي.. أليس كذلك؟

ابتسمت بإيماءة فضحك ساخرًا، تعجّبت من ردّة فعله..

- ماذا هناك؟

- أبدًا، لا شيء.

لم تعلق، أكملت معبّرة عن حبّها لعائلته:

- سمير، أنا أحببت عائلتك كثيرًا، أودّ أن أعرفّ أبي بكم.

ما أن قالت ذلك حتى ابتسم في صمت، حدّث نفسه "ها هي خطّة حسان الدمنهورى تسير كما أراد".

التفتت إليه في غيظٍ معاتبة:

- سمير، ما بك؟ ما تفوّهت بكلمة حتى وذهب عقلك بعدها.

- أسمعك، سأنتظرُ ذاك اللقاء.

في غرفة قديمة مهدّمة من الطوب اللبن، على أريكة متهاكة تمدّدت كاميليا، ضمّد فارس جروحها ثمّ جلس بجوار هنري بالخارج لحراستها.. أضرم النار للتدفئة وجلسا بالقرب، بادر بالحديث:

- اقتربنا من نهاية الأرض، المكوث بهذا المكان مرهقٌ جدًّا.

أجاب هنري بنصفِ ذهن، وكأنَّ شيئًا ما استحوذَ تفكيره:

- نعم، أعلم ذلك.

- هل يمكنني أن أسألك سؤالًا؟

اقترَب بكفِّهِ من النار، وقد أومأ برأسه.

- نعم تفضّل.

- لم انقلبتَ على أنطونيو وقرّرت الانضمام إلينا؟

صمتَ وهلة، تأمّله فارس وكأنّه في ترقّب لجوابه.

- لم أكن من البداية معهم، رافقتهم لإنقاذ الأميرة ليس إلّا.

تعجّب من كلماته، فما الذي قد يدفع قويّ مثله لمساعدة شخصٍ دون مقابل، أكمل نقاشه في فضول:

- وما السبب؟

شرد هنري، ثمّ بدتْ على شفّتيه ابتسامة، وكأنَّ الحنين استيقظ في قلبه.

- لأظفر بمن أحبّ.

تعالت ضحكاتُ فارس، فلم يخطر بباله لحظة أن رجلاً مثله يعرف

الحبّ، ظهرت الخيبة على وجه هنري فاعتذر من بين ضحكاته.

- لا تؤاخذني يا هنري، مَنْ يراك ويرى ما كنت تفعله من أجل المال يسيء

الظنّ بك.

أحقّا تحبّ؟

- بجنون.

- مَنْ تكون؟

ظهر بريقٌ بعينه، خرج إيقاعُ اسمها من بين طيّات روحه:
- آن.

- يا إلهي، حقًا؟ آن التي تعمل بالقصر؟
أوما هنري برأسه، لم يترك مجالا للخوض بالأمر.. قطع دهشته بحديثه:
- وأنت يا فارس؟
- أنا ماذا؟
- أنت أيضًا تحبّ؟

وكأنّها صفة ما.. تجمّدت الكلمات على لسانه، لا يدري بماذا عليه أن
يجيب، كيف علم بذلك؟ أبادٍ عليه الأمر إلى هذا الحدّ!

- كنت أراقبك وأنت تقاثل من أجل الأميرة، لم تكن لهفة فارس يمارس
مهامّه، إنّها لهفة محبّ، نظراتُ الغضب بعينيك إلى أنطونيو عندما اقتربَ
منها، ذهنك المشتّت وأنت تقاثل خوفًا عليها، معالم وجهك عندما وضع
أنطونيو السيف على عنقها، هروبك بها؛ كلّ ذلك حبّ، لا يمتّ للواجب
بصلة.

تأمّله فارس في اندهاش، جمع شتات تفكيره محاولاً التبرير، فأصمته
قائلاً:

- من الصعب إخفاء الحبّ أمام محبّ، تفضحك عينك وأفعالك.
قطع حديثهما صوت الأميرة منادية إيّاه، انتفض مسرعًا. همّ بالسير
لتوقفه ضحكات هنري، فالتفت إليه..
- ألم أقلّ لك تفضحك عينك وأفعالك.

اضطربَ خجلاً.. أكمل الطريق للداخل مليئاً نداءها، حاولت النهوضَ
فهُرِعَ إليها، اقترب منها في هدوء.

- لا تتحرّكي، جرح قدمك.

علّقت ناظريها به، ساكنة تتأمله وكأنّها غيرُ مصدقة كونه مازال على قيد
الحياة، وكأن كلّ ما حدث حلمٌ، أمسك يدها هامساً:

- ماذا هناك؟ ما بك؟

انفرط عقد عبراتها، تنهّدت كطفلةٍ انفطرت بكاءً.

- فارس، ظننت أنّي فقدتك، كنت خائفة كثيراً.

استمعَ إليها صامتاً، يربّت على كفّها محاولاً تهدئتها.

- اهديني، لم تفقديني، أنا هنا الآن.

تبكي بشدّة، وكأنّ دموع العالم داخلها..

- لا تتركني مرّة أخرى.

ضمّمها إليه.. حدّثها وأمان العالم بصوته:

- لن أتركك أبداً، اهديني لا تبكي، لن أسمح بأن يمسّك أحدهم

بمكروه.

تركت ذراعيه ثم انتبعت إلى قدميها تحدّثه كطفلةٍ تشكو والدها مصابها:

- انظر..

تعالّت ضحكات فارس ينظر إلى ما أشارت..

- نعم رأيْتُها.

- هذا الرجل الذي يدعى أنطونيو آلمني حقًا.. أنا أكرهه، لو رأيته لصفعتُ وجهه.

ازدادت ضحكائه، فلو كان أمامها الآن لفرّت تختبئ فيه.

- سأقطع ذراعَه التي مسّتكَ بسوء.

- متى سنغادر هذا المكان المخيف؟

- اقترِبا، سنكمل الطريق فور استطاعتك المشي.

- ومتى سأستطيع المشي؟

- سننتظرُ حتى الغد، لا تخافي أنا هنا، وهنري هنا.

- هنري! من هنري؟

- قصّة طويلة، سأتركك لترتاحي، وسأجلس معه بالخارج.

أمسكت كفه عندما همّ بتركها؛ ترجوه إلّا يتركها بمفردها، تنهّد ثمّ توقّف وهلة وكأنّه يفكر مليًا.

- خذني معك للخارج.

- قدّمك مجروحة.

نظرت إليه بعينين على وشك البكاء، فاستسلم لنظراتها وقرّر حملها للخارج، ابتسم هنري فور رؤية كاميليا بين ذراعيه، يحملها كطفلة فقدّمها مجروحة، أجلسها بالقرب من النار، حاول مدّ ساقها في حذر حتى لا تتأذى أو تتألم، والأخير متابع صامت، تذكر "آن".. تشبّث بنظرة كاميليا لفارس، كم تمنّى أن ينال مثلها من محبوبته.

- سمو الأميرة، سرّرت بمقابلتك.

ابتسمت إليه كاميليا:

— وأنا أيضًا.

توسّدت كتف فارس، سألها في رفق:

— مجهدة؟

— قليلًا.

تبسّمت. اقترب منها مسندًا رأسه إلى رأسها، ينعمان بدفء النار، ولا أظنّها النار.. فهذا دفءٌ قلبيهما.

ضلّ أنطونيو وجيشه طريقَ العودة، تائهين في الغابة فقد بدت كمتاهة سحرية، ما وصلوا لنهاية طريق حتى عادوا لبدائته من جديد، أدركهم الاستسلام فتوقّفوا.. حينها صرخ أنطونيو غضبًا أن "تحركو ووا، لماذا توقّفتم؟".. كان سيئ الحظّ حقًا؛ فقد حدّدت المسوخ موقعهم من صدّى صوته، تتبّعت الصوت وبدأت في الظهور تباغًا، ما أن رآهم حتى همس في رعب:

— اللعنة.. ما هذا!؟

صاح في جنوده يأمرهم بالالتحام، التحم الطرفان.. لم تكن قوّة السيوف كافيةً لقتل أشباه البشر، فمن تعثّرت قدماه أو فقد توازنه؛ يُلْتهم التهامًا، التهم الوحوش بافتراس من سقطوا، استغلّ الفرصة أنطونيو فارًّا بمنّ تبقى حتى ابتعد، خسر الكثير من رجاله، في لحظة يأسٍ لاح لأنطونيو طريق الخروج فإذا بأحد جنوده يسأله:

— ماذا سنفعل الآن سيدي؟

أجاب حزينا:

- سنعود.

ازداد حنقا يتوعدّهم: "عندما أراك يا هنري لن يطفئ ناري قتلُك فقط، سأعذبك أنت وحارس المتعجرفة كاميليا"، ثم التفت أمرا جيشه بالتحرك.

خرجت سلمى من قاعة المحاضرات فلمحت أسماء متعلقة بذراع سمير، تقدّمت نحوهما باندفاع.. ألقت بكتبها على الأرض ثم هرولت إلى سمير دافعة إياه بكفيها في غضب، صرخت أسماء من بين اندهاشها:

- هل جُننتِ أيتها الحثالة؟! مَنْ أنت حتى تفعل ذلك!؟

أجابت بعناد:

- الحثالة هي أنت وذاك الغبي معك.

صعقت من ردّها، كيف لإحداهنّ أن تتجرّأ عليها؟

- ويحك، كيف تجرّأت على قول هذا؟

رفعت راحتها لصفعها فأمسك سمير معصمها، وجّهت ناظرها إليه في غضبٍ ممزوج بالدهشة، أنزل يدها طالبا منها الانصراف.

- ماذا؟

- قلتُ لك اذهبي الآن، سوف ألحق بك لاحقا.

رمقت سلمى بنظرة غيظٍ، ثم انصرفت، تابعها الأخير بناظريه حتى تأكّد من رحيلها، ثم التفت إلى سلمى..

- ماذا هناك؟

ضحكت ساخرة.. ثم تحوّلت ضحكاتها إلى عبوسٍ واستنكار.

- أتسأل! لم أرَ في حياتي في جرائتك.

استمع إليها في لا مبالاة وكأنّه ينتظر أن تفرغ جعبتها.

- اهدئي وأخبريني.

صاحت فيه حتى التفت بعضُ المارة:

- دمّرت حياة تلك المسكينة أنت وأسرّتك، ماذا فعلتُ لكم لتفعلوا بها

ما فعلتم؟!!

- اخفضي صوتك.

- ما هذا البرود! كلّ ما تخشاه هو أن لا يلاحظ أحد، أنت بشر!!

تنهّد سمير وتلا تنهيدته الصّمت، وجّه حديثه إليها بنبرة مهدّدة:

- أنا أحاول الحفاظ على أعصابي؛ فلا تستفزيني.

- لا أعتقد أنّ ما يجري في عروقك دم، جرحت مشاعرها، وأخوك كاد

يقتلها، ووالدك داس عليها، تعيشون حياتكم في منتهى السعادة، وهي بين

الحياة والموت مجروحة القلب والجسد.

لم يتفوّه بكلمة واحدة يدافع بها عن نفسه، ربّما لاقتناعه بكلماتها، هو بالفعل

قاتل، وأهلُه جناة، ذنبها الوحيد مشاعرٌ صادقة وهبتها لمن لا يستحقّ.

- غيبي، ولن تتغير يا سمير.

أسندت راسها إلى الأرض، الملمت كتبها المبعثرة متجاهلةً إيّاه، انتهت

ثم أعطته ظهرها راحلة، وضع يديه في جيبه.. لم تتركها عيناه حتى ابتلعها

الأفق، ظهر أدهم، بدا وكأنّه كان مراقباً للمشهد..

- ماذا هناك؟ وكأنكما كنتم تتشاجران.
- لا شيء، دُعك منها.
- فتح هاتفه، يفتش باحثاً عن اسم أسماء، اتّصل بها.. تجاهلته في المرّة الأولى
فأنزل الهاتف عن أذنه متأفّفاً..
- اللّعة على الغباء.
- ماذا هناك؟
- وكانّه يحدّق بالأفق، أجاب في غيظ:
- أسماء لا تردّ على الهاتف، غاضبةٌ بسبب سلمى، الفتيات وعقولهنّ!
تعالّت ضحكات أدهم..
- أتضحك؟
- حال الدّنيا، سمير من يبدّل الفتيات كجواربه، يتّصل بإحداهنّ ولا
تجيبه.
- الأمر لا يحتمل المزاح.
- أكمل من بين ضحكاته:
- آسف، أعد المحاولة علّها تجيب.
- أجابت فسألها متصنّعاً الهدوء:
- لم لا تجيبين؟
- أنا غاضبةٌ منك.
- تجاهل كلماتها.. سألها عن مكانها، فازداد حنقها، تعاتبه في غيظ:
- ما هذا، ألسنت مهتمةٌ بغضبي؟

— أسماء، هلاً جاوبتني الآن.

— أنا بالكافتيريا.

أغلق هاتفه ثم لحقَ بها، انفجر بركانٌ من الغضب داخلها، لامبالاته بمشاعرها قاتلة، ما أن جلس بالكرسي المقابل لها حتى بدأت بالتهكّم.

— هل انتهيت من الحديث مع سلمى هانم؟

تكعكع ممتعضاً..

— لستُ في مزاجٍ جيدٍ للجدال معك.

كادت تفقدُ زمام الأمور، اقتربت منه في دهاء تتدلّل في محاولةٍ لاستجلاب عطفه..

— هكذا يا سمير، أغضب منك أسماء حبيبتك؟

لم يذبّ قناع الثلج عن وجهه، صمت وهلةً فواصلت حديثها:

— كنت في طريقي لمفاجأتك بشيء تريده، ولكنك لا تستحق.

— وماذا يكون؟

— حدّثت والدي عنك، ويريدك أنت وعائلتك لتقضوا يومَ الغد معنا.

ابتسمَ في اتّزان، صمت طويلاً، فأكملت تحاول جذبَ اهتمامه:

— لكّني غاضبة منك.

— ما رأيك أن نتناول الغداء معاً؟

تهلّلت أساريرها متجاهلةً ما حدث، حمقاء تظنّه ملَكًا لها، وهو يتملّك

ما يريد ولا يُملِك..، لم يكنْ أدهم بالبعيد، يشاهد حلقةً أخرى من مسلسل الأغنياء.. يشاهد باستمتاع.

لم يكفّ عقل ياسين عن الضجيج، يؤرّقه ما حدث لابنة خالته، كيف لحق أحدهم أن يضيع بهذه السهولة، بل كيف لأوراق من المفترض أن تكون بأكثر من جهة أن تختفي في غضون ساعات وكأنّ لم تكن، جلس إلى جوار أجدد محدّثه بشأن القضية التي أغلقت.

- لا يمكن أن نترك القضية مغلقة هكذا.

بدت على وجهه علامات الحيرة والضعف، ما بيد الأب لحفظ حق ابنته؟

- وما الحيلة؟

فترّ عزمه وبات على شفا حفرة من اليأس، يعلم ياسين ما يدور بنفس زوج خالته.. أراد طرح الحزن عنه بخيط أمل.. استطرد محدّثه:

- تحدّثت إلى الشرطي.. حدّثني أنّ الأمر مربوط بخيط.. لو ظهر آخر في القضية سوف يتمّ فتحها من جديد وإعادة التحقيق.

- ما الذي تريد قوله؟

- معنا عناوين الشهود وأرقام هواتفهم، لنحاول خلق الخيط.

لم يفهم إلى ماذا يرمي.. لكنّه لم يعلّق على ذلك، سألت عيناه فأجاب ياسين:

- لا داع للحيرة، سأفهمك كلّ شيء لاحقاً.

رفع ياسين هاتفه لإجراء مكالمة مع ذاك الضابط المسئول عن قضية أميرة قبل غلقها، طلب منه أرقام الشهود وعناوينهم.. تردّد في بداية الأمر لما في ذلك من مسؤولية على عاتقه، ولكنّ مع محاولات ياسين استجاب.. وعدّه بالوصول إليها.

أغلق الهاتف، ثم التفت إلى محمود يحدثه:

- في خلال ساعات سأعطيك عناوينَ لبعض الأشخاص، أريد منك مراقبتهم وجمع المعلومات الخاصة بأحوالهم الاجتماعية وعلاقاتهم. تعالَتْ ضحكاته متهمكاً.

- سأعمل مخبراً في آخر المطاف.

بادله ياسين المزاح قائلاً:

- هذا فقط حتى تتخرَّج، بعد التخرُّج حتى هذه ستبحث عنها ولن تجدها.

بعضُ الحقائق لولا السخرية منها لمتنا كمداً.. هناك مواقفٌ علينا مقابلتها بالضحك.. الضَّحْك فقط.



لم يعيش أدهم بمفرده يوماً، كان له والدة تدعى "سماح" تنتظره كلَّ ليلة حتى يعود لها بأمان، على الرغم من عرْبْدته وعقوْقِه لها، سيدة على خُلُق تحشى الله، بعكس ولدها تماماً فقد تطرح الشجرة المثمرة ثمرةً فاسدة، الفساد في بعض الأحيان لا يرتبط بصلاح الوالدين؛ لكنني ألوم عليهما أيضاً، فالجهل بالتربية قد يفسدُ ثمرة الفؤاد، حتى وإن كانت النية صالحة.

الواحدة بعدَ منتصف الليل، طرق سمير بابَ المنزل عدّة طرقات، فتحت له والدته، اتَّجه إلى غرفته فتبعته.

- أكنت مع سمير؟

تابع فتح زرَّ قميصه، لم يعرَ لكلماتها انتباهاً..

- ألم أقل لك من قبل لا تصاحب هذا الشاب، انظر إلى ما أصبحت عليه بسببه!

توقف عن تبديل ملابسه، بنصف جسده العاري تأملها.. ألقى بقميصه غاضبًا إلى السرير مقابله.. حدثها متململاً:

- أليس هنالك بديل لهذه الأسطوانة التي أسمعها منك كل يوم؟
- أنا خائفة عليك.

لأن صوتها، تستجلب انتباهه فهي أم عليها حماية وليدها.
- أنا لست صغيراً.

- أرخ قلبي يا أدهم.

صمت لوهلة ثم أكمل متنهداً:

- لا تقلقي عليّ، أعرف ما يجب فعله جيداً.

- أحضر لك الغداء؟

- لست جائعاً.

خرجت من غرفته وعقلها بعالم آخر، قلقاً من القادم، تشعر بالخوف من المجهول، وأدهم بالداخل عقله مكّس بأفكار لا دراية بنهاية طريق تنفيذها.

دخل سمير على والده بينما كان غارقاً في مناقشة إحدى صفقاته مع ولده جمال.. حدثه بكون الأمور تجري كما طلب..

- استعدّ لخطبة أسماء.

لم يجب والده بكلمة، التفت حيث باب الخروج.. صرخ فيه حسان غاضبًا:

- أسمعت ما قلته لك؟

أعطاه ظهره، ثم ابتسم سخريّة.. أكمل بلا مبالاة:

- ليس مهمًّا أن أسمعك، سأنفذ فقط.

خرج من المكتب، فهمس حسان إلى نفسه "غبي"، ثم عاد إلى إكمال عمله.

ارتفع صوتُ خطوات سلمى وكأنَّ غضبها تركزَ في قدميها فأثقلها، يحفَّ نظرها الأرض؛ شاردة فيا حدث، نادتها ياسمين فرفعت وجهها إليها.

- ما بك؟ وكأنك غاضبة من شيء ما.

- لا شيء.

ساد الصمتُ لدقائق، لم تغادر معالمُ الغضب وجهها، فأعادت عليها السؤال:

- متأكدة بأنَّه لا شيء حقًّا؟

تنهّدت بعينين منكسرتين، لامست جبهتها كتعبير عن الإرهاق:

- تشاجرت مع ذاك الغبي سمير، شخص بلا مبدأ ولا ضمير.

التفت الفتاتان إلى ياسين فقد علا صوته بينما يتحدث بالهاتف.. وكأنَّه مشتّت مضطرب من أمرٍ ما..

- لقد حصلت على العناوين وأرقام الهواتف؛ يمكنك أن تكتبها عندك الآن.

للحظة ظنّ كونها دعاية، لم يفقد الأمل.. لكنّ الخوف كان ينتابه بشأن فشل الأمر، فالأمر خطرٌ وليس سهلاً.

- أنت معي؟ سيد ياسين، أحضرت ورقة وقلماً؟

- نعم.. نعم، آسف سيدي، أنا معك.

أملى عليه أرقام الهواتف، شكره وأنهى المكالمات، أسند مؤخرة عنقه براحته يتنفس الصعداء، وكأنّه غير مصدّق، ثمّ نادى أخاه محمود، فانتصب عموده متنبّها.

- هذه الورقة بها العناوين.. كما اتفقنا.

أوماً برأسه مشيراً إلى فهمه، لم يخبر أحداً بما كان يخطّط له.. ما أن رفع وجهه حتى وجدهم ينظرون إليه بأعين متسائلة، أراد اختصار الطريق:

- بداية، أنا أرى تساؤلاتٍ بأعينكم عن هذه المكالمات، سأبدأ بالشرح قبل طرح الأسئلة.

كنت أ تحدّث مع الشرطي بشأن أرقام الهواتف والعناوين الخاصّة بالشاهدين، لم يتأخّر رغبة في مساعدتنا.. سأرسل محمود للتحرّي عنهما، قد يكون أحدهما مهذّباً من قبل حسن، ربما استطعنا استمالة لتغيير أقواله.

وكانّ اليأس قد تسلّل إلى والد أميرة.. بدا على معالم وجهه، لمح ياسين انطفاء عينيه فردّد يشدّ من أزره:

- سينجح الأمر بإذن الله.

انطفأت النار بعد أن التهمت نفسها، لم يبقَ سوى الرماد وبعض الفحم، هنري وفارس يغطّان في نوم عميق، أمّا كاميليا فتمدّدت على تخت وكأنّه الشوك، تتقلب فيه قلقة متنقلة بين غفوة وإفاقة، محاطة بأربعة جدران مغلقة بطبقات من الغبار الأسود، تحدّثك عن مكان ملعون لم يصل إليه الكثير.

تمدّدت على ظهرها بعد أن باءت محاولاتها في النوم بالفشل، رفعت أجفانها تتأمل السقف، لا يختلف كثيرًا عن باقي الغرفة، فالأسود هو السائد هنا.

تركت مضجعها تتكى على كلّ ما هو قريب حتى خرجت من الكوخ، اقتربت في تباطى من فارس، مالت إليه تحبّط كتفه في لطف.

— فارس، استيقظ.

استفاق يلتقط أنفاسه كغريق يلاطم الأمواج، انتفض في فزع.

— ماذا هناك أيتها الأميرة؟

عقدت حاجبيها، انكسرت نبرة صوتها:

— هذا المكان مُريب، أريد الرحيل منه في الحال من فضلك.

— قدمك لم تشفَ بعد.

حركت عينيها في محجريا يمينًا ويسارًا وكأنّها تفكّر في إجابة تقنعه بالرحيل.. أمسكت ذقنها ثم ابتسمت تحدّثه:

— لن أرحل سيرًا، أنسيت أنّ لدي تنيّا؟

صمت قليلًا، يستمع إلى مبرراتها للرحيل ويتابع حركات يديها التي تنم عن ارتجال كلماتها، رفع حاجبيه بينما قد انتهت ممّا لديها، سألها في ترقّب:

— لم الخوف؟

- لست خائفة.

- بل خائفة.

- لا لست كذلك.

- خائفة.

أجابت بعناد:

- قلت إنني لست خائفةً يا فارس، كلّ ما في الأمر أنّي أريد الرحيل من هنا لأنني لست مرتاحة.

نظرَ إليها مطولاً.. يعلم كونها لا تريد الاعتراف بذلك، قاطعته:

- ماذا أيضاً؟

- لا شيء، سأوقظ هنري لنكمل الطريق.

التفت إلى هنري منادياً عليه في محاولة لإيقاظه، وقفت كاميليا بالقرب تتأمل المكان من حولها تضمّ بكفيها أكتافها كالتي تبحث عن الدفء، قشعريرة ما تتسرب إليها، فلا وجود لغير الأسود بدرجاته.

نهض هنري متوعكاً، أمّا عن فارس فقد حملها لمساعدتها على امتطاء التنين، انطلق بها وأثناهم خلفها حراستها.



الخامس

عاد جيشُ مقدنيو بقيادة أنطونيو يجرّ أذيال الهزيمة إلى مملكة النور، منكسرًا؛ فقد خسر الكثير من الجنود دونَ فائدة، ولم يحقق هدفه المنشود بالقبض على كاميليا ومَن معها، بالإضافة إلى خيانة الدليل الذي كان الأمل الأُوحد في المرور من تلك الأرض.

يسرون في خطّ مستقيم، وأهلُ المدينة على الجانبين متأمّلين، شامتين بحالتهم التي يرثى لها، من بين المتفرّجين كانت كوزيت تشاهدُ كالبقية، دقائق مرّت ثمّ عادت إلى أدراجها حيث القصر لتزفّ إلى "آن" ما رأت.

— ماذا؟!

— كما سمعتِ، لقد عاد جيش مقدنيو.

اضطربت، ضربت على صدرها وكأنّ قلبها قفز من مكانه، سألتها في خوف:

— وهل معهم الأميرة؟!

— لا.. لا أعلم ماذا حدثَ هناك، عددهم قد قلّ، ويبدو أنّهم فقدوا الكثير.

شردتْ وهلة، ثمّ تجمّدت ملامحها.

— ماذا عن هنري؟

— ليس معهم.

انتبهت، انصهر ذاك الجمود، سألت والرّعب تملّكها:

— يا إلهي، هل قُتل؟!

- لا أظنّ، على كلّ حالٍ بعد قليل سيأتي أوكتافيوس وأنطونيوس للملك،
وسنعرف ما حدث.

صمتت "آن" وشردت للحظات، ضمت قبضتها إلى صدرها، حدثت
نفسها بهمس "أتمنى أن يكون بخير".

بين خادومات القصر تقبّع جانيت، صديقة الجدران على حدّ ما أرى،
تتوارى خلفهم علّها تلتقط بعض الكلمات التي ينقلها الهواء خطأً، وذلك
لأجل سيدها إيزابيل.

وقفت إيزابيل تتأمل النهر المقابل للشرفة، فهو يبعد أميالاً عن القصر،
يشقّ الأرض أمام الغابة، على ضفتيه شجيرات قصيرة، شرودها تأملاً له
وكأنه منبع لأفكارها الشريرة.

تكرّر الطرق على باب غرفتها.. أحدهم بالخارج، رفعت وجهها في هدوءٍ
يواري شيئاً ما.

- أدخل.

- مولاتي.

إنها جانيت، ولجت إلى الغرفة.. تتلاحق أنفاسها، وكأنّها انتهت من سباقٍ
عدائين للتوّ.

- ماذا هناك؟

- عاد الجيش.

صمتت لوهلة، لم تلتفت، عقدت ذراعيها للخلف.. بدا وكأنها غارقة في التفكير، عادت لسؤالها:

— وكاميليا؟

— ليست معهم سيدتي.

تقهقرت جانباً منكسة الرأس في تذلل، هدأت من نبرة صوتها خوفاً، التفت نحوها إيزابيل، تأملت طويلاً.. تخفي الكثير تحت هيئة باردة، ثم طلبت منها الانصراف.

أمسكت طرف رداؤها، كالبركان يغلي تحت سطح من الجليد.. تسير في هدوء، خطوة تلو خطوة، كأفعى في الطريق لفرستها، ينقصها فقط الفحيح.

ضربتها إفاقة.. انصرفت عن شرودها ما أن توقفت قدماها أمام عرش مقدنيو، تركت طرف رداؤها.. تعلقت بذاك العقد الملتف حول رقبتها، تداعب حبيبته بأناملها، تجمد مقدنيو يقبض على مساند كرسي العرش، انتظر أن تبدأ حديثها، وصمتها طويل، حتى انقشعت سحابه.

— مقدنيو.

— ماذا هناك؟

— عاد الجيش دون كاميليا.

ظهر الغضب على وجهه، صاح فتردد صياحه في أرجاء القصر:

— ماذا؟

— كما سمعت، تذكر ما قلته لك، كاميليا برأسي ورأسك.

- سوف أقتلهم جميعًا.
- إياك أن تفعل، نحن في أشد الحاجة لأوكتافوس وأنطونيوس، فالحرب القادمة بيننا وبين جيش سليمان، وأنت في حاجةٍ إلى جنودك المخلصين، لا تكن كمن قتل نفسه بيديه.
- تابعها صامتًا، يفكر بكلماتها مليًا.. أكملت:
- أرسل رسولًا إلى أوكتافوس يطلب منه الحضور، ومثله إلى أنطونيوس، اسمع منهما ما حدث.. حاولوا معًا الوصول إلى خططٍ جيدة للقادم.
- سأفعل.

في طريق متعرج تحفه الحشائش المزدانة كان أنطونيوس، حيث يشق الدرب سيرًا لقصر أوكتافوس، وجهه كالحجر وعيناه جامدتان، كالجدار يخفي خلفه أفكارًا تصارع بعضها بعضًا، وراءه اثنان من حراسه يتبعانه كالظل.

وصل إلى باب القصر فأزاح حراسه أسلحتهم في حزم، انفتح ضفتيه العملاقتين، بوابة مطعمة بالنحاس، مُزخرفة بتاريخ مملكة حل عليها الخريف.

وقف أمام أوكتافوس صامتًا بادياً عليه الغضب، من معالم وجهه علم بأن مراده لم يتحقق، سأل وهو يعلم إجابة سؤاله، يخشى سماع الرد ويدفعه بعض الأمل إلى معرفة الإجابة.

- أين الأميرة؟

انسدلت أجفانه، نكس رأسه في إيباءة أوضحت كُون مطاردتها لم تؤت ثمارها.

- كانت بين يديّ، لكن خاننا هنري.
- ارتفع صوت أوكتافوس غاضباً يصيح:
- أكلّ هذه الأيام والعتاد، لتعود لي وتخبرني بخسارتك أمام صعلوك!
- وكان أنطونيو صغيرٌ يتلقّى العقاب، لم يرفع رأسه، عاد محاولاً التبرير:
- سيدي، لقد أمسكت بها، لكنّ هنري تدخل وأنقذها، ثمّ هرب ومعه ذاك الحقير الذي كان يدافع عنها.
- كفى تبرير، أخبرك أنا بمصير كلينا؟ ستقطع رؤوسنا.
- قطع حديثهما دخول أحد الحراس، وخلفه رسول مقدنيو..
- الملك أرسلني لأعلمكما بأنه يريدكما في عجل.
- اذهب أنت، سنحضر في الحال.
- أوما الرسول برأسه مؤدياً التّحية ثمّ رحل، التفت أوكتافوس إلى أنطونيو يحدثه:
- أرايت!! بالتأكيد قد علم الملك بقدوم الجيش دون كاميليا، وسوف يقطع رؤوسنا.
- حاول تهدئة الموقف، همّ بالحديث فقاطعه الأخير:
- ولا كلمة، على وشك قضاء نحبي بسببك أنت وجيشك الفاشل، أمام الملك أتركني أتحدّث، لا أريد سماع صوتك هناك.
- أنكسرت عيناه، أوما برأسه في خزي، ثمّ ساد الصمت، تقدّم أوكتافوس عليه فتبعه.

ما أن وصل أوكتافيوس إلى باب القصر حتى توقف وهلة؛ يتفحصه بعينه يملؤه التردد.. خلفه أنطونيو مستقيم الساقين معتدل القامة، يمسك براحته اليمنى معصمه الأيسر، جامد خارجه، والداخل خائف يرتعد، دار بخلده ما دارَ بخلد سيده، فالاحتمال الأكبر بعد دخولهما من هذا الباب أن لا يخرجاً أبداً، وإن خرجا فسيكونا دون الرؤوس بعد تقطيع جسميهما إلى أشلاء، وإطعامها لأحد الوحوش بالبراري.

دخل كلاهما مطأطأ الرؤوس، وبصحبتهما الصمتُ ليجدا مقدنيو قابضاً على جانبي عرشه.. أردف مقدنيو بالسؤال، وهو يعلم الإجابة جيداً:
- أين كاميليا؟

وقف أوكتافيوس يجمع أشلاء الكلمات، يصارع الوقت بحثاً عن شيء يقال قد يسعفه.

- كاميليا، حقيقة. كاميليا قد.. قد فشل الجيش في إحضارها.

امتلأ البرود، أكمل وكأن ما قد قيل لم يحرك له شعرة..

- ولم قد يفشل الجيش؟

تدلّت رأسه كمن كُسرت عنقه، انخفضت نبرة صوته وسرى بها رعشة ما.

- سيدي، هنري قد خاننا.

صاح مقدنيو معاتباً إيّاه في غضب:

- ألم يكن هنري اختيارك أنت؟!

- نعم سيدي، لم يكن هناك خيار، هو الوحيد الذي على علمٍ بأرض الوحوش.

أكمل الحديث ينهره:

- خسرنا الكثيرَ من أفراد الجيش بسبب حماقتك.

صمتَ أوكتافيوس، بينما واصل الملك حديثه:

- أستطيع إصدار أمر بقطع رأسكما أنتَ وقائد الجيش، ولكنني لن أفعل، أريد تجهيز جيشٍ كبير، بما أنَّ الأميرة ومَن معها هربوا فإنَّ الحرب على الأبواب.

تهلَّلت أساريه بخبر العفو عنه، أو ما برأسه مليئًا طلب مقدنيو.

- سأفعل.

- كونا ممتنين.. انصرفا الآن، ولن أسمح بأيِّ تخاذل، فلتضعا ذلك في حسابانكما.

نفوسُ كدمى الماريونت، تظنُّ القوَّة في الخيوط، ما هي سوى جماداتٍ مسلوَّبة الإرادة تتحرك بالأمر، أسيرة لا ترى القضبان.

بالقرب من أحدِ الجدران التصقَّت "آن"، استمعت إلى ما دار بين ثلاثتهم، قفز قلبُها بين ضلوعها حينما أدركت أنَّ هنري انقلب على مخطَّطهم، لم يكنْ بكاذب، كلُّ ما فعله أنَّه استخدم عقله، دار بخلدِها ما كان عليه وما أصبح، الحبُّ الصادق يُخرج من قلب الشَّيطان ملاكًا، يصنع من الخيال واقعًا، ارتسمت بسمَّةً على شفَّتيها، حدَّثت نفسها "ربما تغير".

لم تكنْ بمفردها فهناك مَنْ كان يراقبها، لسوء حظِّها مرَّت جانيت مصادفةً أثناء سيرها بأحد طرقات القصر، أثار وضع "آن" شكوكها، كأنها تترقَّب معرفة شيء ما، فالجدار له بابٌ مطلٌّ على ساحة العرش، تركت ساقِها للريح، هرولت إلى غرفة سيدتها إيزابيل لتخبرها بما التقطته عيناها.

- هذا ما رأيت سيدتي.
- اعتدلت إيزابيل في مكانها، طلبت منها إحضار آن، أجابت بإيماءة ثم غادرت لتلبية طلبها.
- في هذه الأثناء، كانت "آن" منهمكة في الحديث مع رفيقتها كوزيت، تحدّثها بما استمعت.
- هنري ذهب لإنقاذ الأميرة.
- أجابت كوزيت في ثقة:
- ألم أقل لك إنه يجبك.
- لم أكن واثقة أنه سيفعل هذا لأجلي.
- تحدّثت ممتنة بعينين لامعتين، طارت كفراشة إلى عالم بعيد حتى دخلت جانيت، سقطت على رأسها من أعلى غيمة عندما أخبرتها عن رغبة الملكة إيزابيل في رؤيتها، انطفأ نور وجهها فزاد عبوس الأخيرة، كل منهما يكره الآخر.
- سألت كوزيت:
- وماذا تريد الملكة منها؟
- رفعت جانيت وجهها في كبر، تحدّثت بصوت متهمّك:
- وما درايّتي؟
- ذهبت "آن" برفقتها، ولا تدري في أي شيء قد تطلب الملكة رؤيتها..
- فهذا ليس من عادتها أبداً.

اجتمعت العائلتان في فيلا رجل الأعمال حمدي مكرم، جلسا لتناول الشاي قبل تجهيز الغداء، سحبت أسماء يد سمير تصحبه بعيداً، صعدت أرجوحة بالقرب من أحد الأشجار وطلبت منه دفعها، نادته عدة مرّات، ولكنّه لم يجب، شاردًا مسلوب العقل.

— يا أنت، أين عقلك؟

— ماذا!!

أنقذه نداء الخادمة من الإجابة، حضرت لتخبرهما أنّ طعام الغداء بات جاهزاً.

التف الجميع حول مائدة عليها أنواع شتّى من المأكولات، فتحوا الكثير من الموضوعات بينما سمير يتابعهم صامتاً.. كل وجه من هؤلاء يحمل قناعاً، مجموعة من المنافقين، يدرك كل منهم الوجه الحقيقي للآخر مدّعياً الجهل لأجل مصلحته، قطع شروده السيد حمدي سائلاً إياه مستفسراً عن شخصه، اضطرّ هو الآخر لارتداء قناعه، ابتسم مدّعياً الترحيب.

— أنا طالب، وأعمل مع والدي في الشركة، أحاول التوازن بين العمل والدراسة.

— جميل جداً.

أراد حسن إضافة طابعه المميز، تدخل بادتاً بعدة ضحكات ثم استطرد:
— سمير مجتهدٌ بدراسته ومجدّ بعمله، ومن وقت أن تعرّف على أسماء زاد اجتهاده.

— أسماء ابنتي الوحيدة، بعد وفاة والدتها كنت لها الأب والأم، هي كنزي الوحيد، حدّثني عن سمير، وعن استضافتكم الرائعة لها بمنزلكم.

ابتسمت أسماء، ثم أَلقت ببعض كلمات الإطراء على السيدة فريال، تعبّر فيها عن مدى رَقَّتْها وحنانها، فأجابت فريال بنفاقٍ مبالغ فيه:

- لم أَر في حياتي فتاة في رَقّة أسماء.

بدأ حمدي مكرم الحديث عن العمل، فالأمور العائلية ليست كافية في مثل هذه التجمّعات، الدقائق بأموال، يستغلّون حتى الأنفاس في الكسب.

- لقد سمعت عنك يا سيد حسان، علمت أنك من الروّاد في استيراد وتصدير السيارات.

ابتسم حسان، شابّ صوته الغرور:

- لقد أفنيت عمري في هذا العمل، أعلمُ كلّ كبيرة وصغيرة فيه، وأنوي التوسّع بالمساهمة في مجالاتٍ أخرى.

- هذه مجازفة.

- يا سيدي، التجارة في حدّ ذاتها مجازفة، فما تشتريه اليوم لا تدري ما قد يحدث به في الغد.

بدا على حمدي الاقتناع، فأكمل الآخر مستغلّاً الفرصة:

- سيكون بيننا عقود وأعمال؛ هذا وعد.

- سيشرّفني، أعلم أنك ستكون شريكاً جيداً.. خاصّة أنك لا تحبّ الخسارة كما علمت عنك، في القريب سيكون بيننا مشروع مشترك.

التقطت عينا حسان وجه ولده سمير، فالتفت في لا مبالاة، يعلم أنّ والده سيطلب يد أسماء الآن، بات يفهمه حتى من نظرة عينيه.

- وبهذه المناسبة أودّ طلب يد ابنتك أسماء لابني سمير.

بدت ابتسامة خافتة تحمل نوعاً من السخرية على شفتي سمير، أما أسماء فتهللت أساريرها، تبحث عن عينيه لتتعلق بهما لعلها تقطر سعادة تضاعف سعادتها ولم تجدها، عيناه تائهتان بأعماق عقله، وكأن ما يدور حوله فيلم سينمائي ممل.. يمكن لممثل فاشل توقع أحداثه منذ المشهد الأول.

استوقفهم حمدي:

- لكن..

- قبل أن تكمل كلامك، أعلم أن أسماء وسمير لا زالا صغيرين كما أنهما يدرسان، لكن كما ترى كل منهما يحب الآخر حباً جمّاً، فمن الظلم أن نمنعهما، ابنتك هي ابنتي التي لم أنجبها، وستُجهز فيلا بأرقى المناطق من أجل زواجهما.

تردد.. صمت قليلاً متنهداً وكأنه يفكر بعمق، ثم نظر إلى ابنته، مقلتهاها تتوسّلان.. رقّ قلبه، أجاب في استسلام:

- حسناً، موافق.

ما لبث أن سمع حسان موافقته حتى رفعها بموعد الخطبة.

- الخميس القادم، موافق؟

ابتسم معلناً موافقته، انهالت أسماء عليه بالقبلات، ضمّها إليه طويلاً، فزهرته أينعت وأتى من يقطفها.

عند المفترق، زقاق ممتد على جانبيه بيوت متراصة لا يتعدى الواحد منها الأربعة طوابق، متهاكة تروي قشورها ما عفا عليه الزمن.. توقفت سيارة

جذبت أعينَ المارّين، كلّ يعرف الآخر هنا، من الصعب أن يدخل غريبٌ هذا المكان ولا يُدرِك.

خرج منها محمود متّجهاً حيث محلّ البقالة أسفل بيت إسماعيل، تابعه البائع مذ أن توقّفت سيارته حتى دخل بقالته.. همسَ إلى نفسه "مَن هذا الغريب؟ ولماذا أتى إلى هنا؟".

— أنت السيد حسن؟

عقد حاجبيه ثم سأل معاتباً:

— مَن أنت، وماذا تريد؟

خلع نظارته السوداء كرجلٍ يعمل بأحد الأجهزة المخبراتيّة للدولة، نظر مباشرة في جمود إلى عينيه.

— ليسَ هناك أيّ مصلحة لك في أن تعرف.

بدا على وجهه الاضطراب، فانتهاز محمود الفرصة يطرق على الحديد وهو ساخن.

— ماذا تعرف عن المدعو إسماعيل المقيم بهذه العمارة؟

— أفعل شيئاً؟

— أجب دون أسئلة، أنا مَن أسأل هنا.

— لم أشهد منه إلّا الخير.

— ماذا عن أحواله الاجتماعية؟

— وضعه المادي غير متيسّر.. رجل مسكين.

استوقفه بحديثه لكونه سيجري مكالمه، أعطى ظهره للبقال مبتعداً نسيئاً حتى لا يسمعه، اتصل ياسين فهو الآخر منتظرٌ على أحرّ من الجمر، أجاب متلهفًا:

- كيف جرت الأمور؟
- المدعو حمدي لم أسمع عنه كلمة طيبة واحدة.
- والآخر؟
- بعكسه تمامًا.. لكنه يمرّ بضائقة مالية.
- أظنّ أنّ حسنَ الدمنهورى قد هدّده.
- ربها، ماذا ستفعل؟
- عندما تعود ستفهم كلّ شيء.
- التفت محمود إلى البقال، رمقه بنفس النظرة الجامدة، ثم ارتدى نظارته مكملًا دوره ورحل.

أمّا عن ياسين فالتفت مبتسمًا.. سأله أجمد عن سبب ابتسامته.

- أرسلت محمود للسؤال عن المدعو إسماعيل، كنت أبحث عن نقطة ضعف لأحد الشاهدين لاستجلابه منها، وإسماعيل مطابقٌ لتوقعاتي، محمود اتصل بي وأخبرني ما قد رُوي له بشأنه، وعلى ما أتوقع حسنَ قد هدّده بشيء ما، وطالما أحواله المالية ليست جيدة فهذا يعني أنّه ضغط عليه بلقمة عيشه.
- الحياة قد لا تكون عادلة، لكنّها في الغالب تترك لك الخيار.. قد تختار دربًا ليس لونك مجبرًا، وبعض الفرص في الرجوع تكون هديةً ما.. هدية إمّا أن تستغلّها أو تتركها تمضي، ومضيها أبدًا لن يحمل الهباء.

بعد أن انتهى أحمد من متابعة عمليّات أميرة الحيوية كما يفعل يوميًا، جلس إلى جوار سريرها، غاصّ بغيابات غيبوبتها العميقة، يحبّ استراق لحظات لتأملها.. أتدري ذاك الشعور؛ أن تكتمل بالقرب من شخص ما.. تحبّ أن تراه لسكينة تمتدّ إليك.. هذا ما كان يحدث عند اقترابه منها، وكأنّه ذرة غير مستقرّة وسكنت.

حدّثها وكأنّها تستمع لكلماته:

- يبقى الورد فوّاحًا وإنّ ذبل، رغم انطفاءة ملامحك.. أرى وهجَ روحك بوجهك النائم.

ابتسم ساخرًا ثمّ أكمل..

- عجيب أن يكون أوّل لقاء لنا وعيناك مغمضتين، والأعجب أن أحبك دون حديث مسبق بيننا، لا أدري كيف سيكون لقاءنا عندما تعودين إلى واقعك، أنتظرُك وبشغفٍ فلا تستمرّي في البعد عن هذا العالم مدّة طويلة. تأملها مطوّلًا، فم صامت وعينان لا تكفّ عن الثرثرة، ابتسم ثمّ ترك غرفتها..

لم يكن بمفرده، فعينا ياسمين تتبعانه.. تراقب من بعيد، تشاهد تحرّكاته وردود أفعاله وابتسامات، لم يكن يبتسم سوى بجوارها.

لوهلة وردَ إليها فكرة إعجابه بأختها، سرعان ما تراجعَتْ عنها، فكيف لأحدهم أن يتعلّق بشخص ما لم يحادثه يومًا!

أمرتبطُ الحبّ بالماديّات؟ أمرتبطُ بالروحانيات؟

لم يرتبطُ يومًا بأيّ حالة، يأتي في أيّ وقت دون سابق إنذار.

قد يطرق أحياناً بابَ القلب، وأحياناً أخرى يدخل دونَ طرق، فهو ذاك الضَّيف الثقيل، الذي عذَّبنا بوجوده ولا يمكن العيش دونه.

استلقى أدهم على سريره أثناء التحدُّث إلى صديقه سمير، شابَّ الألم موجاتِ صوته، حزيناً بشأن الخطبة التي أعلنها والده، وكأنَّه قطعة أثاثٍ اشتراها من متجر التَّحف، لا حقَّ لها في الاعتراض إن بيعت أو ظلت.

- حفلُ الخطبة الخميس القادم.

- والدك طلب يدَها؟

- نعم.

- ألسْتَ سعيداً؟

- لا فرق، أنا أقوم بتنفيذ أوامره فقط.

- حاول أدهم طرَحَ الضيق عن صديقه؛ فسأله مازحاً:

- هل أنا من المدعوين؟

- أتمزح!! بالطبع، فأنت صديق الدَّرب.

- تعالت ضحكاته ثم ردَّ ساخرًا:

- درب الأخلاق والقيم.

- بمناسبة الأخلاق والقيم، هناك فتاتان ستعجبانك كثيرًا، سنسهر معًا،

ما رأيك؟

أجاب الأخير بجديَّة كمن سيخرج للجهاد:

- معك يا رفيق، معك.

ضحك سمير نافضاً غبارَ الحزن عن عاتقه، فحتى وإن حاولوا ربطه
بواقعهم المر.. سيحاول الهرب وإن سلك الدرب الخاطيء.

ما أن لمح حسن البقال طيفَ إسماعيل حتى ناداه، كان عائداً من عمله
مرهقاً كعادته.. التفت إليه ملبياً نداءه في اضطراب، فنبرةً صوته المتلهفة
ليست مطمئنة.

- نعم يا حسن، أهنأك شيء؟!

فتش في الطريق بعينه يميناً ثم يساراً يبحث إن كان هناك من يراقبهم، ثم
همس إليه "ادخل، أريدك في أمر ما".

تسرّبت رعشة ما بأطرافه، فهذا عامُ المصائب على ما يبدو، نبرةً صوت
جاره لا تنم عن خير أبداً، اتسعتا حدقتاه وترقّبت أسعاه، جلس على كرسي
من الخرزان داخل المحلّ كالّي دون حركة.

- ماذا هناك؟

قالها وكأّته منتظر مصيبةً ما، خفض حسن من صوته:

- لقد أتى إليّ بالأمس شابّ وسألني عنك.

ازداد خفقان قلبه.. شعر وكأّ هناك ما ينتظره..

- سألك عنّي أنا!! من هذا، وماذا يريد منّي؟

- لا أعرف، يبدو وكأّته رجل مهمّ، لكنّته وملابسه الثمينة، أخبرتك

حتى تأخذ حذرك.

صمّتَ إسماعيل قليلاً، تحدّث في ضعف يعقبه استسلام، وكأنّه يشكو حاله:

- أنتَ تعرفني جيداً يا حسن، بيني وبين الجميع كلّ خير، ولا علاقة لي بأحد.

- اهدأ يا رجل، وازمِ أحمالك على مَنْ خلق الخلق، سيكون كلّ شيء بخير بإذن الله.

قالها مهوَّناً، أوماً الأخير برأسه ثمّ أدار ظهره وخرج، تتصارع الأفكار بعقله تتزاحم، تسري كالسمّ بأعصابه.

دخل ياسين إحدى الحارات ثمّ ركن سيّارته وخرج منها، ولجّ إلى بيت قديم مكوّن من عدّة طوابق جار عليه الزمان، فالرطوبة أكلت طلاءه، أمّا عن بابه فقد بدا مهلهلاً وكأنّه وجبة دسمة للسوس.

صعد السّلم.. طرق عدّة طرقات على باب شقة لا تختلف كثيراً عن المنزل من الخارج، فتحت له امرأة متوسطة الطول، ترتدي شالاً حول رأسها، تأملته في تعجّب ثمّ استطردت:

- كيف أخدمك؟

- شقة أستاذ إسماعيل؟

- مَنْ أنت؟

- يبدو أنّك زوجته، أريد زوجك في خدمة، هو لا يعرفني، هل هو

موجود؟

قاطع إسماعيل حديثهم مُستفسراً من الدّاخل بصوتٍ عالٍ:

- مَنْ يا أمّ طه؟

اقترب من الباب، تردّد وتراجع خطوة ثمّ تجمّد مكانه، فمنّ هذا وماذا يريد؟ لاحظ ياسين فدخل في صُلب الموضوع لينهي هذه الحيرة التي في أعين الجميع.

- أريدك في أمر، فهل لي بخمس دقائق من وقتك؟

أوماً برأسه، ثمّ سمح له بالدخول، تبعه ياسين، بينما دخلت زوجته إلى المطبخ لإعداد الشاي، غرفة الضيوف جدرانها قديمة يتساقط منها طلاؤها، بها ثلاثُ كنباتٍ اسطنبولي، ومنضدة مستديرة صغيرة عليها ملاءة مخطّطة.. استقلّ ياسين إحداهن، ما أن جلس حتى خرج صوتُ احتكاك المسامير القديمة بالخشب، كعظام رجلٍ عجوزٍ جفّت وأخشوشنت.

بادرَ إسماعيل بالحديث يسأله عن الأمر الذي حضر لأجله، لم يتأنّ ياسين، فقد وجد أنّ الدخول في صلب الموضوع هو الحلُّ الأمثل، فالمقدمات تزيد الأمر توترًا وسوءًا في المواضيع المعقدة.

- أنا ابن خالة الفتاة التي دهسها جمال الدّمهوري بسيارته.

انتفضّ ما أن سمع هذه العبارة، بردت أنامله فبدأ بفرك كفيه توترًا، هداً ياسين من روعه:

- لم آتٍ لأعرّضك للأذى، نحن لدينا خبرٌ أكيد بأنّ جمال من ارتكب هذه الفعل، للأسف اختفى كلّ شيء قبل بدء التحقيق.

بدا على إسماعيل الاضطراب.. شعرَ بالخزي، خرجت الحروفُ من بين شفتيه زاحفةً متقطعة، لا يعلم ماذا عليه أن يقول بعد ما قد فعل، استوقفه الأخير في محاولةٍ لاستجلاب عطفه:

- أعلم أنك رجلٌ تخشى الله، كلُّ ما أطلبه منك أن تشهدَ بالحقيقة من أجل تلك المسكينة التي بينَ الحياة والموت، هل هددك بشيء؟ صمتَ طويلاً.. لمعت عيناه بعبرةٍ قلق.. يريد الحديث ولكنه يخشى المجهول..

- من فضلك حاول مساعدتي.

- أنا عندي أطفال يحتاجونني، لو ساعدتك سأشرد عائلةً بالكامل وأهدم مستقبلها.

- أتخشى المخلوق، والخالقُ موجود!؟

تأثّر، فكلمة الله هزّت أركانه، يهرب من ألم ضميره، وأتى ياسين يضعه في مواجهة معه.

- سأتركك تفكر، هذا عنوانُ المستشفى الموجود فيها أميرة ستجدي هناك، متأكد من أنك لو نظرتَ لوجهها النائم؛ لما تردّدت في الشهادة لصالحها بالحقّ، وهذا رقم هاتفي.. سأنتظرك يا سيّد إسماعيل.

همّ بالانصراف، فاستوقفته أمّ طه بدخولها المفاجئ تحمل كوبيّن من الشاي.

- الشاي؟

- سنشربه مرّة أخرى إن شاء الله.

رحلَ تاركًا إيداه يلاطم بحر أفكاره، وضعت زوجته صينية الشاي ثم جلست إلى جواره..

- ماذا حدث؟ مَنْ هذا، وماذا يريد؟

ارتدت ثوب الصمت، ثم مزّقتة تسأله عما ينوي فعله، حيرة تملؤه.. مشّت، ممزّقة، لا يعرف ماذا يقول، أمسكت راحته تداعب أنامله في رفقس مهوَّنة، فرفع مقلتيه إليها، حينها بادرت قائلة:

- الله لن يضيعنا.

نظرة طويلة مكّلة بالصمت، وحيرة تتأرجح بغيابات صدره.
في بعض الأحيان، عليك الاختيار بين اثنين أحلاهما مرّ، تلعب الأقدار على جوانب حياتك، تحاصر بك بخيبات الأمل، تفقد العزير والأعزّ.
تمشي على درب مفروش بالشوك معصوب العينين، تائهاً تتخبّط، فحتّى البياض يضطرب ويتبدّل من صدمات الأيام.

جلست إيزابيل في صمتٍ تتفحص "آن".. صمتها الطويل داءٌ للقلق، لم تبدِ "آن" ما بثناياها رغم الرعشة التي تسري بعروقها، تنهّدت سيدتها، ثم رفعت وجهها قائلة في برود:

- رأئك جانيت وأنتِ تنصنّتين على حديث الملك، لم كنتِ تفعلين ذلك؟!

أخفت انفعالها؛ فإيزابيل امرأة ماهرة، تشم رائحة الخوف على بُعد أميال، والأخيرة على علم بذلك، أجابت في ثبات:
- سيدتي، لم أفعل.

تبدّلت معالم وجه جانيت إلى الاعتراض، فلو صدّقت كلماتها لأمرت
بإلقائها في السّجن.

- جانيت لا تكذب، ماذا تعرفين عن هنري؟

زفرت جانيت في راحة، أجابت "آن" بنفس الثبات:

- لا أعرف عنه شيئاً، أنا لم أقابله في حياتي حتي..

تعالت ضحكاتها، ثمّ عادت إلى هدوئها، تنظر إلى عيني "آن" لتشير
توتراها:

- أألك كنتِ تنصّتين لمعرفة أخباره؟

- لم أفعل، لقد كنت واقفة هناك بالصدفة.

لم تزح عينها.. وكأنّها تنتظر لحظة ضعف لتتقضّ فيها عليها، ساد
الصمت.. طلبت منها الرحيل، توجّهت بالحديث إلى جانيت الواقفة في
تدلل:

- كوني لها كظلاً.

ابتعدت "آن" بشكل نسبي عن غرفة الملكة، نظرت خلفها في حذر ربما
أحدهم يتبعها، ما أن اطمأنت لكون المكان آمناً حتى هرولت إلى المطبخ..

انتبهت كوزيت..

- ماذا حدث؟

تتابعت أنفاسها وكأنّ أحدهم يلاحقها، جلست على أقرب كرسي،
تنهّدت واضعة كفّها على صدرها...

- وقع قلبي، سألتني عن هنري.

- يا إلهي! وماذا فعلت؟
- حاولت التماسك والحديث في هدوء، لكنني كنت أذوب خوفاً من أن يكشف أمري.
- احذري منها "آن".
- أحاول كوزيت، فلو علمت أن هنري يحبني وذهب لإنقاذ الأميرة من أجلي؛ ستقتلني.
- التقطت أذنا جانيت آخرَ عبارة عند دخولها المفاجئ للمطبخ، حظّ سيئ.. لم تتمهّل، سابقت الزمن لتصل لغرفة الملكة وتخبرها بما سمعت.
- ازدادت زرقّة وجهها رغم سطوحها الهادئ، صرخت مناديةً حرّاس القصر تأمرهم بالقبض على "آن" وإلقائها بالسّجن القابع تحت القصر، خرجت من غرفتها متّجهة حيث مقدنيو، ما أن سمع ذلك حتى ثارت ثورته، صاح في غضب:
- سأقتلها.
- ترك عرشه وقد همّ بالنهوض، أوقفته إيزابيل:
- إيّاك أن تفعل.
- تباطأ.. استسلم لكللماتها يحاول فهم ما تقصد، بدأت يبخّ سمّها:
- إن قتلها ستخسر ورقة هامة، فلنستخدمها نقطة ضعف لهنري.
- هدأ يفكّر في كلماتها ملياً..
- وماذا نفعل الآن؟
- أنا من عليّ الآن الفعل.

تركته على عرشه، ثم اتجهت نحو أسفل القصر وخلفها اثنان من الحرس،
فُتح باب السجن ما أن لمحوها قادمة.

جدرانه صخرية وكأنه نُحت في قلب جبل، تنتشر فيه المصابيح ذات
الفتائل الكيروسينية، طريق طويل على جانبيه أبواب حديدية لزنازين
يجرّسها جلادين.

"آن" منكمشة بإحداهنّ، خائفة تنتظر مصيرها المحتوم، فُتحت زنانتها
ودخلت الملكة، أمرت الحارس بغلق الباب، تسير أمام عينيها ذهابًا وإيابًا
يتهشّم الحصى تحت نعلها فيرفع صوت نبض "آن"، توقفت ثم التفتت
إليها.

— ماذا تعرفين عن هنري؟

أجابت بإصرار:

— لا أعرف عنه شيئًا.

صفعتها إيزابيل، تمزّق لحم شفتها السفلى حينما اصطدم بأحد أنيابها إثر
الصفعة فنزف الدم، سقطت على الأرض من شدّتها، وأصابع إيزابيل على
وجتها كالأثر في الرمال تبرز كثيرًا من الكره والحقّد.

اصطكّت أسنانها في غيظ.

— أعلم أنّك نقطة ضعفه، وستكوني أيضًا طعمه الذي سيستدرجه،
أعدك عند قدومه سأذبحك أمام عينيه ليتعذب ثم أذبّحه.

استمعت "آن"، حاولت التماسك مستندة إلى الأرض، ضحكت في
سخرية.

- الملك سلهان هو ملك المملكة وابنته كاميليا وريثة العرش رغم أنفك وأنف زوجها.

جنّ جنون إيزابيل.. صرخت منادية السّجان:
- عذّبا دون قتلها.

تركها بين يدي الزبنيّ، جرّها من ذراعيها وثبّتها على الحائط، علق راحتيها وقدميها بأساور من حديد، ربط سلسلة سميكة حول جيدها، ثمّ قام بقطع ثوبها من الظّهر، وبسوط رفع يده ليجلدها.. تعالت صرخاتها، تتالت الجلادات على ظهرها حتى فقدت الوعي من الألم.

عندما يتدارك اللبّ والفؤاد الحقيقة، يتغيّر قلب النفس، فتأبى أن تُسلم لباطل، فرفع راية الظلم حينها كفقد الجسد وموارثه خلف الثرى، كلاهما يُفقد الحياة.

ولذلك تتمسّك "آن"، لذلك لم تُسلم روحها رغم الألم والتنكيل، ورغم علمها الجيد بأنها قد تلقى حتفها في النهاية.

خشيت كوزيت على "آن"، تعرفهم جيّداً، قد يقتلوها في أيّة لحظة، قرّرت الوصول إلى إحدى ساحرات المملكة اللاتي لا يعرف عنهنّ الملك، أقواهنّ تدعى "كارين".

اشتهرت بالسّحر الأبيض والتسخير، تعيش بكوخ صغير بقلب الغابة بعيداً عن العامة، عجوز أبدعت بمجالها، ركّزت على تسخير الكائنات فضلاً عن باقي الفروع المرتبطة بالسحر.

طرقت كوزيت باب كوخها، بينما كانت تجلس أمام مدفئة ملقى بها عدة أخشاب تعود إلى القرون الوسطى، تعجبت كارين، لم تعتد على زيارة أحدهم في ذاك المكان وخاصة في ذاك الوقت، فتحت باب كوخها في حذر لتجد أحدهم يغطيه رداء لا يبرز منه الشعرة، مغلف من الرأس حتى أخمص قدمه، تساءلت في تعجب:

— مَنْ أنت؟ وما الذي أتى بك في ذاك الوقت؟

لم تدرك كونها فتاة سوى من صوتها..

— سيدتي أدخليني وسأروي لك كل شيء، لا أريد أن يرانا أحد.

— تفضلي.

فتشت كوزيت بصرها المكان من حولها، قديم جداً.. مدفون بالغبار والأتربة، وكأنه هُجر لسنوات، ما تحركت خطوة حتى وجدت جيوشاً من الحشرات تحت قدميها، شعرت كارين بنفور كوزيت للمكان فاعتذرت..

— لا تتعجبي يا صغيرة، فأنا عجوز لم أعد أقوى على أن أقوم بخدمة نفسي، الآن أخبريني مَنْ أنت؟

رفعت كوزيت الرداء عن وجهها، أجابت في هدوء يشوبه حذر:

— أنا خادمة بقصر الملك مقدنيو.

ما أن تفوّهت بعبارتها حتى تبدلت ملامح كارين من الهدوء للغضب، لم تترك كوزيت فرصة للفهم الخاطئ فأكملت بسرعة:

— أرجوك، لا تسيئي فهمي، اسمعيني وستدركين سبب قدومي إلى هنا.

أومأت برأسها تاركة مجالاً للشرح، بدأت كوزيت بسر ما حدث

بتفاصيله، والأخيرة تستمع في صمت حتى انتهت من حديثها.. كلل السكوت الموقف لدقائق.. غرقت كلتاها في الشroud، بادرت كارين بقطع الصمت:

- ما المطلوب مني؟

- أعلم أنك بارعة في السحر والتسخير.

- إذًا..؟

- أريد منك تسخير مخلوق صغير يستطيع الاختفاء والتعرّف على مكان الأميرة لأرسل لها رسالة بشأن "آن"، لربما استطاعوا التصرّف والقدوم قبل أن يقتلواها.

دأبت ذقنها تفكّر، صمتت لوهلات.. بدا عليها التردّد؛ فالأمر يحمل المخاطرة، قد ينكشف أمرها.. هكذا تشدّ إليها الأنظار.

لاحظت كوزيت الحيرة بعينها فتوسّلتها، صديقتها ستقتل إن لم تساعدوا، لم تستطع كارين مقاومة ضميرها فطلبت منها أن تتبعها.

وقفت عند باب قديم يطلّ على غرفة سرية أسفل الكوخ معباً جوّها بالرطوبة والغبار الناعم، ما أن سارا خطوة حتى سمعا تهشّم فتات الأخشاب تحت قدميهما، وصلا إلى ركن قديم يحمل مكتبة صغيرة مملوءة بكتب أغلفتها من جلد الماعز المدبوغ، أحجامها كبيرة تحمل رسومات وكلمات غير مفهومة، سحبت كارين أحد الكتب، منقوش على جلده صولجان، فتحتّه بعد عناء- ثقيل جدًّا-.

سحابة من الغبار اندفعت بالمثل والأنوف، أصابها سعال، هداً بهدوء ذرات الغبار، نفضت كوزيت التراب عن رداها بينما التهتّ كارين بالبحث في الكتاب عن ضالتها.

— ها هو، وجدته.

انتبهت كوزيت لما تفعله، فقد توجّهت إلى حامل على عاتقه بلورة، علّقت إلى جواره الكتاب، تنتقل بين صفحاته في تركيز ثمّ عادت بناظرها إلى البلورة، همهمت بعدّة كلمات غريبة النطق ملوّحة بكفيها، خرج ضوءٌ شديد من البلورة تشكّل في هيئة كرة بيضاء، ثمّ عاد للاختفاء رويدًا.. خرج منه عصفورتان ذاتا لونٍ سماوي، وقفنا على إبهام كارين فتبسّمت، ثمّ بادرت بالحديث:

— هاتان ستكونان بمثابة المرشد لك، منبّههما سحر نقي، مخلصتان، وستوصلان الرسالة في وقت قياسي، تجيدان الاختفاء والتصرّف.

انصرف انتباه كوزيت لرؤعتهما، حتى كادت تنسى سبب قدومها، فأكملت كارين:

— حدّثيهما عن رسالتك، وسينجزان المهمّة.

— شكرًا لكِ سيدي، قدّمت لي خدمة العمر.

أومأت كارين برأسها مرحّبة، أمّا كوزيت فبدأت بالهمس إلى الطائرين، تحدّثهما عما يجب أن ينقلاه، فرحلا لتنفيذ ما طُلب.

وقف الثلاثة عند مخرج أرض الوحوش ينظرُ كلّ منهم للآخر، وكأنهم غير مصدقين الوصول لهذه النقطة، نهاية الجحيم.

المخرج عبارة عن بوّابة من الزهور الحمراء، لها سيقان طويلة تشابك مكوّنة حاجزًا كثيفًا، يخترقه ما بالخارج من أشعة الضوء.. تنحّت الزهرات

عندما شعرن بخطوات أقدامهم، وفي افتراقهنّ نزع يسيل من أثره الدماء..
مشهد تختلط فيه القسوة بالروعة، علّقت كاميليا بينها تشاهد المنظر.

- مؤلم، ورائع.

ابتسم لها فارس، علّق ذراعها بذراعه متقدّمًا، صاح بصوت مسموع
وكأنه فخور بنجاحه..

- نهاية الأرض.

بادلته الابتسام.. سحبت ذراعها متقدّمة عليها في الخروج، وكأنهما
كوكبان متفرقان.. لفظها الظلام إلى النور، أرض خضراء ممتدّة على مرمى
البصر حتى الأفق، تفرشها بحيرات على بقع متفرقة، تنتشر فيها الطيور
وحیوانات بريه تعدو بالقرب.

داعبت نسيمات الهواء الخفيفة أجسادهم، تحت شمس دافئة لا تحرق، لم
يرفع فارس عينيه عن كاميليا، يتابعها كأب يراقب طفلته.

- فارس، انظر، ما هذا المكان؟

قالتها ضاحكة، يحمل وجهها مقلتين تنضحان حيوية.. يملأها الحماس.

- أرض الفردوس، منزلنا قبل الأخير في الطريق للجيش.

وقفت تستمع إليه، ثمّ سألته في ترقّب:

- وماذا سنفعل هناك عندما نصل إليه؟

- سنعود بجيش كبير لننقذ الملك من الأسر.

كمّن استعادت وغيها، اتسعت مقلتاها. أسيّمرون بأرض الوحوش مرّة
أخرى؟ فحياة ثلاثتهم كادت تهلك، أيلقون أنفسهم بطوفان يصعب النجاة
منه.

— أسنمّر من هذا المكان المخيف مرّة أخرى!؟

— لم الخوف؟ أريدك أن تثقي بقدراتك، ما زال هناك الكثير الذي لا تعرفينه عن نفسك.

سأعلمك كيف تستخدمين قواك، سنمّر من هناك بأمان وبسرعة كبيرة جدًا، سترين.

أومأت برأسها، عليها أن تثق به.. مرّرت إليه ما تحمله من مخاوف.. لديها من يحمل عنها قلقها، يهتم بها.. لم قد تقلق؟!!

استعادت حماسها، ركضت كفراشة ولجت من شرنقتها للتوّ، كلماتها أحاطتها بهالة من الأمان، اقتربت من البحيرة، تغرف بكفّها من الماء العذب، تتعالى ضحكاتها نائرة المياه لأعلى فتسقط على وجهها كالطر، تأملت انعكاس صورتها بالمياه، لم ترها منذ مدّة طويلة.. أطول من أن تتذكّرها، حدّثت نفسها "حالتي يرثي لها، أصبحت كالمتشرّدين"، ثم ارتمت ضاحكة.

جذب فارس صوت ضحكاتها، سألها مستفسراً في فضول، فقد كانت كمّن جنّ جنونه تتحدث إلى الهواء... تضاحك نفسها وكأنها تسامر صديقاً قديماً:

— ما سبب هذا الضحك؟

توقّفت، انقلبت على بطنها، ثمّ أسندت ذقنها براحتيها، أجابت في ابتسام:

— شكلي مضحك.

قرص وجنتها في لطف..

— بل مُبهر.

- لا، بل مضحك.

اعتدلت في جلستها، احتضنت رضفة قدمها ثم أكملت ممسكة خصلة من شعرها:

- انظر إلى شعري حالته يرثى لها، وثوبي متسخ وممزق، بشرقي جفت من تلك الرطوبة التي تعرّضت لها، و....
قاطعها فارس ضاحكًا:

- أنت جميلة مَهْمَا كنت، وستظلّين جميلة أيتها الأميرة، فالذهب وإن غطاه التراب سيظلّ ذهبًا.

لمستها كلماته ورقّته، فحتى ثقتها بنفسها يعزّزها، لم تعرف ماذا عليها أن تقول، طال صمتها تتأمل عينيه، فالصمت أحيانًا أبلغ من الكلام، والمقل خير راو لما تحمله القلوب.

- فارس.

- ماذا؟

- ظلّ إلى جوارِي.

احتضن بكفه راحتيها، همس إليها:

- أنا هنا لأجلك، لن أتركك أبدًا.

امتلاّت عيناها بالدموع، لولاه لما كانت على قيد الحياة، كان ذاكرتها. فلا تعرف شيئًا سواه.

طفلته، يصلح أخطاءها، يعلمها ما لا تعرفه، يكون ظهرًا لها في عثراتها.
فالحب اهتمام.

وقد وهبها كل الاهتمام، إن أذتها الحياة، كان بالجوار يطيب جراحها.
ما إن تأملت حتى اختبأت بثنايا قلبه لتطيب، كلما تعثرت تمسك بها لتستند
عليه.

فكان ملجأها وقت الخوف، وسعادتها وقت الحزن، واحتياجها وقت
الفقدان.



جلس ياسين إلى جوار أمه بالمشفى يحدثها بنصف بالٍ عن المتوقع عندما
بدا عليها القلق، أمّا عن النصف الآخر فقد كان مع ياسمين الجالسة بالقرب،
تنحّج ثمّ التفت إلى أمه..

- أمي.. أريد طلب يد ياسمين من والدها في هذه اللحظة والآن.
تفاجأت بكلمات وليدها، لا يبدو وكأنّه يمزح، يتحدث بجدية، جفنيه
لم يغفلان.

- لقد حدثت والدك، لكن يا عزيزي ظروفهم الحالية لن تسمح.
ما لبثت أن انتهت من كلماتها حتى نهض من مجلسه ينادي والد ياسمين،
اتسع بؤبؤ عينيها من فعلته.

- أهنأك شيء يا ولدي؟
لم يترك ياسين مجالاً لمقدمات ودخل في صلب الموضوع مباشرة:
- أستاذ أجد، أعلم أنّ الوقت غير مناسب لهذا الكلام، لكنّ ما شجعني
على قوله أن القضية على وشك أن تُحلّ، هل تسمح لي بالحديث؟

توتّر الرجل فالكلمات غير المشبعة تثير الشكوك وتلفت الانتباه، أكمل الأخير:

- أريد الزواج من ابنتك ياسمين.

كاد يتلفّظ أمجد بعبارّة ما فاستوقفه ياسين رادعاً:

- كلّ ما أريده موافقة منك تطمئنني بها أنّ ياسمين ستكون لي، وأعدك بأنه لن يكون هناك.. أيّ شيء رسميّاً إلا بعد أن يعود كلّ شيء طبيعي.

ساد الصمت، تعلّقت عيناه بعيني ابنته، رأى بهما لمعة تمنى لو دامت حتى أبد الأبدين، فلاوّل مرّة بعد الحادث يرى فرحة تغمر محجرها، أعلن موافقته، خشى أن يقتل سعادتها برفضه، لقد عانت الكثير..

من الظلم أن يسرق هدية وهبها إياها القدر، حتى وإن كانت صغيرته الأخرى بين مخالب المجهول.

بين دهشة الجميع ووهلات الصمت، انقشعت غيمة الدهشة المثقلة وأشرقت شمس الفرحة بأعينهم، فلاوّل مرّة تبتسم هالة بعد أن هنتأها أختها، ابتسامة تواري قلباً مفتتاً يحاول ترميم نفسه.

طبعت سلمى قبلة على وجنة ياسمين التي لم تزحّ عينها عن ياسين، لم تتفوّه بكلمة واحدة، أفقدتها الفرحة النطق؟

وهل هناك أكبر من فرحة قلبين اطمئنّا إلى كونها لن يفترقا، لا عذاب ولا حنين ولا حرمان، رفيقا درب حتى آخر العمر.

أمّا عن محمود فقد وقف مراقباً حتى طفح كيله، وخرج عن صمته، انفرد بأمّه جانباً فسألته في همس:

- ماذا تريد؟

- أريد خطبة سلمى.

- ماذا!! ليس الآن.

- متى إذاً؟

لم يكفّ عن الجدال فخشيت سعاد أن يلفت همسها الأنظار، حاولت السيطرة عليه.

- هذه السنة الأخيرة لك بالجامعة، انته منها وسأطلب لك يد سلمى.

لم يقنعه ما قالته، أصرّ على اتّصالها بوالدتها حتى وإن كانت الخطبة بعد انتهاء الدراسة فاستسلمت لرغبته.

- يا الله على إصرارك وعنادك، اطلب منها رقم هاتف والدتها وأنا سأتصل بها.

ما أن تفوّت بعبارتها هذه حتى شعر بجناحين كاد يضربُ بها الأرض، طبع قبلةً على جبهة أمّه شاكرًا.

مرّ بجوار سلمى.. مسّ يدها في إشارة لأن تتبعه حتى لا يلاحظ أحد، استأذنت لإجراء مكالمة لاحقة به، جلسا بكافيتريا المستشفى، طلب مشروبًا لكليهم.. سألته في ترقّب:

- ماذا هناك؟

ضمّ ذراعيه تعبيرًا عن توتره، همهم وكأنّه يبحث عن كلمات لقولها..

- حسنًا، في الحقيقة.. أردت إخبارك أنّي فاتحت والدتي بشأن خطبتك، وافقت على إتمامها بعد امتحانات السنة النهائية.

ضحكت عيناها، بدا عليها السعادة وكأنّ ما سمعته ليس بكائن.

- حقاً؟!

أوماً برأسه يتأمل فرحتها منتشياً، صامتاً لا يتفوّه بأيّ كلمة، مرّت هنيهة ثمّ طلب منها رقم الهاتف الخاص بوالدتها، بدأت في إملائه، وبدوره يسجّله بهاتفه المحمول، ثمّ تركته راحلة.

تلاحقها مقلّتها، ويعدو قلبه إلى جوارها عدواً، سرقت ما تبقى من اللب والروح.

أتى الخميس مسرعاً، والجميع حول أسماء، اشترت فستاناً فخماً من أحد بيوت الأزياء العالمية بالاستعانة بال والدتها، ازدحمت غرفتها بفتيات يعملن بأحد صالونات التجميل الفاخرة يعدّنها لحفلة خطبتها.

دخل عليها والدها بعينين دامعتين.. احتضنها ثمّ طبعَ قبلةً على إحدى وجنتيها، ابتسم متأملاً انعكاسها بالمرآة.

- كبرت سريعاً، وأتى أحدهم ليخطفك مني.

ضمّت يده الملتفة حول عنقها براحتها في لطف:

- ستظلّ أبي حبيبي، وأول رجل في حياتي.

- وأنت أجمل فتاة في العالم، وأحسن ابنة قد يتمناها أب.

التفتت إليه مقبلة إياه، ثمّ طوّقه بذراعيها تحتضنه بقوة، أمسكت بوجهه بين كفّيها كطفل صغير، فبدت عبرة متعلّقة بمستودعها توشك على السقوط، تذكر زوجته.

- تمثّيت لو كانت والدتك معنا الآن.

- هي معنا ترانا أنا وأنت.

ضمّمها وكأنّه آخر عناق، ثمّ تركها تكمل ما قد بدّأته.

ازدحمت الفيلا بالخدم، كالنحل يعدّون التجهيزات لحفل الخطبة من أطعمة وزينة.

أمّا عن سمير، وقف أمام مرآته نصف عار يتأمل انعكاس وجهه، يفكر عميقاً وكأنه يلمح ذاك الغليان تحت جلده فبعد دقائق فقط سيبدأ الجحيم، أسرة مكلفة بالفشل نتاجها أطفال يشبهونه، أيقظه من سباته صوت والده الذي ارتفع ضاحكاً بالهاتف، فقد كان يتحدث إلى وجهه الآخر سالم كمال يذكره بموعد الحفل، فشاركه سالم في الضحك قائلاً:

- ما وقعت مرّة إلا وكنت واقفاً يا حسن.

- من بعض ما عندكم يا رجل، المهم أن لا تنس، وسلامي للصغيرة وناريان هانم، في انتظاركم.

حسن وسالم يتشاركا روحاً واحدة في جسدين، خلّقا من نفس التراب.. شقّين يجمعهما حب المال والسلطة، فسالم هو الآخر تزوّج ناريان طمعاً وجشعاً، وعلى الرغم من ذلك لم يفسد نسله، فكما يقولون في الأمثال "يخلق من ظهر الفاسد عالماً".

فابنته جميلة لم تتوارث أيّاً من طباعه، هادئة رقيقة تمقت أفعال والديها، محاولة العيش في كنفهما بسلام.

دخل جمال غرفة أخيه.. وقف بالقرب من سريره مجهّز بدلتة التي سيرتديها في حفل خطبته، وسمير متابع إيّاه من خلال المرأة بناظره صامتاً،

بينما انشغل الآخر بجلب ربطة العنق من الخزانة الخاصة بالملابس، فاستوقفه
منادياً.. التفت إليه تاركاً المرأة يتأهب للحديث بشيء ما:

- لم الصمت على كل ما يدور حولك؟

شرد بجمال في سؤاله، خفت ذاك البريق الذي لطالما جاهد لإظهاره، تنهد
ليقطع الصمت بالقول.

- ألدك حل آخر؟

تقدم خطوتين تجاهه، ثم وقف مستقيم القامة، أجاب موقناً بإجابته:
- يجب أن يكون لك رأي.

بدت ابتسامة ساحرة على شفثيه، تأمله متعجباً، فكيف يقول قوله هذا
والحبل حول جيده تماماً كحبله.

- أتدري؟ فكرت كثيراً في تسليم نفسي، لكنّ خوفي كله كان من والدنا،
حتى ترددي أمام وكيل النيابة لم يكن خوفاً من الاعتقال، وإنكاري أمام
أمك لم يكن خشية منها، أنا لا أخشى في هذا العالم شيئاً سوى شبح يدعى
حسن الدمنهوري، كتب علينا أن يكون والدنا لنا، فماذا على الابن أن يصنع
بوالده إن كان ظالماً؟

صاح به سميع فور سماعه لكلماته:

- لم كلّ ذاك الخوف؟ أعطني سبباً واحداً لكلّ هذا، أخوفك من والدك
أكبر من خوفك على نفسك.

أسدل جفنيه، زفر واستأنف، أجاب في حزن:

- ألم تشعر يوماً بالخوف دون أسباب؟ قيدٌ وهمي نشأت داخله حتى
نسيت كيف الهرب منه، كمريض ذهان يعلم بحقيقة مرضه ولا يستطيع

مقاومة ما يرى أو يسمع، أتلومني يا سمير؟ أنت أيضًا تنفذ كل أوامره؛ لا تحب أسماء وستزوجهما لأنه أمرك بذلك.

— أنا أستحقها يا جمال.

كسرت قلوب الكثير من الفتيات، وكانت آخرهم وأنقاهم أميرة، وهي بين الحياة والموت الآن.

— ولماذا فعلت بها ذلك؟

ضحك ساخرًا:

— أتسأل؟ أنا أنسى في النساء مرار معيشتنا، أب أناني وأم لا تدرك معنى الحنان، فأنا ضحية أسرة مريضة، وأميرة ضحيتي، وأنت أيضًا ضحية.

شرد يفكر في كلمات أخيه، نعم.. فهو محق، مرّ على باله المسكينة أميرة، ترقد في الغيابات بسببه.. تبدّلت ملامحه.. واصل حديثه بسؤال جديد:

— لم اخترت أسماء من البداية؟

— جشع، ظننتها ستكون كغيرها أقضي بعض الوقت معها ثم ألقى بها في أقرب صندوق قمامة، لكنني اكتشفت أنها عقابي، وذلك بعد فوات الأوان، لقد تركت أميرة بكامل رغبتني دون أي رغبة منها، وقد سلبتني أسماء بكامل رغبتها دون أي رغبة مني، بتّ أشعر ما عانته أميرة، جسد بلا روح.

— ما الفرق بين أسماء وأميرة؟

— لا مقارنة.. أميرة رقيقة جدًّا، ما طلبت منها شيئًا إلا لبّته لي، تشعر بي في ضيقي، تسعى لسعادتي، بينما أسماء تعرّفت على الكثير من الشباب، تصادق أحدهم، تمكّل منه فتتركه وتذهب لآخر، مكّنها من ذلك سلطة والدها وأمواله، لعلّ أحد هؤلاء أحبّها بصدق فتركته يعاني الفراق وويلاته، أنا

الآخر عقابٌ لها، يشبه كلانا الآخر كثيرًا، فأنا كأسماء تمامًا، هي الآن معجبة بي، غدًا تغير رأيها وتنظر إلى غيري، أنا موقن بحدوث ذلك، اعتادت أن كل ما تريده تحصل عليه، وأنا أنوي أن أصنع من نفسي جحيماً لها.

غرق جمال في الصمت، فإن كان يعلم كل ذلك لم يستمر به إذا؟ هو قوي، قوة قد تتخطاه بمراحل، شعر سمير بما يفكر به أخوه فربت على كتفه، ابتسم له مطمئناً:

- لا تشغل بالك بذاك الأمر، اذهب أنت الآن لتحضير نفسك وأنا سأحاول الانتهاء سريعاً.

- أتعلم؟

قالها فانتبه أخاه مترقباً..

- أنت لست أخاً سيئاً، للمرة الأولى أشعر كوننا أخوين بحق.

ابتسم سمير مرحباً، خرج أخوه من الغرفة تاركاً إيّاه يعود لبحر شروده، يتلاطم مع موج أفكاره التي كادت تقتله.

ارتدى أدهم بدلته، أمطر نفسه بوابل من رذاذ عطره الخاص، يهدم ياقة قميصه ويؤكد على ربطة عنقه، وفور انتهائه دخلت أمه..

- ما هذه الأناقة؟! إلى أين ستذهب؟

أجاب في لا مبالاة، بينما يبحث عن حذائه أسفل سريره:

- ذاهب إلى حفل خطبة.

تابعته بعينها في ذهابه وإيابه..

- مَنْ؟!

- سمير.

- سمير مرة أخرى؟ ألم أطلب منك أن تبعد عنه يا أدهم؟!

استنكرت فعله فتأفف، بدأ الحوار يبلغ أشده فانسحبت والدته في غضب حتى لا يتفاقم الأمر، أغلقت خلفها الباب فاهتزت ذراته من قوة الدفع مدوياً صوته، لا تشعر بالأمان تجاه صداقته لسمير، وكأن هناك أمراً ما ليس جيداً ينتظر وليدها من معرفة هذا الشخص.

انسدلت أستار الظلام، وتلاّأت النجوم بكبد السماء، فانسحبت ياسمين من بين جموعهم إلى شرفة قرية تتأملها، فهواء الليل البارد يلفح القلوب، يهدئ من لوعتها، يحمل عنها ثقلأً أرهقها، يرسلها إلى أرض أخرى يسكن فيها العقل وتكفّ الروح عن الأنين.

تتبعها ياسمين حينما لاحظ اختفاءها، دخل في هدوء لينزلها من سطح إحدى النجمات، لمس كتفها للفت الانتباه فابتسمت، سألها في حيرة:

- لم تقفين بمفردك؟

أجابت ولا زالت ابتسامتها على وجهها:

- أبداً، فقط أردتُ الاستمتاع بالسماء، خرجت لأستنشق بعض الهواء لا أكثر، ما الذي أحضرك إلى هنا، أهنأك شيء؟

ظهر على وجهه التوتر فليس هناك ما يقول، كلّ ما في الأمر أنه افتقدها حين اختفت من بين الجموع، فالزحام يتلاشى في حضورها، فهي العالم في عينيه.

- في الحقيقة، آ.. حسناً.

- ما بك؟

ضحكتُ في خجل من شتاته، فبعثرته ضحكتها أكثر.

- أنا متوتر قليلاً.

حاولت التّخفيف من حدّة موقفه، فبدأت بتمهيد الطريق لحديثه:

- هيّا أخبرني، في أيّ موضوع تريد التحدث معي؟

استند على سور الشرفة بكفيه، رفع وجهه إلى السماء ليجد القمر بدرًا أطفأ حضور النجوم، فلمعانا يتلاشى في حضرته، تأملت ياسمين بريق عينيه وكأنّه يرى القمر لأوّل مرّة، التفت إليها فالتقت أعينهما، احمرّت وجنتاها فلم يزح ناظره.

- يشبهك كثيرًا.

حاولت ألاّ تظهر توترها، عادت لتأمّل السماء من جديد.

- أنت تبالغ.

اقترب منها فلم تلتفت، تهدّج صوته:

- لم تكن بمبالغة يومًا، فأعين القلب ترى الأقرب أجمل ما قد خلق.

ابتسمت ثمّ تبع ابتسامتها الصمت، أكمل حديثه..

- أنتظر ذاك اليوم الذي سأعلن فيه لذاك العالم، أنّ تلك الأميرة لي

وحدي، غير مسموح لأحد بالاقتراب منها، يحسدني الجميع عليها وأنا غير

مبال إلّا بها.

لم تنفوه بكلمة، طال صمتها، لم تسقط ابتسامتها عن شفيتها، فالصمت سيد الأحاديث في مواقف تُفقد الكلمات صوابها.

ازدهمت الفيلا بذوي الثراء من شتى أنحاء البلاد، الجميع بالأسفل بانتظار أسماء، وقف أدهم يتسامر مع سمير، تعالت ضحكات كليهما حتى بدءا في لفت انتباه بعض من في الحفل، اقترب جمال من أخيه يهمسه بأذنه ثم رحل.

تابعت عينا أدهم تحركاته، فلاوّل مرّة يلتقي به.. لكن؛ هناك شيء ما داخله يحدثه عن كونها ليست المرّة الأولى، "أشعر وكأنني رأيته من قبل!".

التفت إلى سمير يسأله بعد شرود دام لوهلة:

- من ذاك الهامس؟

- إنه أخي، ألم تلتق به قبلاً؟

أجاب بالنفي، انتهى سمير بصوت الموسيقى والحضور، بينما أدهم رحل لعالم آخر إلى حيث التقى بجمال، ضربت الذكرى جدران ذاكرته، فقد التوازن لوهلة، اتسعت مقلته "نعم. تذكرته، أكان هو؟! هل هذا معقول؟".

بدأ عقله باستعراض بعض الصور حيث حادث أميرة، فقد كان أحد شهود العيان للحادث، لم يكن يتذكر الملامح جيداً، عصفت الرياح بذاكرته لتزيح تراب النسيان، تذكر كل شيء "هو من دهس أميرة، جمال من فعل ذلك".

قطع حديثه مع نفسه نزول أسماء من أعلى الدرج متعلّقة بيد والدها، تنهادى في رقّة بثوب لامع بعينين برّاقتين يبرز جمالها، غادره سمير ليتسلّمها،

وقف عند نهاية الدرج ثم التقط يدها فور وصولها إليه، وقفا في منتصف قاعة الرقص والجميع حولهم، أخرج علبة زرقاء حريرية يتدلى منها عقد ماسيّ تعدّى ثمنه ٢ مليون جنيهًا، ألبسها إيّاه بين تصفيق الحضور، تعالا صوت الموسيقى، لفّ يده حول خصرها وبدءا بالرقص، غارقة هي بحبه.. ومتقن هو بلعب دوره.

انتهز حسان فرصة انشغال الجميع ليشير إلى جمال بالاقتراب منه، حدّثه قائلاً:

- سالم كمال لم يأت بعد؟

همّ بطرح احتمالات تأخّره فسرق الكلام من فيه دخول سالم كمال وعائلته فرفع كتفيه تعبيراً عن تعجبه.

لحقت فريال بهم مرّحة تستقبل ناريمان بعدما غمز لها زوجها.. كلاهما يتناغمان جيّداً، سيدات مجتمع بارعات باستبدال الأقنعة، كلّ بحسب الاحتياج له وتوقيته.

أما حسان وسالم فتشابكا.. يتسامران قليلاً ويضحكان كثيراً ثم اتّجها حيث حمدي مكرم، انصهرا من بين المعازيم فيبدو أنّ هناك الكثير للحديث عنه، وإذا ذكرنا الحديث فالاحتمال الأكبر أنه عن المال، وماذا غير المال ليأسر عقل هؤلاء؟!

تعلّقت عينا جمال بابتنة سالم كمال، هادئة شبيهة بالبحر تثير الفضول لاقتحامها، لم تسقط عن شفيتها الابتسامة، عيناها الضاحكتان منافذ لعوالم أخرى لم تعرف بشاعة البشر يوماً، فاجأه ذراع أحدهم يلتفّ حول رقبتة بمزاح.

- سمير .

قالها ثم ابتسم.

- نعم سمير، فيم أنت شارد، هاه؟

تفوّه بعبارته ثم رفع وجهه إلى موضع شروده ليجد الفتاة هناك.. ضيق من التفاف ذراعه حول جيده ثم حدّثه مداعبًا:

- أخي الكبير مُعجب!!

ضحك جمال بصوتٍ مكتوم، وقد أزال ذراع أخيه عن رقبتة، تقدّم عدّة خطوات متهرّبًا.

- أصمت يا أحمق.

تبعه سمير ثم تعلّق بذراعه عارضًا المساعدة، رفض خجلًا فلم يترك له فرصة.. جذبه من ذراعه ناحية جميلة دون أيّ إرادة منه.. ثم بدأ هو الحديث:

- مرحبًا.

ابتسمت إليهما مرحبة، فأكمل محاولاً فتح مجال للحديث:

- آنسة جميلة ابنة سالم بيه، أليس كذلك؟

- أتعرفني؟

تعجّبت فلم يكن لها اختلاط بعالمهم يومًا.. أجابها الأخير في ثقة:

- بالطبع، فوالدك أحد شركاء أبي.

ابتسمت ثم عادت إلى صمتها، فحاول شقّ جمود الصمت مازحًا:

- طبعًا أنا في غنى عن التعريف، فأنا عريسُ هذه الليلة، ويجب أن أذهب

لمخطوبتي الآن.

تركهما معاً، بعد نظرات توعد من جمال بسبب ذاك الموقف المخرج، جلس صامتاً لا يعرف من أيّ مكان يبدأ كلماته، فابتسمت إليه محاولة التّخفيف، سألته في هدوء:

- أنت بخير؟

ابتسم لها في خجل مصحوب بالتوتر ثمّ أوماً برأسه.. فالكلمات تذوب في حضرة مقلّ القلوب..

وكأنّ روحك الهاربة دخلتك صدفةً ففقدت التوازن، لم تعد على هذه الدغدغة بطياتك.



مجلسٌ يجمع سيدتين كناريان وفريال لن تحفّهُ الملائكة، فالحديث لن يكون عمّا يفيد بقدر ما يدر حسباً ومكانة اجتماعية، جلسا يعددان لبعضهما كم الجمعيات الخيرية التي ساهمت كلّ منهما فيها، وكأنّهُ سباق تريد فيه كلّ واحدة أن تهزم الأخرى، حياة فارغة يعوي بها صوتُ الريح وإن كان الظاهر زخرفاً، لطالما تساءلت كيف لهؤلاء العيش بهذا الزيف!! إذا اغترّ الإنسان بهاله نسي لمْ خُلق؟ تركّ قلبه الذي صمم له لينام بآخر أكثر ضيقاً فقط لأجل المال والشهرة؟! بعض البشر أكثر غرابة وتعقيد من نظريات أينشتاين.

لمحت فريال ولدها جمال منسجماً مع ابنة سالم كمال، فجذبت انتباه ناريان لهما.

- ييدوان مستمتعين.

ابتسمت ناريمان حينما رأت ابتسامةً دافئةً على شفتي ابتنها الوحيدة،
أطالت نظرتها فقد راودها شعور الدهشة.. لطالما فشلت في دمج ابتنها بعالم
الأثرياء لنبذها إيّاه.

- غير معقول!!

همست بها فناوشت مسامع فريال، سألتها في فضول:

- ما هو غير المعقول؟!

تابعت بعينين لامعتين..

- لم أرها تبتسم لشابٍ يومًا، ترعرعت بمفردها لم تكوّن صداقات،
ظننت أنّ الخجل السبب في ذلك، لم أرد الضغط عليها، أن أراها اليوم تبتسم
وتتحدّث إلى أحدهم، ذلك يبعث السعادة بقلبي.

أدارت رأسها نحوهما بعد سماعها لكلمات ناريمان..

- جمال كجميلة.. ربما هذا هو السبب في انسجامهما معًا.

اتّفق سالم وحسان على بناء قرية سياحية بعد أن تعهّد لهما حمدي مكرم
بتيسير السبل للحصول على عقد عشرين ألف فدان من أراضي شرم
الشيخ.

فما يساوي ملايين من مال العامة بين أيدي هؤلاء ثمنه تراب، تجارة صامئة
بقروش معدودة للمتر المربع الواحد بينما ثمنه الأصلي أغلى من الذهب.

عالم رأسمالي بعيدًا عن آخر يذوب بالأعماق كمدًا وفقرًا يشبه اليوتوبيا،
فكم من شاب أعزب أو ربّ أسرة أعلن بانتحاره صرخة علّها تمسّ مسامع

هؤلاء بأن "كفّوا عن سرقة أموالنا"، فلا الضمائر تستيقظ ولا القلوب يسقط عنها الصدا.

أمّا عن سمير فقد غرق بتفاصيل أخيه الممتزجة بحديثه مع جميلة، يتابعهما من بعيد، يترقب ردود الأفعال ويبتسم، لم يرق لأسماء ما يحدث، فقد بدا خطيبها وكأنّه يلوح لها من عالم آخر بعيد، فحدثته ساخرة على أمل لفت انتباهه:

- سمير، آسفة على مقاطعتك عزيزي، فقد أردت إخبارك أنّ اليوم هو حفل خطبتي، يبدو أنك لم تلاحظ ذلك.

لم يلقَ لكلماتها بالأ.. أجاب كأنه لم يسمع عبارتها:
- جمال يبدو معجباً بجميلة.

لم يكن وقع كلماته على أسماعها حميداً، اشتعلت النيران بصدرها تأكلها الغيرة، ألا يحقّ لها أن ترى نظرة الشّغف تلك بعيني حبيبها، كلّما نظرت بمقلتيه اعتصر قلبها حزناً، فكأنّه استبدلها بقطعتين من الثلج.
حدثته بنبرة غاضبة:

- سمير انتبه إليّ، أنا لم أرك من أوّل الحفل، أنت مشغول مع الجميع عداي.

- آآه، سنبداً سيمفونية النّكد من الآن، أسماء.. أنا لا أحبّ هذا الأسلوب.
خيّم عليها الصمت، تبدّلت معالمها إلى الحزن، حينها تنهّد ثمّ أسدل جفناه مستسلماً، أعاد مدّ نظره حيث تقف هامساً:

- الأنظار علينا، ستفتحين مجالاً للتساؤلات والحديث الجانبي بين الحضور، ابتسمي.

حاولت الابتسام رغم ما تشعرُ به فهي الأخرى تخشى مظهرها أمام هؤلاء، جميعهم مفرّغو العقول، يحيّدون ارتداء الأقنعة، تبهرهم الخوارج غير مباينين بما تغطّيه الجلود.

كلّ منهم يدرك حقيقة الآخر ويراهما صوبَ عينيه، يتجاهلها. فالعلاقات قوية بما هو أهمّ، تحكمها دائرة المصالح.

ومن بين النقاشات والمقابلات الخاصّة بالحضور، كان أدهم بعالم آخر، يقف على جزيرة أفكاره، شاردًا بجمال، تتلاعب الشياطين بعقله، أخرج كفه من جيبيه، ثمّ همّ مسرعًا بمغادرة الحفل.

بالقرب من شرفة الغرفة الملكية بالقصر وقفت إيزابيل، انعكست أشعة الشمس بمقلتيها الجامدتين، عقدت ذراعيها، بدت وكأنّها تتأمل ذاك النهر البعيد، والحقيقة غير ذلك.

كبركة راكدة تعكّر صفوها، ساكنة في هيئتها وداخلها رخوٌ مثير للاشمئزاز، عقلها يغلي كبركان ثائر، بداخله رؤوس الشياطين، تمكّر وتكيد.

قطع تأملها مقدنيو بدخوله المفاجئ، عاقد الحاجبين وفمه على وشك التشنّج يسألها عن "آن"، أجابت وكأنّ الكلمات تُسحب من فمها:

— أمرت السجّان بجلدها.

جلس على أحد الكراسي بالقرب متنهّدًا في استسلام، فقد نفذت الحيل وبلغت القلوب الحناجر، بينهم وبين الموت خطوات معدودة، تقلّ بمرور الوقت، سألها بنبرة منكسرة علها تملك إجابة.

— ماذا علينا أن نفعل الآن؟

- لن نفعل أي شيء، هنري سيفعل.
 بدت علامات التعجب على ملامح مقدنيو، فأكملت تفصيلاً بعد إجمال:
 - القصر به الكثير من الجواسيس، والمملكة مليئة بالساحرات الموالين
 لكاميليا، ستُنقل أخبار "آن" حرفاً حرفاً إلى هنري وأميرته.
 شرد مقدنيو في أسى يسترجع ما دعاه لإغضاب الملك من الأساس، تأوّه
 قائلاً:

- آه لو حقّقنا ما أردناه من البداية، سطونا على المملكة من أجل قوى
 السحر، وحتى الآن لم نصل إلى شيء، حلقة مغلقة يزداد خناقها، الأمور
 تتعقّد، بدأت أخشى من السقوط في أية لحظة.
 مالت عليه من الأمام وقد أحاطت بكرسيه، نظرت صوب عينيه في عزم:
 - لن يصيبنا مكروه، إمّا نحن أو هم، لن نخضع إلّا على جثتنا.
 - الجيش يتدرّب.
 - لا يكفي الجيش، اجمع شباب المملكة، ومن يرفض اقتله، من لم يكن
 معنا لن نسمح له أبداً أن يكون علينا.

بينما كاميليا مستلقية وصلت العصفورتان المرسلتان من قبل كوزيت،
 تغردان بالقرب من أذنها في محاولة لإيقاظها، رفعت جفניה في تشويش،
 فركت عينيها حتى وضحت الرؤية، اعتدلت في جلستها تنظر بتمعّن، ثم
 همست إليهما في ابتسام:

- أنتما ضائعتين يا صغيرتي؟

أيقظ فارس همس كاميليا فنومه كنوم الذئاب..

— ماذا هناك؟

أشارت له بالصمت.. وقفت العصفورتان على كفّها ثم شرعتا في الحديث، تغردان بشيء مُبهم، بدت في استيعاب له، خيم الحزن على وجهها ثم صمتت لوهلة.

— بماذا حدثاك؟

— قالتا إنّ الفتاة التي ساعدتنا على الهرب أُسرت وقاموا بتعذيبها.

صاح فارس في قلق:

— "آن".

أومأت برأسها في حزن، أيقظ هنري اسم "آن" مداعبًا مسامعه، كلمات كاميليا عن أسرها وتعذيبها مزّقت قلبه أشلاءً، سأل عنها في خوف، مترقبًا وكأنّه يريد تكذيب ما سمع:

— ما بها "آن"؟!

— اهدأ هنري، ستكون الأمور على ما يرام وسننقذها، وسيذوقون مرارة فعلتهم هذه، فلنبداً التحرك الآن، لا نريد فقد مزيدٍ من الوقت.

همّ فارس بالنهوض بعد أن أنهى كلماته، فاستوقفه الأخير ممسكًا معصمه، تعلّقت عيناه بعينيه فكادتا تتحدثان، سأله كطفل تائه في الزحام يترقب سماع خبر العودة إلى أمّه:

— سيقتلونها يا فارس؟

— لن يحدث.

ثم أكمل محاولاً بثّ الطمأنينة في نفسه:

- "آن" نقطة ضعف لنا، سيحافظون على حياتها حتى آخر لحظة، أخشى عليها من التعذيب لذلك يجب أن نسرع.

وقف جاذباً كفّ هنري مساعداً إيّاه على النهوض، استقلّ ثلاثتهم تيّن كاميليا ليحلق مغادراً أرض الفردوس، يستعرض مهاراته من فوقها متقلّباً في الهواء، يهوى فجأة ثم يعود للارتفاع حتى استقرّ يحلّق في استقامة.

في طريقهم إلى حيث جيش الملك سليمان، عائلات ومقاتلون استطاعوا الفرار من المملكة متفرّقين أو في مجموعات، جمعوا أشلاء الجيش وبدؤوا التدريب منتظرين ساعة الحسم.

خيّم العبوس على ملامح كاميليا تخشى ما هو قادم، شعر فارس بتوتّرها فلمعة عينها انطفأت وحلّت أخرى خائفة حزينة.

- ماذا هناك؟

- خائفة، ماذا سنفعل فارس؟ لم أعد مطمئنة لأي شيء، فقدت الثقة بمجريات الأمور، حتى الأشخاص أخشاهم.

ابتسم محاولاً انتزاعها من أمواج توتّرها:

- حتى أنا؟!!

- أنت لست أشخاص، أنت فارس.

- ومن يكون فارس؟

برقت لمعة خجل بمقلتيها، صمتت لوهلة فاقرب منها، اتّسعت ابتسامته، باتت مطمئنة الآن، عادت لها شكوكها لتعاود سؤاله مرّة أخرى:

- أو أوافق من هؤلاء؟

— كثنقتي بقوتك، لا تخشي شيئاً.. أنا إلى جوارك.

جلست كارين على كرسيها الخيزراني، يتمايل ويميلها معه حتى استسلمت للنوم، تسلّلت العصفورتان إلى غرفتها مغرّدتين، يزفّان إليها وصول الرسالة وأخبار الأميرة، فتحت عيناً وبدت في وضع الإنصات، تسأل ويجيبانها، ابتسمت ثم أمرتها بالاختفاء.

بمطبخ القصر الملكي وقفت كوزيت تعدّ الطعام، ثم أخرجت قنينة زجاجية صغيرة تحتوي على سائل، جذبت غطاءها المطاطي، ثم أفرغت بعضاً من السائل بالطعام المجهز، فتشت يميناً ويساراً تتأكّد بأنه لا أحد يتبعها، حملت الطعام متّجهة إلى سجان "آن"، فكوزيت المسئولة عن إعداد طعامه.

تناوله الحارس بشهية مفتوحة، وما أن انتهى حتى دارت به الدنيا، تشوّشت رؤيته وفقد توازنه ثم سقط في نوم عميق.

وما أن تأكّدت كوزيت من نوم الحارس حتى تسلّلت إلى زنزانه "آن"، تكاد لا تمسّ الأرض بقدميها، كراقصات الباليه تمشي في خفة على أطراف أصابعها حتى لا تصدر صوتاً، وقفت أمام باب الزنزانه الحديدي، حاولت الوصول إلى قضبانه المتراصه بقلب نافذة لا تتعدّى عدّة سنتيمترات طويلاً وعرضاً، نادت بصوتٍ منخفض فأجابتها "آن" بصوت واهن:

— مَن هناك؟

— أنا يا عزيزتي، كوزيت.

كغريق تشبث بالقشة.. صوت كوزيت كان بمثابة قشة لها، ففي المحن نحتاج أحبابنا، نأمل لو نحتمي بهم من آلامنا وخوفنا، لم تستمرّ سعادتها كثيراً، قفز إلى عقلها فكرة لو علمت إيزابيل بما تفعله صديقتها الآن، وعلى الفور طلبت منها الرحيل.

- لا تقلقي، وضعت المخدّر للحارس في الطعام، ولا يعلم أحد أني هنا، جئت لأطمئنك وأطمئن عليك، لقد ذهبت إلى كارين وطلبت منها أن تمدّ يد المساعدة، أرسلت رسالة إلى الأميرة وهنري، ما أن تصل سيسرعون في القدوم، تماسكي "آن".

ملاً الأمان شقوق "آن"، منذ أن أسرت لم يدقّ سوى الخوف بابها، أكملت كوزيت:

- هنري لن يصمت "آن"، كوني قويّة لأجله، عليّ أن أرحل الآن قبل أن يستيقظ الحارس، سآتي للاطمئنان عليك كلما سنحت الفرصة لا تخافي.
- حسناً كوزيت، سأفعل.

رحلت تاركة "آن" بين قيودها لكنّ القلب حرّ يخلق حيث هنري، تثق بإنقاذه لها فلن يستمرّ هذا الوضع كثيراً، ورغم الألم الجسدي داخلها مطمئنّ.

أمّا عن الظلم فموقنة بانتهائه، فالحقّ سيعود إلى أهله وإن بلغ الظلام ذروته، فلا بدّ للشمس الخروج بعد الليل الطويل، الحياة لها سنة لن تختل وإن أبى الظالم.

وهنري على الجانب الآخر شارد الذهن، يحدث نفسه ويتوعّد مقدنيو وزوجته إن مسّا "آن" بسوء.

"لن أسمح له بسرقة ما أعيش لأجله أبداً، سأعود يا "آن".. سأعود".

الفصل السادس

انتهى الحفل ورحل الجميع.. فتشّ سمير عن أدهم لم يجده، تعجّب فلم يشعر به أحد.. رحل دون سابق إنذار، ظهر حسان الدمنهوري طالبًا منه الانفراد، تبعه وما أن اختفيا عن الأنظار حتى بدأ بسرّ موضوعه.

— أريد طلب يد جميلة ابنة سالم كمال لأخيك.

صمت وكأنّه يفكّر في كلماته:

— أسألته عن رأيه؟

ابتسم كالواثق، ثمّ أجاب رافعًا سيجاره لتلقمه شفّته:

— ليس بعد، ولكنّي موقن بموافقته.

نفث الدخان بوجه سمير.. لم يكنّ لجفنيه أيّ ردّة فعل، ثمّ أكمل:

— لاحظت انجذابه لها، لم أتوقّف عن مراقبته منذ بداية الحفل.

— ما المطلوب؟

— أريد منك أن تفتح، أريد أن أعرف كلّ كلمة دارت بينهما، إن رفضت

الفتاة لن يوافق سالم.. وأنا لا أحبّ الخسارة.

أومأ برأسه.. أطلق حسان ناظريه بالمكان وكأنّه يفش عن شيء ما.

— أين جمال؟

أشار سمير برأسه حيث يقف سالم كمال، فتركه متّجهًا صوبهما ثمّ قطع

الحديث بينهما ضاحكًا:

— فيم تتحدثان؟

- ابنك خفيف الظلّ.

قالها مصحوبة بقهقهاته، فأجاب الأخير مازحًا:

- كأبيه.

- ما هذا الغرور يا رجل!

- أعهدت منّي مثل ذلك؟ ثقة بالنفس هذه.

استمرّا في تبادل النكات والضحكات حتى أوقف كلماتها مشهدٌ جميلة آتية نحوهما، حينها انتهز حسان الفرصة ليطلق أحد تعليقاته المعروفة تمهيدًا لطلب اليد في العرف منذ الأزل.

- باتت جميلة عروسًا، لها حظٌّ من اسمها.

- نعم. كبرنا قبل الأوان.

حينها صرخ حسان:

- ماذا!! تحدّث عن نفسك. لازلت شابًا.

- كما أنت، لن تتغيّر.

بينما انتهام منشغل بالحديث والمزاح كان ولداهما بعالمهما الورديّ بعيدًا عن كوكب الحيتان يسترقان النّظر لبعضهما البعض، فأول طريق الحبّ نظرة، وفي بعض الأحيان كلمة، وأحيان أخرى ليس له طريق، يسقط على رأسك كالمصيبة من حيث لا تدري.

همّ سمرير بمغادرة الفيلا فاستوقفته أسماء، تكيل له من العتاب وابلاً، تأملها كلوح الثلج، والمسكينة كالبركان تكاد تشتعل كلماتها وهي في الطريق إلى أذنيه..

- أأحدث نفسي!!؟

- ماذا تريدین؟

حاولت استمالته فتدللت في اصطناع:

- أطاوعَكَ قلبك بإغصابي في يوم كهذا، يوم خطبتنا!! لو تعلم كم أَحَبَّكَ ما فعلت ذلك بي أبداً.

- حسناً، آسف.

قالها في استسلام، فأجابته بالنفي:

- غير مقبول.

- ما الذي يرضيك إذا؟

- ليس من شأني.. تصرف، فقد أغضبتني جداً.

- سنقضي يوم الغد بأكمله معاً، ما رأيك؟

تربعت ابتسامة رضا على شفثيها، أو مأت برأسها في سعادة:

- حسناً أراك غداً.

تركها سمير لاحقاً بأهله حيث استعدّ الجميع للمغادرة، ولا زالت مقلتا جمال وجميلة تفيضان كلمات.

وصلاً للمنزل، أسرع جمال إلى غرفته فتبعه أخوه.. طرق الباب فأذن له بالدخول، جذب مقبضه مبتسماً ثم أغلقه خلفه، ما أن رأى أخوه ابتسامته حتى تفرّس ما يدور في رأسه فظهر عليه الارتباك.

- ماذا هناك؟

- يا رجل!! ألا تعرف ماذا هناك؟

عقد ساعديه إلى صدره، ثم أمعن محجريه في وجهه قائلاً:

- إلى ماذا ترمى يا سمير؟

- أحقاً لا تعلم؟

انطلقت قهقهاته تدوي بأنحاء الغرفة مما زاد من اضطراب جمال، ثم أكمل مازحاً:

- ما هذا.. أخجلت؟!؟

غضب من عبارته فحدّثه بنوع من الحدة:

- سمير، ماذا تريد؟

- أحببتها؟

بدأت صفحة جمال الهادئة تهتز، وكأنّ الداخل قد اشتعل، حاول إظهار التماسك مدعيًا عدم الفهم:

- من تقصد؟

- جميلة.

ساد الصمت، نكس رأسه هارباً من نظرات أخيه، والأخير مرهف السمع، ينتظر حديثه ببصرٍ ذاهب، لم يجب.

- أتخجل من أخيك؟

- نعم، أحببتها.

- غريب أن تتعلّق بأحدهم من اللقاء الأوّل، أليس كذلك؟ لكنّه رائع بالتأكيد. المشاعر المدفونة بأرض قلبك تتحرّر أخيراً لشخصٍ ما اخترته أنت من بين العالم.

ابتسم جمال ثم ساد الصمت.. فأكمل:

- ما رأيك أن تتقدّم لخطبتها؟

- أنا لا أعلم طبيعة مشاعرها تجاهي.

- يا عزيزي، أنت الآن تقف أمام خبير علاقات، سأطرح عليك عدّة

أسئلة وأجب بنفسك، اتفقنا؟

وضع كفه بجيبه متفاخرًا في مزاح، ثم بدأ بطرح الأسئلة كالمحققين:

- ألاحظت تطلّعها إلى وجهك أثناء الحديث؟

- نعم. وكلّما التقت عيني بعينيها احمرّت وجنتاها خجلًا.

- وحديثها معك إن طرحت سؤالاً؟

- بدت مشتتة تتلعثم.

ابتسم سمير بمقلتين براقتين، ثم تحدّث لتهدأ موجات صوته:

- أكلّ ذاك ولم تقتنع بعدُ بإعجابها بك؟! نظرات كليكما، وضحكات

الخجل، الكلمات الذائبة بين مشاعر متوهّجة خير دليل، ما رأيك أن أفتح

أبي في طلب يدها لك؟

- حقًا؟

- دع الأمر لي.

خرج من الغرفة تاركًا الأخير تتقاذفه موجات خياله الوردية، يحلم بذلك

اليوم الذي سيلتقيها به كرفيق درب وليس مجرد غريب.

التقمه حسّان فور أن لمحّه، سأله في ترقّب عن رأي أخيه، وما أن سمع ما

يرضي نفسه حتى تهلّلت أساريره، كاد يصهل كجوادٍ فاز في سباقه للتوّ، أمّا

عنه فقد وقف صامت الملامح، يراقبه دون ردّة فعل كتمثال جامد.

- اذهب لترتاح وتبدّل ملابسك.

تبسم ساخرًا.. يحاور نفسه:

"وكأنّك تبحث عن راحتي، لولا علمي بكونها فتاة خُام كجمال وعن حبّه لها ما كنت ساعدتك في ذلك أبدًا، لن أقتل أخي كما أقتل أنا الآن، أنا أستحقّ ما أنا عليه، لكنّه لا يستحق ذلك".

شارد في وجه أبيه المنشغل بملفّات على مكتبه.. التفت في لا مبالاة وكأنّه يلقي بدنيا أبيه خلف ظهره.

ما أن وصل غرفته حتى استلقى على سريره، يحملق في السّقف شاردًا.. مرّ على باله أدهم فجذب هاتفه.

- أين أنت؟ لم غادرت الحفل باكراً؟

مزّق أدهم مسامعه بجواب لا علاقة له بسؤاله..

- أخوك من دهس أميرة يا سمير.

تشتّت.. تهرب الكلمات من على لسانه، تلغثم محاولاً النفي والكذب لا يمدّ له يد العون، حاول إنكار ما تُلي على مسامعه يسأله إعادة سرد كلماته.

- أقول ما سمعته أنت، شاهدتهُ نهار الحادث ولم تسعفني عيناى. فور أن رأيته في الحفل انتعشت ذاكرتي، تأكّدت بأنه الفاعل المجهول.

وكأنّه فهم إلى ماذا يرمي صديقه.. سأل لإنهاء الأمر:

- ماذا تريد حتى ننتهي من هذا الحوار العقيم؟

- خمسة ملايين، ولن أتنازل. سأمهلك ففكّر كما تريد، وسأنتظر اتصالاً

منك.

- وإن لم نفعل؟
- تعلم حينها ما سأفعل.
- أغلق الهاتف بعد أن طرح تهديداته دون سلام، دخلت عليه والدته باندفاع.. وكأنها استمعت لما دار.
- مع مَنْ كنت تتحدّث؟
- سؤال ليس ببريء يحمل شيئاً من الملامة، حاول طرح الشكوك عنه...
سأل في اضطراب:
- هنا منذ متى؟
- أجب سؤالي، ولا تحاول التملّص.
- تنهّد ثم زفر مستسلماً:
- مع سمير.
- وما الذي بينك وبينه يدفعك لطلب خمسة ملايين جنيهاً منه؟
- اهتزّ داخله، سمعت كلّ ما دار بينهما، حملق بمقلتين جامدتين دون التفوّه بكلمة، أردفت قائلة:
- لم أرتح لعلاقتك به، لطالما شعرت بأمرٍ مريب بينكما، أهكذا ربّيتك؟
- تماسكت وداخلها كبركانٍ ثائرٍ تحاول كتمانها، ما أن انتهت من عبارتها حتى ردّ في تملّص:
- أمّي، أنا لست صغيراً، وعلى دراية كاملة بما أفعله الآن.
- برقت مقلتاها بالألم، ابتسمت وعلى شفيتها الانكسار.
- أعلى مَنْ ربّتك كبرت؟

- هَيِّجْ سؤَالَهَا سطحه الهادئ، ارتفع صوته صارخًا بوجهها وكلَّه عتاب:
- عن أيّ تربية تتحدّثين؟ انظري حولك بتمعّن. أترين مقرّ القمامة الذي نعيش فيه؟ شقة في حيّ متوسط قديم تكاد تسع لكلينا، يسكنون القصور يا أمّي! أتفهمين؟
- هنالك مَنْ لا مأوى له سوى الطرق النائية وشوارع الدّئاب، وأنت تنقم النعمة؟
- ازداد صراخه كَمَنْ يحاول التشويش على صوت ضميره والتبرير لنفسه.
- وما العيب أن أبحث عن الأفضل؟
- مِنْ مالٍ حرام.
- امتعض ثمّ استنكر قائلاً:
- أصابني الملل من ذاك المشهد المتكرّر، كئيب ومملّ لن يجدي.
- أسدل الصمت أستاره، تنظر إليه وكأنها لا تعي ما يقول، تحدّث نفسها "أهذا مَنْ ربيته؟!"، أعطته ظهرها مغادرة الغرفة، شعر بالذنب.. ناداها فلم تجب، وكأنه طيف بالجوار لا صوت ولا مادة.
- جلسَ على مضجعه في غضب، ضميره بالداخل يصرع أفكاره أرضاً، مشتتّا بين المال أو رضا أمّه.



- ما لبث سمير أن انتهى من المكالمة التليفونية حتى دخل على أبيه محدّثه بحواره مع أدهم، وما أن أنهى حديثه حتى ارتفع صوت حسان يهزّ أرجاء المنزل في غضب:
- أهذا الصعلوك يهدّدي؟ صرصور تحت قدمي أدهسه متى أريد.

تنهّد سمير ثمّ جلس على كرسي بالقرب، وضع قدمًا فوق الأخرى ثمّ أردف:

— ليس هناك ما تهدّده به، أنا أعرفه جيدًا.

صاح وكأنّ الغضب عصب عينيه:

— سأرسل له مَنْ يعلمه ألاّ يلعب مع الكبار.

— نعم افعل ذلك، ليخرج من المشفى على قسم الشرطة وتضيع آخرَ فرصة للحفاظ على ابنك الأكبر.

سقط حسّان على كرسيه مستسلمًا، جذب ربطة عنقه، تكعكع وقطراتُ العرق تتدلى على جبهته، أرجع رأسه ثمّ أسدل جفنيه، مرّت وهلة وكأنّه انفصل عن العالم، ثمّ تحدّث وفي صوته شرخ يحاول مواراته:

— ما العمل؟

أنزل سمير قدمه ثمّ أسند راحتيه على جانبي الكرسي، ابتسم في هدوء شابه برود ملحوظ:

— أن تعطيهِ المال.

— هذا مبلغ كبير.

— مقابل كلّ تاريخك ومستقبلك.

صمت يفكر في كلماته، ثمّ علق ناظريه على ابنه مجيبًا في استسلام:

— حسنًا، سأعطيهِ المال.

غادره بعد أن أنهى حديثه والبسمة على محياه، إحدى الفرص للانتقام منه، رغم قلقه على جمال ومستقبله إلاّ أنّ والده يستحق، وجميلة التي لو علم

والدها بالأمر لما وافق على زواجه منها فهو كوالده.. المظاهر الاجتماعية عنده قبل أي شيء، وإن طال الأمر مصلحته قد يبيع أي شخص وإن كان أقرب الناس إليه.

بغرفة العناية المركزة، أحمد إلى جوار أميرة يمارس عمله كطبيب، لا زالت في سبات عميق رغم جروحها التي قاربت على الالتئام التام، يتأملها في صمت بعينين لامعتين.

مقلّ تتفجّر منها الكلمات، وسطح هادئ ينسج ألف حكاية، وكأنها تركا جسديهما المادي فالتقت أرواحهما بعالم آخر بعيداً عن البشر، حوار خفي بعالم لا يدركه سوى القلوب. قلوب المحبين.

يتساءل في نفسه إن كانت تشعر به كما يشعر بها الآن؟

ومن التعب نامت كاميليا على ظهر التين المحلق، استندت إلى فارس دون شعور منها، لفّ ذراعيه حولها في رفق ليحميها من السقوط، ابتسم مسنداً ذقنه إلى رأسها.

يعلم كم عانت برحلتها هذه، من الصعب على أميرة اعتادت الرفاهية أن تتعرض لتلك المشقة والكوارث والمطاردات، شاكراً للظروف التي مكّنته من الاقتراب منها بهذا الشكل.

فهناك أمور سيئة تحدث، لو تعمقنا ببواطنها لأدركنا الدقائق، أشخاص لولاها ما قابلناهم أبداً، باتوا الحياة ومن فيها.

اقترب التّين من "أرض المهدي" حيث جيش الملك سليمان ومن استطاع الفرار من أهل المملكة، فحاول فارس إيقاظ كاميليا، يومها حافلٌ وهناك الكثير بانتظارها.

رفعت ستائر مقلتيها تقاوم النوم..

- أنا متعبة فارس، أحتاج إلى النوم.

- فور وصولنا سوف تراحين.

تأفّفت فابتسم مكملًا:

- لكن لا تعتادي ذلك، أنتِ تحتاجين إلى الكثير من التدريب للتحكم بقواك، جيشك يحتاجك، لا مهادنة أو تفريط أو كسل يا أميري.

تململت كطفل صغير أجبره والده على القيام بواجبه، وصل التّين لأرض المهدي، بدأ يخفض من سرعته استعدادًا للهبوط، يحرك جناحيه فيصنع هالة من الهواء ترقص معها أوراق الشجر حتى لمس بمخالبه الأرض.

ازدحم الناس تملأ وجوههم علاماتُ الاستفهام عن ذاك التّين القادم من الشمال، من هؤلاء؟ وكيف لهم النجاة من أرض الوحوش؟ فالولوج إليها على الأقدام لا يليه خروج سوى بمعجزة.

أمعنوا النظر، فصاح أحدهم "إنها الأميرة كاميليا، ابنة الملك سليمان"، تهلّلت الأسارير وعلت أصوات الفرحة مهلّلين بنجاة ابنة الملك، يذف كل منهم للآخر البشري، تراحموا حول التّين.

لم تعتد الأميرة في نفسها على الزحام، فكلّ الوجوه سقطت من ذاكرتها، لا تعي سوى ما رواه لها فارس، وكأنها تلتقي هؤلاء للمرة الأولى، تشعر بالغربة.. تسرب الخوف إلى قلبها، هناك شيء ما غير طبيعي، وكأن روحها

بينهم قد تاهت، وجهها جامدٌ لا ينم عن أيّ شعور، ومقلتها لا تتحرّكان بالمحاجر، صامتة وكأنّ الكلمات ذابت في فيها، تفتّش في وجوه اعتلتها سعادة لا تفهم مصدرها.

ومن بين كلّ هذا كان فارس بالجوار، التقم معصمها في محاولة لطمأنتها، يشعر بخوفها وقلقها، رفعت نظريها إليه فابتسم ثمّ أوماً برأسه وعيناه تقول "لن أتركك"، أمسكت ذراعه مقربةً منه، تحاول الاحتماء من مشاعر غريبة تثير الخوف تتضارب بداخلها.

ومن بين الجموع والتساؤلات والكلمات المتشابكة من كثرة المتحدّثين خرج أحدهم، ما أن رآه فارس حتى صاح باسمه في صدمة كمن لا يصدق عينيه:

- روبرت!!

توقّف "روبرت" أمامه لوهلة يحاول فيها الاتّزان واستيعاب من تراه عيناه، ثمّ صاح هو الآخر مندفعاً إليه يضمّه رافعاً إياه في سعادة..

"روبرت" أحد قادة الجيش، عريض المنكبين مكتنز العضلات، طويل القامة، يملك عنقاً طويلاً، وكأنه الجزع العتيق، تتدلّى خصلات شعره على وجهه المنحوت.

وبعد السّلام الحار تعالت ضحكات فارس قائلاً:

- أنت على قيد الحياة يا رجل!! ظننتك ميتاً.

- كنت على رأس الجيش مع الفارّين، أصبت وكنتُ على حافة الموت لكنهم أنقذوني، فكما تعلم مقدنيو فاجأنا بهجومه على المملكة، لم نكن على استعداد تام، أسّر الكثيرُ وقتل الكثير، أتينا إلى هذا المكان لصعوبة الوصول

إليه، أردنا الاستعداد للعودة واسترداد ما سلبه ذاك المخادع وإنقاذ الملك وابنته، وها أنت يا بطل استطعت الفرار بها، بالمناسبة... كيف استطعت الهرب من براثنهم؟

— قصة طويلة، نرتاح أولاً ثم سأخبرك بها.

تقدّم روبرت طالباً منهم أن يتبعوه وإلى جواره هنري، وفي الخلف فارس مسك كَفّ كاميليا، شاردة أناملها كالثلج يزداد ضغطها على أنامله، وكأن شيئاً ما بعقلها يثير قلقها.

انتشل حبل أفكارها من بحر الشرود، سألها ببال حاضرٍ بدا على صاحبه الاهتمام:

— ماذا هناك؟

ابتسمت نافيةً برأسها في محاولةٍ لتجنّب الإجابة على سؤاله، لم يقتنع. بدت وكأنّ هناك ما تخفيه.

توقّف روبرت عند خيمتين مقامتين إلى جوار بعضهما بعضاً، ثمّ التفت إلى فارس وهنري مبادراً بالحديث وقد أشار إلى إحدى الخيمتين:

— هذه الخيمة خاصّتك.

ثمّ نقل نظريه إلى كاميليا مشيراً إلى خيمتها:

— والأخرى خاصّتك مولاتي.

لازالت عينا فارس متعلّقة بكاميليا، عيناها الشاردتان تنمّان عن حزن دفين، ذهنها ليس حاضراً، رفع وجهه إلى روبرت يطلب منه إيصال هنري بينما سيساعد الأميرة في تدبّر أمور معيشتها بالخيمة الخاصة بها.

أوماً برأسه راحلاً وخلفه هنري، تابعتها فارس بناظره حتى دخلا الخيمة، ابتسم إلى كاميليا ممسكاً كفّها الصغير ثم أدخلها خيمتها، من الداخل مهياًة لتليق بأميرة، سرير تنسدل مفارش بيضاء حريرية من سطحه حتى جوانبه يرتفع عن الأرض، وسائد كالغيم محشوة بالريش، مقام في كلّ زاوية من زواياه عمود خشبي له رأس تين، محاط بأقمشة شفافة كالأشعة، تزين جوانب الخيمة ستائر مزدانة، تتناغم وتتداخل كأمواج بحر هادئة، وأكتملت أناقتها ببعض قطع الأثاث المنشورة في أماكن متفرقة.

- يبدو وكأنهم جهّزوها منذ فترة.

قالها فارس مبتسماً يلمس أحد الكراسي بالخيمة، ثم التفت إليها مكماً:

- وكأنهم يعلمون بقدموك.

أومات برأسها ثم ابتسمت، ابتسامتها مشروخة بها شيء منقوص، اقترب منها يسألها في هدوء:

- ما بك؟!؟

بدأت العبرات بمقلتيها فور أن سمعت سؤاله، مسّ مخزوناً تحاول بكامل قواها إخفائه، لم تنفوه بكلمة، حاولت إخفاء دموعها.. أمسك راحتها معلماً ناظره صوب عينيها، فحاولت الهرب فأطبق على معصمها..

- أتبين!! ماذا هناك؟

بدأت دموعها بقطرات ثم انقلبت كالسيل، تنهّد كطفل صغير:

- أنا خائفة.

أصابه الفزع. كانت كبركانٍ ثائر انفجرت حممه من الضغط، حاول تهدئتها، يمسح دموعها ويربت على يدها، سألت من بين دموعها:

— ستركني؟

تجمّد، وهلات تمرّ على صمته، تنهّد ثمّ سأل محاولاً الفرار من سؤالها بآخر:

— لم تفكرين بشيء كهذا الآن؟!

— عندما أسترّد العرش، ستركني؟

حاول التماسك، أراد أن يبدو طبيعياً، فقدّر كليهما الافتراق، هي أميرة وهو أحد جنود الملك حتى وإن كان فارس...

— أيتها الأميرة..

لم يكمل الحديث حتى قاطعته، تصرخ في وجهه بعناد طفلة صغيرة:

— لا أريد أن أكون أميرة، أريدك أن تبقى إلى جوارى، أن لا ترحل عني.

ازداد بكاءها، تفرك عينيها المتفتحتين من شدّة البكاء، وهن صوتها..

أكملت:

— لا ترحل عني فارس.

مسّت كلماتها قلبه، تركها تتحدّث، لم تنزاح عينه عن عينيها، وكأنّ مخزون كلماتها قد نفذ ولم يبق سوى البكاء، مسح عباراتها في لطفٍ، فأعادت على مسامعه السؤال، ابتسم ولم يجب.

— أجبني فارس.

— سأظلّ إلى جوارك مادمت أستطيع.

- مَهْمَا حَدَثَ؟

- مَهْمَا حَدَثَ.

ضحكت عيناها الباكيتان، انقشع الغيم فبدتا كسماء صافية بعد زخات مطر، سكن قلبها بالأحشاء، نادته فأجابها بعناق أصاب كلماتها بالبحكم، اتسعت حدقتها، جامدة بين ذراعيه لا تتحرك، فأطبقها حولها أكثر، وكأنه يخشى أن تسرقها الأيام منه.

شعرت بحبه الكبير، لم يعلنها لسانه فأعلنها قلبه، أسدلت ستائر مقلتيها تاركة روحها تخلق بعيداً حيث عالمه، تحدثت نفسها "أَسْقَطَ سَدُّكَ المنيع، أم أن حبك محض وهم سؤلته لي نفسي؟"، وبأعماقه حدثت نفسه بما لا يستطيع "آه لو تعلمين بمقدار حبك!! لا أعلم ما تخفيه الأيام، أسنكون معاً أم نفرق، ما أعيه جيداً أني أحبك، وسأظل لآخر أيام حياتي مَهْمَا رسمت الأقدار".

أمسك ذراعيها دافعاً إيّاها، حدثها بنبرة صوتٍ حادة:

- عليك الخلود إلى النوم الآن.

هم بالخروج فأمسكت أنامله، التفت إلى موضع يدها، ثم رفع وجهه إليها فأكملت:

- ابقَ بجواري حتى أطمئن وأستطيع النوم.

صمت ثم أوماً برأسه..

- عليك تبديل ملابسك أولاً، سأنتظر بالخارج. انتهى ثم نادى.

خرج تاركاً إيّاها تفتش في أنحاء الخيمة، وجدت إناءً به بعض الماء ومادة عشبية تفوح منها رائحة ذكية، نظر إلى وجهها المنعكس على السطح.

— حالتني يرثي لها.

اغتسلت ثم ارتدت ثوباً أبيضَ كان قد جهّز سابقاً وعُلّقَ بالقرب من مكان نومها، مشطت خصلات شعرها المنهكة، فلم تلمسه أسنان المشط منذ فترةٍ من هول ما حدث، نسيت كم مدّتها.

أزاحت بابَ الخيمة منادية فارس، كان شاردًا في لعب الصغار بالقرب منه، التفت فاتّسع بؤبؤ عينيه فور رؤيتها، ثوبها وكأنّه قد صنع لأجلها، عيناها تلمعان، تزيّن ابتسامتها وجهها، تجمد حيث يقف.

— ماذا هناك؟!

— ماذا؟!! لا.. لا شيء.

— هيّا، تعال.

أشارت إليه فلاحق بها، دخلت إلى فراشها فاقترب منها بأحد الكراسي منتظرًا إيّاها أن تنام، علقت ناظرها عليه في ابتسام، ساد الصمت، يتأمل عينيها ثم أردف هامسًا:

— لماذا لم تخلدي للنوم بعد؟ ألا زلت خائفة؟!

أومأت برأسها فأمسك راحتها، ربّت عليها محاولاً بثّ الطمأنينة..

— أنا بقربك، لا تفكّري في شيء.

غطّت في نوم عميق، ترك يدها في هدوء ثم خرج من الخيمة.

جلس هنري شاردًا بنار أقاموها للتدفئة والحراسة، وبيده غصنٌ جافّ
ينبش به الأرض تارةً ويحرّك به جمرَ النارِ أخرى، لاحظهُ فارسُ فشاركه
مجلسه.

التفت هنري إليه ليجده بنصف ذهن، حاول التّخفيف عنه يسأله عمّا
يحمّله بصدّره، فابتسم...

- لا شيء مهمّ.

- الأميرة كاميليا، أليس كذلك؟

سرتِ الدهشة بعصب أذنيه ما أن تفوّه هنري بعبارته، اتسعت حدقتاه
وتجمّد بؤبؤهما...

- كيف عرفت؟!

أكمل غير مكترثٍ بسؤاله:

- أتخشى فقدانها بعد استرداد العرش؟

مسّ السؤال ندبَ قلبه، انكسرت نظرة عينيه وقد أوماً برأسه:

- نعم.

تربّعت على شفتيه ابتسامة تنمّ عن شيء في أعماقه، عاد لنبش الأرض
بغصنه الجاف...

- يبدو أنّك أحببتها كثيرًا.

- أكثر من أيّ شيء كان أو سيكون.

رفع وجهه إليه يتأمّل نظرة فارس المتلهفة، وكأنها ترجوه أن يجدَ حلًّا،
تنهّد قائلاً:

- أكثر ما يؤلم أن تتعلق بأحد ليس لك.
زفر ثم أكمل حديثه:
- لا تتخلّ عن حبّك فارس.
نكّس رأسه، أجاب في انكسار.
- هي أميرة.. وأنا لست سوى فارس.
- اصنع أنت الظروف التي تجعلها لك، لا تستسلم لكونك فارسًا في جيش والدها، اخلق عالمًا يليق بها لتظفر بها.
- كيف لي ذلك؟
سأل متلهفًا لسماع إجابة، يريد طريقًا يجمعها به، يأبى تركها..
- كيف هذه تعود إليك، هذا حلمك أنت، ابرع في تحقيقه يا فارس.
حدّثه بها ثم استأذن بالانصراف تاركًا إيّاه تائهًا تتلاطم سفينته بين أمواج أفكاره العاتية.
- تمدّد هنري على سريره ينتظر النوم ولا يأتي، لا تغادر ذاكرته صورة "آن"، يقتله القلق على حالها فكيف لها أن تصمد أمام زبانية مقدنيو وامراته.
وهي على الجانب الآخر تذوب كمدًا، يزداد ضعفها يومًا بعد يوم، قلبها هشّ يعتصر الماء، وجسدها مشخّن بالجراح.
- ***
- أرسل أوكتافيوس رسولاً إلى أنطونيو يطلب منه الحضور إلى قصره في أمر هامّ فحضر على الفور، انحنى ملقياً التحية فحدّثه بأمر الملك:
- أصدر الملك مقدنيو أمراً بتجنيد شباب المملكة.

وقف أنطونيو مستقيماً يفكر في ما سمع ملياً، فرج ذراعيه بشكل برز عضلاته المقتولة.. أمسك بكفه الأيمن معصمه الأيسر ثم استطرد قائلاً:

- لكن يا سيدي، تعلم أنهم سيرفضون.

- مَنْ يعصِ الأمرِ اقطعْ رأسه، أحضروهم من داخل بيوتهم ولا تتركوا أحداً.

- بأمرك مولاي.

غادر القصر متّجهاً حيث مقرّ الجيش، صرخ فيهم بأمر الملك فانتشروا ملّين.

انتشر الخبر كرزاز العطر بأنحاء المملكة، سرى الرعب بالأجواء، ارتعدت فرائص الأمهات خوفاً على فلذات أكبادهنّ، اقتحم الجند المنازل مُلقين القبض على كلّ مَنْ هو ذكر بالغ، ومن يرفض يُجرّ مكبلّ اليدين ثمّ يقطع رأسه أمام أهل بيته وأصدقائه عبّرةً وعظة لمن أبى.

أيام منحوسات، أضافت طبقة سميكة من السّواد على ما سبق، علا النّحيب والكل مُقيّد، فلا حول لرجل ولا قوّة، بلغ الظلم مداه، ومقدنيو لا حدّ لفساده، يأسر ويذبح ويطارد حتى بلغ كره أهل المملكة له ذروته.

تجهّز سمير لمقابلة مخطوبته، أغلق باب غرفته ماراً بغرفة أخيه فطرق الباب ثمّ ولج إليه ليجده قد تجهز للذهاب إلى العمل، حاول حينها جذب انتباهه فابتسم إليه قائلاً:

- منذ متى هذا النشاط والحيوية! أين العبوس الذي يجعل من فمك كأنف بينوكيو؟

تعالَت ضحكاته فور سماعه لدعابة أخيه، ثم تحدّث وكأنه يفهم إلى ما يرمي:

— ماذا تريد يا سمير؟

— أبداً، أردت إخبارك كون والدك من المحتمل أن يطلب يد جميلة اليوم.

سقط فكّه السفلي مندهشاً، خليطٌ من السعادة والصدمة بداخله، سأله أن يعيد ما قصّه على مسامعه مرّة أخرى علّه يحلم.

— كما سمعت، تجهّز يا بطل ستلحق بي في القريب العاجل.

ضربه على كتفه مواسياً، ثم أكمل مازحاً مدّعياً التأثير:

— أعزّيك بحياة العزوبية خاصّتك يا صديق، أمر مؤسف حقّاً، هيا انتهِ ثم الحقّ بي لتتناول الفطور معاً.

سرت السّعادة بشرايين جمال، قلبه يخلّق كالطير بين ضلوعه، حلمه على حافة التحقيق، فلاوّل مرّة يتحقّق ما يرغبه.

ارتفع صوت ارتطام الأشواك بالأطباق معلناً تناول أوّل وجبات اليوم، وازاه صوت حسان يتحدّث إلى ابنه الأصغر سمير.

— اتّصل بذاك المدعو أدهم، واسأله متى يريد المال، نريد أن ننتهي من ذاك الأمر سريعاً.

أوماً برأسه متمهلاً بمضغ ما في فمه، تابع جمال حديثهما فالتبس عليه الأمر، لا يفهم ما يتحدثان بشأنه فحاول الاستفسار، حينها أطلق والده كلماته ساخرًا في حق:

- أبداً يا عزيزي، أمرٌ بسيط، لازلنا فقط ندفع ثمنَ خطيئتك يا أبله.
انخرس ما إن سمع توييخه، تحشرج الطعام في بلعومه، هرول يرفع كوب المياه على فمه محاولاً بلعه، فقد ذكره بما يتناساه ليرتاح من عذاب ضميره، أكمل حسان غير مكترث بردّ فعل ابنه:
- سأطلب يدَ جميلة ابنة سالم كمال لك اليوم.
اتّسع بؤبؤ عيني فريال، توقفت عن الأكل ملتفتة إلى زوجها في عتاب تسأله:

- متى قرّرت ذلك؟!
أجابها في لامبالاة قاتلة دون الالتفات لها:
- هذا ليس من شأنك.
- جمال ابني أيضاً، أنا أمّه.
- ألن تزهدي هذه الأسطوانة؟!
قالها في تملل، فصرخت فيه غاضبة:
- كان عليك إخباري، بتّ كالغريبة في حياة أولادي.
تأفف ساحباً كرسيه، وكأنها طيفٌ بالقرب لا يراه، تجاهل كلماتها موجّهاً كلماته إلى ابنه جمال:
- انتهِ من طعامك وأجدك في مكتبي.

أوماً برأسه فأغلق حسان زرّ بدلته تاركاً منضدة الطعام وعلى وجهه الضيق، حاولت التماسك أمام ولدئها، تفرك كفيها بعنف حتى تخضّباً، علق ولدها الأكبر مقلتيه على سكونها المصطنع، ربت على كتفها مهوّناً، فكأنها قشّة وقد قصمت ظهر البعير، ازدحمت العبراتُ بعينيها فوارتها، دفنت وجهها بين كفيها، حدّثها جمال مواسياً:

— أنا الآخر لم أعلم بأمر طلبه يدها لي رغم أنّ الأمر يخصّني، صاحب الليلة غائب!

اشتدّ بكاؤها ثمّ كشفت عن وجهها، نظرت إليه تحدّثه:

— كلّ ما أريده أن أشعر أفي أمّ، أنا تابع لست جزءاً من هذا الكيان، أنا كالغريبة في منزلي.

— بالطبع أنتِ أمّي وسيدة هذا المنزل، لا تؤاخذني أبي تعلمين ضغوطاته، لا أريد أن أرى هذه الدّموع مرّة ثانية.

مرّر أنامله على عبراتها، ابتسم لها فاطمأنت، رغم غطرسها وقسوتها أحياناً فهناك أنثى ضعيفة تسكن أركانها، تداويها كلمة وتسكنها ابتسامة، وطفلها رغم تمزقه، لا زال يحتفظ ببراءته وقلبه النابض.

استأذن يلحق بوالده الذي لا يسكن غضبه، وسمير هو الآخر غادر لإنهاء مهمّة كلفه بها والده، ليكمل أخرى تتمثّل في مواصلة مسلسل العشق على مخطوبة لا يحمل ناحيتها ذرّة حبّ أو احترام، حاول إتمام المهمّة الأولى، اتّصل بأدهم.

لم يذهب أدهم إلى جامعته قلقاً منتظراً اتّصال سمير، كان يدرك أنّ المغامرة مع هؤلاء خطرة قد تفقده حياته، لكنّ المكسب دافع قوي يزيل أيّ

خوف ينبعث أثناء التفكير في الأمر، أجاب أدهم على تمهّل حتى لا يشعره باضطرابه.

- أفكرت فيما طرحته عليك؟

- أتريد الحديث عبر الهاتف.

لم يمانع فأكمل في لا مبالاة:

- لك ما تريد، متى تريد استلام المبلغ؟

- سستقابل وننتق.

- بعد حفل الخطبة الخاصّ بجمال سأتصل بك لأحدد الموعد.

تعالّت ضحكات أدهم، ثمّ أجاب معلقاً:

- تلعبون باحتراف، عجيب أن هاوٍ مثلي استطاع إحراز هدف بمرمى

متمرسين، أليس كذلك؟!

أردف الآخر في ثقة:

- هدفك أنا من تغاضيت عن صدّه.

- ماذا تقصد؟!

- لا تتدخل فيما لا يعينك، ستحصل على ما تريده، أكثر من ذلك لا

يخصّك.

أغلق الهاتف بوجهه فور أن انتهى، نظر أدهم إلى هاتفه محدثاً نفسه "على

مهل يا ابن..، يا ابن حسان".

ارتدى حسان قناع السعادة ثم اتصل بسالم كمال، أراد أن يفتحه بأمر طلب يد ابنته، أجابه سالم ضاحكاً:

- أنت بالشركة!!؟ خطبة ابنك بالأمس واليوم تواصل عملك كأن لم يكن، طاقة لا حدود لها.

أجابه ضاحكاً والاستنكار في نبرة صوته:

- أراك تصيبي بسهام عينيك، أتحمس يا رجل!؟

- أنت محصن حتى الحسد لا يخترقك.

بعد وصلة المزاح، لفت حسان انتباه سالم إلى أمر مهم يريد فيه، ثم بدأ بطرح رغبته:

- ابني مُعجب بابتك وأريد طلب يدها له.

- أهذا شيء يقال في الهاتف!؟

- بالطبع لا، أنا أفاتحك الآن حتى نحدد موعداً للقاء، وبما أن خير البر عاجله، فانتظري في المساء سأحضر أسرتي وآتي إليك لتتفق على كل شيء.

صمت سالم قليلاً عندما لاحظ تعجل حسان، ثم استطرد قائلاً:

- أنا لن أجد لابنتي خيراً من ابنك، لكنني أراك متعجلاً، ألا تلاحظ أن خطبة ابنك الثاني كانت بالأمس فقط، تمهل يا رجل لقد خلقت الدنيا في ستة أيام.

- لم التأخير في شيء كهذا وكلانا له مصلحة فيه قبل أولادنا، ألا ترى ذلك؟

حرّكت كلماته شهوة سالم تجاه المال فوافق على الفور، أنهى حسان المكالمة ثم طلب من السكرتيرة استدعاء ابنه جمال ففعلت، دقائق حتى ولج إلى مكتب والده يسأل عن سبب استدعائه.

- أريدك أن تذهب للمنزل الآن لتتجهّز، سنذهب ليلاً إلى منزل سالم كمال لخطبة ابنته جميلة.

أوماً برأسه مغادراً مكتب والده، كاد لا تلمس الأرض قدماه من فرحته العارمة، فرغم تسلّط والده اختارت الأقدار ما أراد، أستكمل قصته أم أنّ أساسها وهمّ بني على كذبة تنهار أمام عواصف الأيام العاتية، فسره قادر على خسف حياته إن انكشف.

ففي المرّة الأولى كانت خشيته الكبرى من والدٍ روّض الرعب بقلبه حتى بات سبغاً ينهش الأمان بقاع نفسه، أمّا الآن فقد بات يخشى فقدان جميلة، لا يريد أن تغادره، أخبرها؟ ماذا إن لم تع الأمر، وانقلب على ما لا يحمد عقباه!!؟

دخل سالم على زوجته ناريان مبتسماً.. لم تعتد ذلك، فتساءلت متعجّبة عن السبب..

- ابنتك قد تمّ طلب يدها.

شابت السعادة نبذة صوتها وهي تستفسر عن الطالب، وما أنّ علمت حتى تبدّلت لأخرى، فقد امتلأت اندهاشاً من أمر حسان.

- لم العجلة!؟ هو لم يكذّ ينتهي من خطبة ابنه الأصغر بعد، شعرت أنّ ابنه منجذب لجميلة لكنني لم أتوقع أن يطلب يدها بهذه السرعة!

- وابنتنا؟

— أظنّها أيضًا انجذبت له، كانت منسجمةً في الحديث معه أمس بشكل لم أرها فيه من قبل.

قطعت جميلة حديثها بدخولها، توقّفاً عن الحديث فشعرت بالخرج، ربما يتحدثان في أمرٍ لا يرغبانها أن تعرفه، استدارت للخروج فنادت والدتها:

— تعال حبيبتي، كنا سنناديك على أيّ حال.

ساوت رداءها، ثمّ جلست إلى جوار أمّها تترقّب ما سيقال، فحدثتها ناريان:

— هناك شاب تقدّم لطلب يدك.

انقبض قلبها ما أنّ سمعت كلمات والدتها، هو لم يعد بحوزتها الآن فقد تعلّقت بجمال، كيف لها أن تكون لغيره، أجابت في حزم:

— أنا لا أفكر بالزواج الآن.

ابتسمت والدتها، ثمّ سألتها في دهاء:

— ألا تريدن معرفته حتى؟

أجابت جميلة ولا زالت نبرة الحزم تتخلّل صوتها:

— لن يختلف الأمر، فأنا لـ...

قاطعتها قبل أن تكمل عبارتها، شقّ اسمه سمعها فاضطربت، خيم الصمت عليها وتغير وجهها.

— من قلتِ؟!

— قلت جمال، ما رأيك الآن؟

رفعت عينها إلى أمّها في خجل، فأكملت رافعة عنها الحرج:

- قادمون اليوم لخطبتك، عليك تحضير نفسك.

نهضت من مكانها ملبية، وناريان تتابعها وعلى شفيتها ابتسامة، فأخيراً صغرتها دق قلبها لأحدهم، كبرت وستصير عروساً.

جلست سلمى على أريكة أمام التلفاز، شاردة تفكر في أمرها، كيف ستفتح والدتها بشأن محمود، فليس من الجيد أن يتصل بها دون علم مبدئي بالأمر.

لاحظت أمّها شرودها، فقد انطفأ البخار الساخن المنبعث من قذح القهوة أمامها، نادتها فالتفت لها.

- ما بكِ صغيرتي؟

تلعثمت تفتش عن كلمات، فليست في كامل التركيز لتختلق عذر من سراب..

- هاه، لا... لا شيء.

اقتربت أمّها من القذح أمامها، لمست به أناملها ثم استطردت قائلة:

- قذح القهوة الفاتر يقول ذلك أيضاً.

هرولت سلمى في توتر حاملة إياه، فحاولت أمّها تهدئتها:

- سلمى، أنا أمك، إن كان هناك شيء سأكون مسرورة لو تحدّثت معي بشأنه.

جلست بالقرب من والدتها، وضعت القدح كما كان على مَهْل، تفرك أصابعها توترًا، رفعت وجهها تحاول شرح ما ترغب قوله:

- حقيقة، هناك شيء أودّ إخبارك به.

اعتدلت أمّها في جلستها، فأكملت:

- أتذكّرين محمود؟ الشاب الذي قام بإيصالي للمنزل منذ مدّة.

- نعم. ما به؟

صمتت هنيهة ثمّ أردفت:

- طلب رقمك وأعطيته له، يريد خطبتي.

- تعلمين أنه لازال أمامك الكثير، أليس كذلك؟

ساد الصمت، اعتلت نظرة الخذلان وجه سلمى، حاولت أمّها إعطاء

الأمل لها فأكملت:

- هل يعمل؟

ابتسمت مسترّدة حماسها:

- لازال يدرس، هذا آخر عام دراسي له، أمّي.. كلّ ما يريدك منك كلمة،

وسوف نؤجّل الخطبة حتى الانتهاء من جامعته، من فضلك أمّي.

علقت ناظريها بناظري ابنتها، عيناها تتوسّلان.. استسلمت:

- حسنًا، انسي الموضوع حتى تتّصل والدته، سيكون هناك كلام آخر.

انشرح صدر سلمى لما سمعت، فوالدتها لم ترفض، وهذا في حدّ ذاته أمرٌ

مطمئن حتى إن لم تعطِ ردًّا قاطعًا في هذا الأمر.

تحدّثت سعاد إلى زوجها عن الفتاة التي يرغب محمود في خطبتها عبر الهاتف بأحد أركان المشفى بعيداً عن الضوضاء، ثمّ عادت حيث يمكنون، ما أن رآها محمود حتى قفز من مكانه متلهّفاً، يسأل في جدية وترقب:

- بماذا أجابك أبي؟

- وافق أبوك.

ابتسم في انشراح، ثمّ نظر إلى أمّه ممتناً، قبل جبينها مما جذب أنظار مَنْ حوله، لحق بهما ياسين سائلاً في فضول:

- ما بال هذا المجنون!؟

حينها أجابت أمّه:

- دعه، فقد وافق والدك على طلب يد سلمى.

ما أن سمعت هالة ذلك حتى علّقت مهنته، حينها أعادت أختها وميض الذكريات:

- أتتذكرين يا هالة عندما كنت تحملينه بين ذراعيك فيلّل ملابسك!؟

تعالّت ضحكات ياسين، وعلى وجه محمود الغضب، فأجابت خالته:

- وياسين أيضاً، لطالما بلّل ملابسك.

أتيحت الفرصة لمحمود ليشتّم في أخيه فتعالّت ضحكاته، بينما الأخير ابتلع ضحكته، لمعت عينا أمّه ثمّ تنهّدت تلتقط شريط الذكريات:

- تمرّ الأيام سريعاً، كبر أطفالنا وكبرنا معهم.

علقت ناظرها على أختها هالة مهوّنة لبعث الأمل، تعلم ما يدور في خلدّها، فمهما كان حجم الفرح حولها لن يضمّد جراحها بمصّاب ابتها.

- لن تكتمل فرحتنا إلا بعودة أميرة في كامل صحتها وأفضل من قبل.
 أو مات برأسها.. بدت بسمه محتضرة على شفيتها، تأمل عودة ابنتها
 وتحشى فقدانها، تتذكر تقصيرها كلما مر اسم أميرة.

اقرب ياسين من محمود مستفزاً إيّاه، رفع أحد حاجبيه هامساً:

- لم يد عليك أي شيء الأيام الفائتة، آه منك!

تعال ضحكاته حتى لفت الانتباه، ثم تحدّث بصوت مرتفع عن عمد:
 - دعك مني أيها العاشق الصامت، أم تريدني أن أسرد الحكاية أمام
 ياسمين؟

اضطرب فلم تتمالك ياسمين نفسها من الضحك، رفع وجهه إليها
 فاحمرت وجنتاه خجلاً، ثم استجمع كلماته ليصرخ بوجهه:
 - أيعجبك هذا يا غبي؟! سمعت ما قلته.

أجابه مازحاً لا تنقطع ضحكاته:

- الأيام بيننا أحبالها طويلة، اشتر صمتي.

عقد حاجبيه ثم أجاب بصوت جاد:
 - حسناً.

- كم تبدو جميلاً وأنت مطيع، طفل جيد.

استفز تهكمه ياسين فهدهد برد الصاع صاعين.

- لست مثلك لا تتعب نفسك.

- غبي.

انطلقت ضحكاته، يعلم أنّ أخاه لا منافس له في فنّ الرّد، جلسا كطفلين يتشاجران أمام أنظار الجميع، وكأنّ الحبّ بينهما تضخّم حتى انقلب، فحبّ الأخوة نقي لا يخرج إلّا على المحكّ حيث الدّاع خالٍ من النفاق.

ما أن انتهيا حتى التصقَ محمود بوالدته يهمس لها أن تتعجّل بالاتصال فوافقت بعد حديث، وقفت بإحدى الزوايا الهادئة، أجابت والدّة سلمى بعد وهلات، دار بينهما الحديث بشأن ارتباط محمود بسلمى.

- أعلم أنّ مثل هذه الأمور لا يصحّ سردها بالهاتف، بالتأكيد أخبرتك سلمى بالظروف التي نمرّ بها.

- لا بأس حدّثني عن كلّ هذا، ووجدت منها رغبةً بالارتباط بابنك، ينتهي من دراسته ثمّ لنا حديث إن شاء الله.

تابعا الحديث ومحمود بالقرب ينتظر في لهفةٍ خبر الموافقة، أنهت المكالمة ثمّ التفتت إلى ابنها مبشرةٍ إيّاه، تعالت ضحكاته وكأنّه لم يضحك من قبل، قلبه بين ضلوعه أوشك على الانفجار، ضحكت أمّه على ضحكِهِ، تحدّث نفسها "متى تكبر يا مجنون؟!".

انفجرت التّهاني في منزل سالم كمال بعد أن اتّفقا كلاهما على كلّ شيء بشأن الخطبة، جميلة جالسة بجوار والدتها وفريال في خجل، بينما جمال لا يرفع ناظريه عنها يحدث نفسه (باتت ملكي).

كلّ ما كان يشغل بال حسن الإسراع في إتمام الزيجة، أراد إحكام قبضته على أملاك سالم كمال من خلال ابنته، فالتّهديدات تزداد ولا يعلم أيّ عفريت سيظهر له في السّاحة الفترة القادمة.

— الخطبة بعد غد.

قالها حسن كالوائق، فقد خطّط لهذا الأمر منذ مدّة، حينها أمهله سالم قائلاً:

— أراك متعجّلاً، هذه الأمور تحتاج تريثاً، لا تؤخّذ هكذا.

انطلقت ضحكة من بين شذقيه ما أن سمع كلماته، حاول احتواء الوضع فحدّثه قائلاً:

— ألم تشقّ للفرحة يا رجل؟

— فرحت أمس يا حسن.

— ولكنك لم تفرح بعد يا سالم.

انفجر سالم حينها ضاحكاً، حرّك رأسه مستسلماً..

— لن أستطيع مجاراتك أبداً، كما تريد؛ الخطبة بعد غد.

انطلقت زغاريد الخدم، والأسرتان تتبادلان التهاني، احتضن سمير أخاه، ثم همس إليه "مبارك، فزت بمن أحببت".

نظر جمال إلى عينيه ممتناً، فطمأنه الأخير مرتباً على يده.

أسدل الصباح أستاره، وخرجت الشمس تتهادى لتستقرّ بكبد السماء، داعبت نسائمٌ قادمة من البحيرة خيمة كاميليا فاستيقظت، جلست أمامها ثم توسّدت إحدى الصخور، دار بخلدها ما دار من التحامات الأيام الفاتنة، أفلقها القادم، وما أن لاح فارس بخلدها حتى استقرّ قلبها طمأنينة، ابتسمت ثم تنهّدت تحدّث نفسها بشأنه "بالتأكيد نائم الآن، لم يتدوّق طعم الراحة منذ

أن التقى بي، فحتى الوقت القليل الذي يرتاحه كان ينامه كالذئاب بنصف عين، خشية خطرٍ قد يحيط بي".

صمتت ملقيةً بذهنها على سطح البحيرة، تشاهد اضطرابَ المياه وانعكاس السماء، الورود المتمايلة والعصافير الملونة تروي عطشها من الحواف.

ما أن شعر فارس بحركةٍ خارج الخيمة حتى فتح عينيه، التقط سيفه متجهزاً للهجوم، سار في حذر، رفع باب الخيمة في تأهبٍ يقلب ناظريه يميناً ويساراً، وما أن رأى كاميليا حتى تنفّس الصعداء مرجعاً سلاحه إلى غمده.

سار على مهل، اقترب منها في هدوء، همس إليها:

- فيمَ الأميرة شاردة؟

التفتت إليه تلتقط أنفاسها، تضرب صدرها في رعب:

- فارس! أفزعني.

ضحك ثم جلس إلى جوارها، علّق ناظريه هو الآخر على البحيرة ثم أراحهما إليها، استعادت توازنها ثم أكملت:

- ما الذي أيقظك في هذا الوقت الباكر؟ لم ترَ النوم منذ مدة! كان عليك أخذ قسطٍ طويل من النوم.

- الجميع نائم، شعرت بحركةٍ بالخارج فكان عليّ أن أتفقد المكان.

سرق انتباهها رداؤه، فحدّثته معلقة:

- بدّلت ملابسك؟ رائع عليك هذا الرداء.

ابتسم إليها:

- ليس أروع منك، ألا ترين أنّ عليك ارتداء شيء ثقيل؟ لازلنا في الصباح والجوّ بارد، ستمرضين.

- جيد، أريد أن أمرض.

ضمّت قدميها إلى صدرها، شردت من جديد بالبحيرة، حينها سألها في تعجّب:

- لماذا؟

- عندما أمرض ستمكث إلى جواري وتعتني بي، وهذا ما أريده.

تجمّد مكانه، لطالما أحبّ تلقائيتها في الحديث، كلماتها الفطرية التي تنبع من صميم فؤادها فتخترق قلبه كالسهم، طفلة في جسد شابة تحمل وجهًا بريئًا.

ساد الصمت، ثمّ عاد فارس يلتقط أطراف الحديث:

- عليك الآن إكمال نومك، سيكون هناك الكثير بعد أن تشرق الشمس، فعلينا الإنجاز. "آن" لن تنتظر.

عادت كاميليا لواقعها المأساوي، تشفق على "آن" وما وقعت به، اعترتها الهمة لتسأله بالبدء في الحال.

- ستستطيعين؟

- بالطبع.

حينها ترك فارس مكانه، ثمّ مدّ يده إليها ليجذبها إليه، طلب منها الاقتراب، أسند ظهرها إلى صدره ثمّ أمسك يديها يلوح بهما في حركات مدروسة منتظمة.

- ماذا تفعل؟! -

- عليك التدريب للتحكم بقواك، ركزي فيما أفعله ستقوين به بمفردك.

تركت يديه ثم استدارت له، سألته في حيرة:

- ألم تقل إن القوة يجب أن تكون من الأعماق.

دفعها لتعود بوضعها الأول، حيث ظهرها إلى صدره، عاد لالتقاط يدها متحدّثاً:

- القوّة مصدرها الأعماق، التحكم بالقوة مصدره الجسد والذهن، ستحتاجين الكثير لتستطيعين التحكم بنفسك، ستكونين بأرض المعركة بمفردك، لن أكون معك لتوجيهك، فذهنك حينها كلّ لعدوّك. - أخشى أن أفسل.

- لن يحدث، ركزي على حركات اليدين، يجب أن تكون انسيابية تخرج دون تفكير، جسدك وقوّتك باتجاه مواز.

تركت يديه للمرّة الثانية، تدمّرت. تأفّفت في يأس:

- إنها صعبة جدّاً، لن أستطيع التمرّن عليها.

أعادها إلى وضعها، ثم أحكم قبضته على معصمها:

- إذا، علينا تكثيف جهودنا حتى تعتادين.

- لكن.

- بدون لكن، الأمر متعلّق بشعب وأرض وكرسي من حقّك، الفشل لا نسب له هنا.

برغم ما قد أثاره بنفسها من أحزان، إلا أنها عقدت العزم لكلّ هذا، ركّزت ذهنها فيما يُطرح عليها، تتحرّك بتحرك فارس، وتحفظ ما يُتلى على مسامعها، استمرّ التدريب لساعات، تعبت فتعثرت أرضاً، جلست مستندةً بكفيها ثم نظرت إلى فارس بعينٍ نصفٍ مفتوحة انعكس بها ضوء الشمس، حدّثته في وهن:

— لقد تعبت.

وضع يديه في خصره، نظر إلى الأعلى متنهّداً، ثم حرّك رأسه في استسلام:

— أنا آسف، عليك التحمّل حتى الانتهاء.

— أعطني مهلة لأرتاح من فضلك.

ضرب بكفه الهواء ثم نكس رأسه، نفخ في غيظ فتطايرت قطرات العرق المترققة على بشرته:

— سأمهلك القليل، القليل فقط.

توسدت إحدى الصخور تلتقط أنفاسها، وقف إلى جوارها صامتاً تحمل ملامحه الجدية، لم تشعر بالراحة، لطالما عهدته ليناً متفهماً واخشوشانه بعيداً حتى ظنته لا وجود له، فكيف لذاك القلب الناعم إبراز شوكة، لم لا!! فالياسمين رغم روعته تحمل سيقانه الشوك.

لم يطل صمتها، التفتت إليه يحمل صوتها أناتٍ عتاب:

— لم بت هكذا؟!

— بتُّ ماذا؟!

- ألا ترى نفسك؟ ملامح وجهك، نبرة صوتك، حتى نظرة عينيك، وكأنك لم تعد أنت.

حاول قطع الحديث هرباً، علّق على ضيق الوقت فأشار إليها بالنهوض للإكمال.

- لم أسمع منك إجابة.

هدأ صوته، حاول تقمّص حالته العادية:

- هذا ليس بوقت مناسب للحديث عن هذه الأشياء، هيا انهضي.

جذبها إليه فانتصبت قامتها، شرع في إكمال ما استأنفه، يدرك أهمية مرحلة قادمة سيكون عليه التنحي وتركها لتواجه بمفردها، قدرها وقدره.

في أحيان ما، عليك تجاهل صرخات فؤادك مهما ارتفعت، والإنصات لعقلك جيداً، فالقلب أعمى وإن خلفت معصيته الألم، والعقل صائب وإن حفّ طريقه الشوك.

بدا الضيق على معالمها، يعي عقلها أفعاله لكن قلبها لطالما كان لها ملاذاً حصيناً تلجأ إليه كلما اعترها الخوف أو هزّ أركانها الحزن، لم تعهده قاسياً أبداً، إلى من تفرّ إلاه!؟

فهي امرأة، والمرأة في حضرة مشاعرها لا سلطة للعقل، أدرك طبيعتها فتعمد إظهار الوجه الجاد، فاختلال تفكيرها في ظلّ عواطفها الجياشة يحتاج إلى حزمه، وإلا انتهى كل شيء.

أمسك هنري بسيفه ملوحاً به، حاول جمع شتات فكره للتركيز بالتدريب ولا فائدة من ذلك، قذف بسيفه في غضب ثم أمسك رأسه، "آن" استحوذت على عقله، فكل ما يشغل باله متى سيعود لإنقاذها.

بينما روبرت يمرّ بين جنوده، يمرّر الملاحظات لهم ويتابعهم.
لمح هنري فاتّجه إليه، قطع شتاته منادياً:
- يا أنت.

التفت معلقاً ناظريه، ثمّ انحنى ملتقطاً سيفه، أكمل روبرت:
- ما رأيك بمبارزة؟

لم يتفوّه مجيباً بكلمة، ابتسم متحدّياً ثمّ رفع سيفه في وضع الاستعداد، التحمّا وارتفع صليل السيوف، يبرز كلّ منهما مهاراته، وفي لحظة فارقة اختلّ توازن هنري، طار سيفه معلناً هزيمته أمام خصمه، التقطه ثمّ عاد للمحاولة من جديد، مرّة فثانية فثالثة وفي كلّ محاولة يختلّ تركيزه ويفقد سلاحه، تنهّد مستسلماً، أعاد روبرت سيفه إلى غمده، ثمّ اقترب منه يشدّ على كتفه سائلاً إيّاه في عطف:

- أهناك شيء توذّ الحديث عنه؟

ساد الصمت، فعاد مكماً حديثه:

- إذا كان هناك ما تريد قوله، سأكون مستمعاً جيداً.

ابتسم إليه، ثمّ هزّ رأسه بالإيجاب.

- عليك التركيز فأمامنا معركة طويلة، أتفهمني؟

- أفهمك.

- حسناً يا رجل سأتركك الآن لتكمل ما كنت تفعل، ابذل قصارى

جهدك.

تركه متجهاً إلى أحد الخيام، بعد أن طلبه أحد مساعديه لأمر طارئ.

مرّت ساعات طويلة على فارس وكاميليا، منهمكان فيها يصنعاها، شقّ صوت روبرت أسماع فارس منادياً يطلب منه الحضور، همّ مغادراً فأوقفته:

- أين ستذهب وتتركني بمفردي هنا؟

- لقد سمعت.

- وماذا سأفعل أنا؟

- انتظريني.

ردّ بلا مبالاة وكأن كلماتها لا تعنيه، صمتت تلمع عيناها حزناً، اقترب منها تتيّنها برأسه يلاطفها، لمست جبهته الكبيرة، تحدّثه وكأنّه يفهمها بصوتٍ مخفّف "بات قاسٍ معي".

لم يمرّ الكثير من الوقت، عاد فارس واللّهفة تملأ ناظريه، سألته في هدوء يشوبه بعض الحيرة "أهناك شيء؟".

لم تكمل سؤالها حتى جذبها من يدها، تعاود طرح الأسئلة ولا مجيب، تسابق قدماه الريح وهي تهول خلفه حتى توقّف، أكملت حديثها في غضبٍ جاذبةً معصمها من كفّه:

- ماذا تفعل؟ أفهمني ماذا يحدث هنا!.

صامتاً يتأمّل وجهها الغاضب، ثمّ أزاح وجهه يميناً واعتدل في وقفته، سألها في هدوء:

- انظري.

ما أن التفتت حتى تجمّدت، اتسع بؤبؤ عينيها في دهشة.

- ما هذا بحقّ الله.

خطف ناظرها صولجان ترأسه زمردة عملاقة تميل إلى اللون الزهري،
ساقه من الذهب الخالص، يحفّها أغصان بلاطينية مصممة بحرفيّة.

قطع فارس صمتها الممزوج بالدهشة:

- ذاك ما هرب به الجنود من القصر، يكمن فيه نصفُ قوّتك، صنّع
خصيصاً لك، ولن يعمل إلا بين يديك.
- أنا لا أتذكره.

- أعلم، ما رأيك أن تجري قوته؟

تأمّلت في صمت، اقتربت منه في حذر، وما أن أمسكت به حتى سرت به
طاقة ما، كميت عاد للحياة، شِعّ النور عن آخره، تطاير شعرها، ينعكس ذاك
السّاع بمرآة عينيها، حتى هدأ واستقرّ.

سألته بفضول طفلٍ صغيرٍ غارق في بحر الدهشة:

- ما هذا؟

ابتسم حينها مجيئاً:

- يستمد قوّته منك، روح الصولجان أنت، يمكنه تدمير أيّ شيء، كلّ
ما تحتاجين إليه الآن التدرّب على استعماله، فالتحكّم بطاقة هائلة كهذه أمرٌ
ضروري.

عادت لتأمّله، بعد وهلةٍ من الصمت رفعت عينيها تلتقط خيط الحديث
من جديد:

- كيف يمكنني التحكّم بهذا الشيء؟

حينها اقترب منها، شاركها الإمساك به، تحدّث بعينين متبتهتين بكلمات تتدلّى من روحه:

- اشعري به، اتحدّي معه.

- أفعل ذلك مع جماد!!؟

- لا تصدّقي الهيئات، كثيرًا ما كان تحت الضعف بركانٌ قوّة، تحت هذا الجمود يوجد ما لا تتخيّلينه.

عادت تتأمّله، بدا عليها الاقتناع، حينها تحدّث إليها فارس متحمسًا:

- أرخي أجفانك، اجمعي تركيزك، مُريها بقلبك.

أسدلت ستائر مقلتيها، وهلات مرّت كمرّ الدهر، تحاول الأميرة لمّ شتات قواها، ويخشى الفارس فشلها.

"شيء ما أطلق وميضًا"، قالها مما أشعل الإصرار بروح كاميليا، قطبت حاجبيها تصبّ قواها صبًّا، نور يسري كسريان الماء بأرض بور، يتوهّج بسلاسة ونظام حتى وصل إلى رأس الصولجان فشعّ وكأنه الشمس، فتحت عينيها:

- يا إلهي، يا إلهي.. لم أرَ شيئًا بهذه الروعة في حياتي.

- لم ترَ شيئًا بعد، عليك ترك المجال لقواك، حركيه بإيحاء شعورك.

رفعته إلى السماء، ثمّ وجّهت قواه إلى صخرة متطرفة، انفجرت. باتت رمادًا، حينها أطرى عليها فارس:

- تستعيدن مهاراتك بسرعة كبيرة، شارفنا على الانتهاء، كلّ ما عليك

الآن التدرب على الاتصال بالصولجان.

أومأت برأسها، فأكمل:

- وهناك أمرٌ آخر نحتاج إلى مساعدتك به.

جذبها ثم تقدّم عليها، تلحق به دون فهم، اتّجه بها إلى أحد التلال القريبة،
توقّف فتوقفت...

- تعالي هنا، انظري...

تقدّمت لتقف إلى جواره، لم يكن مشهدُ الصولجان الأخير الذي قد يثير
الدهشة هنا، أسفل التلّ وادٍ واسع تملؤه التّنانين، أعدادها كبيرة.. كبيرة
بشكل قد يملأ من يراها رعباً.

بدا الخوف في عينيها، فحاول تدارك الأمر، يمدّها ببعض الأمان في
كلمات، يثبت فؤادها بأفعال تجسد "أنا إلى جوارك".

- المشهد ليس مريحاً على الإطلاق، أليس كذلك!؟

ابتسمت في اضطراب:

- أنا أعلم ذلك جيداً، لا داع للشرح. فكما تعلمين أنا خبير.

تفوّه بكلماته هذه مهنّداً ملابسه، رفعت حينها حاجبيها ثم انطلقت
ضحكاتها.

- يا إلهي، كم مثير للإعجاب تواضعك أيها الفارس.

- دعك من تواضعي المفروغ منه، فلا داع للحديث عن أمر يقيني.

أومأت برأسها ساخرة تجاريه، يبادلها أطراف الحديث بخفّة حتى تنسى
الخوف، وما أن شعر بهدوئها حتى عاد إلى الموضوع الرئيسي من جديد:

- على الأميرة الآن أن تستمع إلى فارسها المتواضع.

- وماذا يريد ملك التواضع الأول بالملكة؟

احتدّ ناظره، يقلب بصره بالوادي:

- تسخير التنانين للجيش، لا سلطة لأحدٍ منّا على أيّ من التنانين، الوحيد القادر على فعل ذلك هو أنت، يحتاج التّنين إلى أمرٍ من أميرة حقيقية، ترويضهم بيديك.

- وهل سأستطيع؟

قالتها بعد نظرةٍ شاردةٍ تنمّ عن تفكيرٍ ثقيلٍ ألم بها.

- ستستطيعين.

أقيم حفلُ خطبة النّجلين بفيلا سالم كمال، حضر الصحفيون من كلّ صوب وحذب يلتقطون الصور لذلك الحدث المهمّ، كيف لا!!؟ فوريثي أعتى حيتان التجارة، يندمجان، بشرى لإمبراطوريةٍ أعظم في مستقبل قريب.

ملاً الحضور المكان، ومثلث المصالح حاضرٌ أضلاعه، لا أعلم لم قد أطلق عليهم مثل هذا الاسم، أراه مناسباً لثلاثتهم، فسالم وحسان وحمدي يشبهان بارمودا، من اقترّب يهلك.

جمال وجميلة كالرّوح الواحدة في جسدين، يتهاديان بقاعة الرقص، يتأمل كلّ منهما الآخر، همس جمال إليها "أنا أسعد من بالكون" فكلّل وجهها ابتسامة خجل، ساد الصمت ثمّ عادت تلفت انتباهه.

- جمال.

انتبه إليها فأكملت:

- عدني ألا تخفي عني شيئاً أبداً، ألا تكذب عليّ أبداً.

تأمل عينيها الجادتين، وكأنّ الكلمات تخرج من صميمها، تشّتت فانعقد لسانه، حينها بدأت تسرد أسبأها:

— أنا أكره الكذب وأحشى الغموض، مررتُ بالكثير في علاقة والديّ، ونحن سنكون معاً بقية العمر، كلانا سيكون أقرب للآخر من نفسه، هذان الأمران أكثر أهمية في علاقتي بك من أيّ شيء آخر، وسيتوقّف عليهما كلّ شيء بيننا.

ما أن أنهت كلماتها حتى سرّت قشعريرة بجسده، انتعش ما يخفيه بذاكرته، تغيّرت ملامحه فسألته:

— ماذا هناك؟! أقلت شيئاً قد ضايقتك؟

— لا.. لا شيء، فقط تذكّرت أمراً ما، لا يهمّ.. المهمّ الآن أننا معاً.

تعلّقت برقبته، عادا لاندماجهما في الرقص، شرد. عادت إليه ذكريات الحادث، لم ينسه.. حاول تناسيه، ظنّ أنّ ارتباطه بجميلة بدايةً لعودة الأمور لطبيعتها، وظنّه كان إثماً.. فكابوس أميرة سيلازمه كابوس فضح أمره أمام مخطوبته.



بين صخب الحفل وقفت أسماء إلى جوار سمير، انتظرت منه أن يتحدّث إليها بأيّ شيء، واقف وكأن لا أحد إلى جواره، دافئاً يديه في جيبه في لا مبالاة يتأمل الجموع، لم يكن هناك أحدٌ في الحفل إلّا وقد ألقي عليه النظر عدا خطيبته التي كادت تموت بجواره كمداً من قلة اهتمامه، نادته بصوتٍ مختنق فالتفت بملامح جامدة، حينها احتدّ صوتها قائلة:

— لم لا تتحدّث إليّ؟

- آه نعم، يبدو أنّ حلقة اليوم من مسلسل النكد حان موعدها، استمرّي.

أملت رأسها في حزن، لمعت مقلتاها وكأنّ عبّرة ما تتحصّر للخروج، ثم رفعت وجهها تتأمل وجهه المشيح عنها، حدّثته بصوت يقاوم البكاء:

- تعبت يا سمير من تجاهلك.

تأفّف مجيئاً، ثمّ نهرها قائلاً:

- يبدو أننا لن ننتهي، سأترك المكان لترتاحي.

تركها خلفه تحترق ويعتصر قلبها ألماً، فاتّجهت ناحية الحديقة لاستنشاق الهواء، التفّ حبل البكاء حول جيدها كاد يقتلها.

لم تكن الوحيدة التي تتصدّر المشهد، فهناك أحدهم راقب الحوار من البداية، تبعها وما أن اختفت عن الأنظار حتى ظهر لها، حالتها يرثى لها، غارقة في بحر من البكاء وما أن لمحته حتى تظاهرت بالتهاوسك.
- يا آنسة.

- من أنت؟ ومن سمح لك أن تأتي إلى هنا؟

التفتت إليه ثمّ صرخت فيه فحاول تهدئتها:

- على رسلك، أنا أدعى مدحت، مدحت كمال الحناوي، رأيته تركضين باكية باتجاه الحديقة فقلقت عليك.

خدش كبرياءها بذكر دموعها، رآها تبكي.. حينها صرخت فيه دون وعي بصوتٍ مختنق:

- لم أسألك عن اسمك، لم أطلب منك أن تلحق بي، ما هذا التطفل؟! ألم يعلمك والداك أن هناك خصوصية لكل فرد يجب احترامها، كم أنت وقح!

وكأنه أصم لا يسمع، تجاهل كلماتها مقتحماً حدودها، نظر إلى عينيها الداميتين قائلاً:

— لا أحد يستحق أن تبكي عيناك رائعتان كعينيك بسببه.

صمتت.. ألمها تعليقه، فكيف لغريب لم تلتق به من قبل أن يراها جميلة وأقرب القلوب لها لا يراها قط، عادت مقلتها للمطير فلانت نبرته يسألها:

— أأنت بخير؟

مسحت دموعها كطفل صغير، ثم ردت في حق:

— وما دخلك أنت؟!

تركت المكان راحلة وكأنها لا تراه، تبعها بناظريه حتى اختفت، عاد إلى الحفل وما أن لمح والده حتى استوقفه:

— أين كنت؟

— أستنشق الهواء.

تعالى ضحكاته والده، ثم أكمل في دهاء:

— أقصد أين كنت مع ابنة حمدي مكرم، رأيتك تتبعها، أنا أسمع دبيب النمل ها هنا.

سمع كلماته فانتسعت ابتسامته حتى بدت ثنياه ثم أجاب في دهاء:

— ماذا سيكون مثلاً؟

انطلقت قهقهات كامل الحناوي ففهم مدحت إلى ماذا يرمي، أكمل قائلاً:

— جميلة جداً.

- ومغرورة جداً. دعك منها، فهي ابنة شريك حسان الدمنهوري وخطيبة ابنه أيضاً.

صرخ في دهشة:

- مخطوبة!!؟

- نعم. حفل خطوبتها كان أول أمس، وهذا الحفل خاصّ بأخيه الأكبر.

حينها ابتسم مدحت، لم تكن ابتسامته تنمّ عن شيء طيب، أمر مريب يفكّر فيه، تسللت الكلمات على لسانه متحدّثاً عن رغبته المشؤمة:

- أول أمس!؟ الحدث ليس ببعيد.

تعلّق نظراً والده به، سأل وكأنّه على دراية بما يدور بخلد ابنه:

- على ماذا تنوي؟

- على خطبتها.

- وكيف لك ذلك؟

- أترك هذا الأمر لي.

تحمّس، رفع سقف طموحه مردداً:

- إن حدث ما تنوي له، سُرّفع في السماء رفعاً.

ملاً مدحت رثتيه بالهواء ثمّ زفر، علّق ناظريه بأسماء البعيدة عن موقعه، يفكّر.

شاب يبلغ من العمر ربع قرن، والده أحد شركاء سالم كمال، كلّ ما يدركه عن الحياة المجنون وعشق النساء، برع في تقمّص دور الحية، فما أن تراه حتى

تتوسّم فيه كلّ الخير والجمال، كشابٌ أتى من مدينة فاضلة، حتى تقترب فيلتفّ حول عنقك ويعصر روحك عصرًا.

حاولت أسماء الاندماج مع الحفل، لم تستطع فاستأذنت تبحث عن واحد من حمامات الفيلا، وقفت أمام المرأة تتأمل وجهها، تعمّقت بعينيها فانهمرت دموعها، أسندت كفيها إلى الحوض أمامها ثم ارتكزت بجسدها، وما أن هدأت حتى عادت لتصلح ما أفسدته دموعها المنهمرة من تبرج، خرجت من الباب لتجد مدحت الحناوي بانتظارها، تراجعت خطوة ثم تصنّعت عدم رؤيته مكملة طريقها فأوقفها، سبق سؤاله تعنيفها:

— انتهيت من البكاء؟

— عجيب أمرك يا هذا! ألم أقل لك إنّ الأمر ليس من شأنك، ألا تفهم؟! ابتعد عن طريقي.

أزاحته بازدراء، تأفّفت بعصية ثم أكملت طريقها في غضب. لمح حسان الدمنهوري ما دار من بعيدٍ في نهايته، أثار شكّه نظرة المدعو مدحت لأسماء، وخاصةً بكونه على علم بمكر كامل الحناوي، أشار لسمير بأن يأتي على الفور، استأذن من حوله ثم لبى نداءه:

— ماذا هناك؟

— لم تترك خطيبتك بمفردها؟ اذهب وكن بجوارها الآن. أو ما برأسه، اقترب منها فوجدها شاردة، حاول لفت انتباهها بسؤاله:

— ماذا هناك؟

— ماذا؟

— ألا زلت غاضبة؟

أشاحت بوجهها، صمتت لوهلة ثم أجابت بعينين ثابتتين "لا يهّم".

الفصل السابع

جلس ياسين يتناول فطوره مع والدته وياسمين بكافيتريا المشفى، يقلّب صفحات إحدى المجلات الصباحية، رفع قذح القهوة على فمه فاستوقفه خبرٌ ما، تغيّرت ملامح وجهه فلاحظت ياسمين.

— ياسين، ماذا هناك؟

ما قرأه بالمجلة لن يسرّها على الإطلاق، رفع عينيه إليها ثم عاد لتأمل الخبر دون أن ينطق بكلمة، سحبته من بين يديه حينما أعادت السؤال ولم تجد إجابة، تجمّدت، فقد كان خبر خطبة نجلي حسان الدمنهوري له الصدارة، صوراً لأوجه الشياطين تزدان بالابتسام، سعادة على جسد أختها الذي يأكله الفراش، لا حول له ولا قوّة. لانت عيناها وامتألت بالدموع، تحدّث نفسها بصوت مسموع:

" أهؤلاء بشر!!؟ يستمرّون في الحياة والابتسام، وهناك إحداهنّ على مشارف الموت بأيديهم، ألا يشعرون؟! لا أستطيع التصديق بأنّ هناك أناساً دونَ ضمير إلى هذا الحدّ!".

حاولت خالتها التهذئة من روعها، ضمّت رأسها إلى كتفها فاستسلمت إليها، مسحت دموعها تحدّثها في عطف:

— اهديني يا ابنتي، فلكلّ مشكلة في هذا العالم حلّ.

— أيّ حلّ خالتي؟! أيّ حلّ!! أكاد أجنّ.. فحتى الآن لم يظهر أيّ خيط، كيف لقضيةٍ مثل هذه أن يختفي كلّ ما له علاقة بها بين عشية وضحاها.

بدا عليها الحيرة، لا تعرف ماذا تقول، هي محقة.. تذكرت سعاد كونها تأخرت على أختها بالأعلى فطلبت من ابنها المكوث بجوار ياسمين حتى تهدأ، ثم تركتهم مكملين حديثهم معاً.

- أريدك أن تعلمي أنه برغم كل هذه العقبات أشعر أنّ هناك أمراً في انتظارنا.

نظرت إليه بعينين دامعتين، ثم تحدّثت بصوت يملؤه الاستسلام:

- لا علامة واحدة تنير الطريق، لقد تعبت. عقلي مرهق، كل يوم يمرّ تسوء الأمور أكثر.

جلس أمامها صامتاً يستمع إليها، يعلم كون الأمور تزداد تعقيداً، شعور أن تقف عاجزاً. لا تستطيع منع مكروه عن حبيب لديك؛ هو أمرٌ في غاية السوء.

ما أن انتهت من كلماتها، حتى حاول جذب انتباهها، تحدّث يلاطفها:

- اعتمدي علي، ألا أكفيك؟

- بلى.

- بلى ماذا؟

- أنت تعلم.

- لا أعلم. أريد سماعها.

انفجرت ضاحكة بوجنتين شابتها حمرة الخجل، ثم تماسكت محاولة إخفاء خجلها قائلة:

- إن استمررت في هذا سأتركك وألحق بخالتي.

أجابها بصوت مليء بالجدية:

- سأصمت، لكنني لا أريد أن أرى دموع الأميرة ياسمين مهما حدث،
اتفقنا؟

أومأت برأسها، حينها أكمل قائلاً:

- كل الأمور ستكون بخير، أعدك بذلك.

لم تع ياسمين طعم الاطمئنان إلا بإيجاد ياسين، وكأنّ المرء يظلّ تائهاً حتى يجد مَنْ يكمله، منذ ذاك الوقت الذي احتلّ فيه قلبها، لم تعد تخشى الأزمات فقد فقد الحزن هيئته، اقتسم قلبها وروحها وعقلها، أقام الشراكة في كل شيء.

شراكته في حياتها.. باتت طفلة، إن أخطأت يصوب، وإن تعثرت يُقيّم، إن أغرقتها الحياة بمرّها فخاها ضعفها كان بالقرب، يمسح عن كاهلها الألم، يحميها من الدنيا وما فيها، يستمع إليها، يحيطها باهتمامه وإن انشغلت عنها الدنيا.

أمّا عن شراكة الروح، فقد اختزل مشاعرها، أصبح مالکها الوحيد، أمير متوج على عرش قلبها، فليس هناك أئمن من فؤاد صادق قد تهبه أنثى لرجل، يعي ما بين يديه، فيكون دواءً لأوجاعها ومنبعاً لسعادتها، معه تشعر بالاكتمال وفي حضرة أمان لها.

سمعت سماح همهمات ولدها أدهم من خلف باب غرفته بعد منتصف الليل، ساورها الشكّ بشأنه فاقتربت من الباب تسترقّ السمع.

- لقد تمّ كل شيء كما أردت يا سمير، أتى دور ما أريد.

هكذا كان يتحدث، تيقنت حينها من شكوكها فاشتعل فؤادها،
استجمعت التركيز للتابع حديثه.

بدت ابتسامة سخرية على شفتي أدهم حينما طلب منه سمير يومين
إضافيين فعاد للعب بأعصابه.

- ألم نتفق على الموعد؟

حينها أجاب بلا مبالاة:

- لا تقلق، ما طلبته ستحصل عليه.

- وما الذي يثبت لي أنها ليست لعبة من الألعاب إليك؟

- يا أدهم.. يا أدهم، أنت تعلم يا حبيبي أنّ حسان الدمنهوري من
السّهل عليه قتلك، أظنّ أن مقصودي قد وصل لعقلك الآن.

انفجر ضاحكاً ثم أجاب:

- ليس لدي ما أخاف عليه.

سمير، أنصت إليّ.. يومان آخران. فقط يومان، وأقسم لك إن لم تحضر
المال سيكون هناك محضرٌ من القسم يطرق باب والدتك المصون.

انتهى الاتصال الهاتفي ففتحت سماح الباب في غضب، لم تترك فرصة
لابنها ليتساءل إن سمعت ما دار أم لا، حدّثته قائلة:

- ستأخذ منه المال؟

أجابها في هدوء:

- أمي، لا دخل لك بهذا الموضوع.

— ستبيع ضميرك يا أدهم؟

تأفف مظهرًا الضيق والتململ:

— سنظلّ على هذا الحال كلّ يوم؟

رفعت كفّها وصفعته بقوة، تجمّد ينظر إليها في دهشة، فللمرّة الأولى في حياته تفعل أمّه به ذلك.

— يبدو لي أنّي قد فشلت في تربيتك، عندما تتحدّث إلى أمّك حدّثها بأدب.

ما أن استوعب الصفعة، حتى صرخ في وجهها:

— أتضربيني؟ سأخرج من هذا المنزل ولن أعود إليه أبدًا.

خرج مندفعًا مسرعًا، تركها خلفه باكية تشعرُ بكثير من الألم، أخذته قدماه إلى إحدى ضفتي النيل، وقف شاردًا يفكّر بكلماتها، قطع شروده صوتُ هاتفه، تأمل الشاشة ليجد رقمًا مجهولًا، تمهّل ثمّ أجاب، سمع صوت أحدهم.

— أدهم معي؟

— نعم، من؟

— والدتك تدعى السيدة سماح؟

— أهناك شيء؟

— سيد أدهم، لقد فقدت والدتك الوعي وقام الجيران ينقلها إلى المشفى، وأعطونا رقم هاتفك ونحتاج إليك لأخذ بعض البيانات.

جنّ جنون أدهم، فحاول المتّصل تهدئته ثمّ لقّنه العنوان، أغلق هاتفه مسرعاً يحاول اللحاق بأمّه، أوقف سيارة أجرة ثمّ انطلقت صوب المستشفى.

ما أن وصل حتى دخل الاستقبال هرولة يسأل عن مكان وجودها، صعد حيث غرفتها فوجد جاره ثروت وزوجته توحيدة يقفان بالخارج يملؤهما القلق والأسف.

ثروت وزوجته جارا أدهم منذ صغره، وحيدان فكلاهما ثروة الآخر وأسرته. لم يرزقهما الله بأطفال، لطالما ربط توحيدة بوالدة أدهم خيطاً من الودّ والصدقة، تردّد عليها من حين إلى آخر لتناول فنجان من القهوة، والحديث عن أيّ شيء يخصّ دنياهم.

- ماذا حدث؟

سأل أدهم والهلع يعتريه، فأجابت جارته بصوت متهدج:

- طرقت الباب ولم تجب وليس من عاداتها، ظننتها نائمة فتركتها وعدت في وقت لاحق ولم تجب أيضاً، قلقْتُ فناديت لثروت، كسر الباب. دخلنا لنجدها ملقاة على الأرض، اتصلنا بالإسعاف فأتى لنقلها، والطبيب معها الآن بالداخل.

صامتاً يستمع إلى ما يتلى عليه، أمسك قلبه يعتصره ثمّ أسند إلى حائط خلفه، حدّث نفسه بصوت ممتلئ باللوم "أنا السبب، إن أصابها مكروه لن أسامح نفسي أبداً".

انفرط عقد عباته، بكى.. بكى، ولم تكن تعرف الدّموع لعينيه طريقاً من قبل، فللمرّة الأولى في حياته تمطر عيناه، وللمرّة الأولى أيضاً يتخلّله ذاك

الإحساس، أن تشعر بأنّ هناك شيئاً ما تخشى عليه، لطالما ظنّ أن لا نقطة ضعف لديه والآن أدركها.

مهّد بفقد أمّه، أهكذا سيكون عقاب الله له؟ وهلات يفكر.. ثمّ نظر إلى الأعلى وكأنه يتذلّل إلى الله ألا يكون الانتقام في أمّه.

ربت ثروت على كتفه. حدّثه بنبرة آسفة "كنّ قويّاً لأجلها، ستكون بخير".

أجابه بعينين بكاءتين:

- أريد أن أراها يا عمّ ثروت.

- فور خروج الطبيب، تماسك.

ما لبث أن أنهى حديثه حتى خرج عليهم الطبيب، هرول إليه أدهم يسأله عن حال أمّه، قطب حاجبيه، تنهّد مستحضراً الكلمات. بدا وكأنّ هناك ما لا يسرّ في جعبته.

- لا أريد بثّ الذعر، لكنّ حقيقةً الوضع سيّئ، هناك جلطة على القلب، ستحتاج لعملية في الساعات المقبلة، لا أنصح بالتأخير.. أسرع.

بدا على وجهه الإحباط، سأل بصوتٍ مرتعش:

- أستطيع رؤيتها؟

- من الصعب..

قاطعه أدهم قبل أن يكمل:

- أرجوك. خمس دقائق، أحتاج إلى ذلك.

استسلم الطبيب لما رآه من ألم ورجاء في صوته، أو ما برأسه ثم حدّثه منبهاً
 "فقط خمس. الكلام والانفعالات خطر عليها".

دخل إليها بأقدام متثاقلة، يتأمل جسمانها على الفراش الأبيض، تنفّس
 بواسطة أنبوب، تتصل المحاليل بأوردتها، جهاز رسم القلب إلى جوارها
 يرسم نبضها المتباطئ، هادئة لا تشعر به كما كانت تفعل ولا يمكنها الحديث
 كما عهدتها.

التقط يدها، تشبّث بهما كمن يتمسك بحبل نجاته، سقط على كفّها يلثمه
 باكياً، همس إليها بصوت شبه مسموع، يتحدث إليها وكأنها تعي ما يقوله
 "أمي، سامعيني، لم أقصد كلّ هذا، ليتني استمعت إليك ولم أغضبك، أمي..
 لا تركيني. أنا أحتاج إليك ليس لي غيرك".

عاد إلى الصمت، أسند جبهته إلى فراشها، شعر بيد تمسح على رأسه في
 حنان، رفع وجهه. استعادت وعيها، رفعت يدها الأخرى في إعياء ترفع
 عنها قناع التنفّس، حدّثته بصوت متهدّج يكلله الابتسام:

- لا تبك يا حبيبي.

- أمي.

تكثّف غيم الحزن في صدره فأمرت عيناه زخّات، وكأنه عاد لعامه
 السادس، حدّثها بصوت منفطر:

"أنا آسف.. حقاً آسف، لن آخذ منه المال، لن أغضبك مني أبداً".

ابتسمت حينها من بين الوهن.

- إيّاك أن تقبل بالحرام، وإن كان ظاهره الراحة فباطنه الشقاء.

مرّت الخمس دقائق على عجل، طلبت الممرضة من أدهم الخروج، ترك يد أمّه مثنياً أنظاره عليها وما أن التفت حتى تبعته ببصرها، كانت تتأملّه طويلاً وكأنها تخشى أن يتوارى فلا تراه ثانية.

خرج من الغرفة والقلق يعتريه. قلبه يخفق بشدّة، لن يأخذ المال. لا يريد إغضاب أمّه، لا يريد فقدانها، الأمر برمّته خطأ فادح، ماكان عليه أن يفكر فيه من البداية، أخطأ بحق نفسه وبحقّها.

شاءت الأقدار أن تجمع بين سلمى وأدهم، لم يكن يدرى أنّ أميرة بإحدى الغرف لنفس المشفى التي ضمت أمّه.

وكانّ الله يحدّثه. كما شاركت في إيلاّم غيرك سأصنع لك الألم، سأريك آياتي بين عينيك لتعود لصوابك.

ناداها فالتفتت إليه، أقبل عليها.. كادت تكيل عليه وابلاً من الشتائم والكلمات المؤلمة لكنها توقّفت حين رأت انتفاخ عينيه ووجهه الشاحب، بدا وكأنه انفطر لتوّه.

تساءلت في نفسها عن سبب وجوده بالمشفى، تناست غضبها:

— أنت بخير؟ حدث شيء؟

كادت الدموع تتجمّع بعينيه من جديد، قاومها مظهرًا التماسك، ثم أجاب بصوت مرتعش:

— أمّي مريضة.

أشفقت عليه، تعلم بكونه يتألم. حاولت التّخفيف حينها:

— لا بأس عليك. اطمئنّ، ستكون بخير.

بدا عليه التأثير، فبعد ما فعل بهم تحزن لأجله، صمت وهلة ثم رفع عينيه يحدثها:

- ادعي لي، وسامحيني. واطلبي من أميرة وأهلها مسامحتي.

ارتسمت ابتسامة مكسورة على شفتيها:

- أميرة لم تستيقظ من غيبوبتها بعد، لكن أتعرف؟

لو أنها هنا لسامحتك، هي في الدور التالي.

وضع وجهه أرضاً، امتلاً خجلاً من دناءته، شعرت بذلك فاستطردت:

- لا تفكر في شيء سوى والدتك الآن.

تركته مودعة، بينما عاد لمكانه. ارتقى برأسه، يستند خيالاته وذنوبه فيزداد ألماً وندماً، مرّ أمام عينيه شريط ذكرياته، كم فناة تلاعب بمشاعرها، كم مرّة نسي الله وغرق في بحر أهوائه، التهي حتى نسي أن الكون له سنن وقوانين، فما من صفة تركها لأحدهم، حتى تردّ لك صفعات مهبّ طالت الدنيا، فالله يمهّل.. يمهّل فقط.

قطع استرخاء أسماء أمام التلفاز اتصالاً من رقم هاتف مجهول، تجاهلت في البداية، لكن المتصل لم يتوقّف عن تكرار الاتصال، أجابت في تملل:

- من المتصل؟

- اشتقت إليك.

أثار غضبها، صرخت فيه باندهاش يملؤه استنكار:

- من أنت؟

- ألا تتذكّرين هذا الصوت!!
- اسمعْ يا أنت، إن لم تجبْ على الفور سأغلق الهاتف، لا وقت عندي للعب الأطفال هذا.
- كفااالك عصبية، أنا مدحت.
- مدحت مَنْ؟
- الشاب الذي كان معك بالحديقة وأنت تبكين في حفل خطبة أمس.
- ماذا؟ كيف تجرؤ!! مَنْ أعطاك رقمي؟
- تعالت ضحكاته غرورًا:
- عزيزتي، أيّ شيء أريد الحصول عليه أصلُ إليه، إحضاره أسهل ما يكون.
- ماذا تريد مني بالضبط؟
- تنهّد ثم حدّثها في تأثر مصطنع:
- منذ الساعة التي رأيتك فيها وأنا مغرّم بك، لم أنمَ أمس من التفكير فيك.
- أجابته مستنكرة وقد ظهر على صوتها الاضطراب:
- أنا مخطوبة.
- ألم يكنْ سبب بكائك أمس؟
- صمتت لبعض الوقت، فأكمل كلماته:
- تابعتك منذ اللحظة الأولى في الحفل، لاحظت شرودك ولا مبالاته، حركة عينيك مع حركة قدميه وعدم اكترائه، علامات الضيق التي بدت

على ملامحك فور انتهاء حديثه معك، دموعك التي خانتك أمامي حتى مع محاولاتك الفاشلة في إخفائها.

ألمتها كلماته، أعاد لجروحها معه نشاطها، بدأ عقلها في استعراض كل ما فعله سمير في آخر أيامهما معاً، كانت تتناسى لتعلقها به، كيف لها أن تتمرد على شعورها ناحيته، فبرغم ما أحدثه لا تستطيع الابتعاد، مذلّ التعلّق بالأشخاص الخطأ، أجابته بصوتٍ وهنٍ:

- أنا أحبه.

- وأنا أحبك، أعطيني فرصة واحدة، سأعوّضك عن كل هذا. أكمل محاولاً سحرها بكلماته فاستوقفته، فقد سطا الحزن قلبها، أقلّ كلمة قد تقع في شباك قائلها:

- لا أريد أن أسمع كلاماً عن ذاك الأمر مرّة أخرى من فضلك. أغلقت بوجهه الهاتف فابتسم، مسّ ضعفها. شعر بذلك. أمّا عنها فرفقة ما سيطرت عليها، مشاعر مضطربة. تتساءل عما يحدث لها، وإلى أين سير سل بها. عاد هاتفها يرنّ من جديد، كان سمير.. فقد طلب والده محاولتها بالشّباك قبل أن يصيدها صياداً آخر. استجمعت تركيزها ثم أجابت، ما أن سمع صوتها حتى سأها:

- ما زلت غاضبةً منّي؟

- أنت حتى لا تهتمّ، لم قد أجيبك؟ حتى تقول عني نكد، أليس كذلك؟ - أنا آسف. لقد كانت أعصابي مشدودة بالحفل، تعلمين كان عليّ متابعته

فقد كنت مسئولاً عن تنظيم كل قشة فيه، حبيبتى ما رأيك برحلة معاً أنا وأنت اعتذاراً مني عما حدث؟

ساد الصمت، ثم أجابت في تردد:

- دعني أفكر.

- تفكرين!!؟

- نعم أفكر.

حاول السيطرة على غضبه، ثم استطرد قائلاً:

- ماذا حدث لك؟ لم تكن إجابتك في كل مرة كما هي الآن.

- ماذا. اعتدت على أن تراني سعيدة بفتات اهتمامك، أليس كذلك؟ أتريد

معرفة الذي حدث؟

ما حدث يا سمير أني لم أعد أثق بك ولا بكلامك، تقول إنك تحبني؟ أين حبك الذي تحدث عنه هذا، لا اهتمام ولا شعور، أتحدث إليك وأنت في عالم آخر غير عالمي، تتجاهلني وكأني طيف، منذ أن اقترب موعد خطبتنا وأنت شخص آخر، وإن عاتبتك على إهمالك تتهمني بالنكد، ترحل عني وتتركني أحترق، لا يمكنك حتى تخيل مصابي في كل مرة تنهي الحديث وتتركني دون اكتراث!!

ظل يستمع إليها وما أن ساد الصمت حتى سألها:

- هل انتهيت؟

- أترى؟ عدت كما كنت!

حدثها بصوت يشوبه بعض الحدة:

- أساء، ألن ننتهي من هذا الموضوع؟

- لم أعد أحتمل يا سمير، أتألم من تلك الطريقة التي تعاملنى بها.
لم تستطع تمالك نفسها فبدأت في البكاء، صامتًا يستمع الى بكائها. مرّت دقائق على هذا الحال، فبادر قائلاً:

- اتّصلت بك لأعتذر، وطلبت أن أعوّضك برحلة، وتبكين!!؟
حاولت تمالك نفسها ثمّ أجابته في يأس:

- أتريدنا أن نخرج معًا، حسنًا، لك ما تريد يا سمير.

أغلقت الهاتف في غضب، ألقت به على سريرها، ثمّ عادت إلى البكاء، مرّت دقائق ليرنّ من جديد، تجاهلته ظنًا منها بكونه سمير، لم يتوقّف عن الاتصال، مسحت دموعها ثمّ تأملت هاتفها، مدحت.. أجابت في غضب:

- ماذا أيضًا؟ أنت لا تعرفني وأنا لا أعرفك، لم تتصل بي؟
تحدّث وكأنه أحد معارفها متجاهلاً كلماتها:

- أغلقتي المكالمة دون وداع حتى، حاولت الاتصال مرارًا وتكرارًا لكنّ الهاتف مشغول، مع مَنْ كنت تتحدّثين؟
تأفّفت ثمّ صرخت فيه:

- وما شأنك؟! أنت لا تفهم لغتي؟ قلت لك لا أحد منّا يعرف الآخر،
ولا تتصل بي هنا مرّة أخرى.

تجاهل كلماتها، ثمّ حاول مسّ ضعفها:

- ما بال صوتك؟ أكنت تبكين؟

- لا يخصّك.

- أهو مَن كان معك على الهاتف؟ هو السبب في دموعك، أليس كذلك؟

أصابت كلماته صميمها، فالحديث عن القسوة كفيلاً بالبكاء، التجاهل وقلة الاهتمام، تفاصيلنا الصغيرة عندما لا تُرى. تُهيأ لنا كخنجر مسموم، يغوص بأعماق أرواحنا، فلا يبقى سوى الألم.

حاول حينها التخفيف عنها، ارتفعت أنات البكاء:

- لا تبك، أنا.. أنا أحبك.

- وأنا أحبه.

- وهو لا يحبك، لو أحبك ما أبكاك، أنا مَن يريد بيع الدنيا مقابل بسمه على شفيتك.

أوقفت عباراتها كلماته، فقد ظهر في أحلك لحظات ضعفها، أحبت أسماء سمير حباً جمّاً، لكن الإهمال يقتل الحب، يضعف ذاك الرابط بين القلوب، فعلى مَن أهمل أن يتحمّل نتيجة إهماله، أسيستطيع مدحت الوصول إلى مراده؟

جلستُ كارين في استرخاء بالقرب من مدفئتها على كرسيها الهزاز، ليلة باردة تستمتع فيها بدفء النار، مرّت دقائق من اندماجها فإذا بطرق خفيف على الباب، تركت كرسيها مستجيبة للطارق، كانت كوزيت، متخفية في ردائها، باد عليها التوتر، أومأت برأسها ملقية التحية.

- ادخلي بسرعة.

حدّثتها كارين، وما أن استجابت حتى ألقت بنظرها يمينًا ويسارًا تتفقّد الطريق، تتأكّد إن كان أحدهم يتبعها.

خلعت كوزيت رداءها ثمّ جلست بالقرب من المدفئة، أغلقت كارين الباب جيّدًا ثمّ جلست مقابلًا لها.

- ما الذي أتى بك إلى هنا في مثل هذا الوقت؟!

- حال "آن" في تدهور، أريد أن أطمئنّ على اقتراب الجيش، جئت إليك تساعدينني في التأكّد، أعلم أنّك تستطيعين إظهارهم لي.

لكنّ قبلاً أريد أن تأكّد من كَوْن العصفورتين بلّغتا الأميرة بما حدث لأن.

- رسالتك وصلت اطمئني، الآن اتبعيني.

توقّفت كارين أمام حامل حديدي قديم أكله الصدأ، مخفي تحت قماشة احتلّ بياضها التراب، وكأنّها لم ترفع عنه منذ أعوام طوال، سحبتها فتحرّكت حبّات الغبار تداعب مخاط أنوفهم، وبعد وقتٍ من السعال انتبّهت كوزيت، فقد برزت بلورةٌ كروية تشبه اللؤلؤة العملاقة، حينها سألت في فضول:

- ماذا تفعلين؟

- سوف ترين.

لوحت كارين فوق البلورة وحولها فبدت دوّامة نورانية داخلها، أخذت تتفوّه ببعض الطلاسم فهدأت البلورة، ثمّ بدا داخلها وجه كاميليا ومنّ معها.

صرخت كوزيت في دهشة:

- إنها الأميرة!!

أومأت كارين برأسها، فأكملت كوزيت:

— ماذا يفعلن؟

تابعتُ ما تراه بعد سؤالها، كان فارس مقابلاً للأميرة محاولاً تدريبها، والجيش حولهم كلٌّ في عمله مُنْهَك، وبعض السّاحرات يمارسن سحرهنّ واستعماله.

— أين هنري؟ أهو معهم؟

— انظري.

بدا وجه هنري بالبلورة، كان شاحباً حزيناً، منغمساً في القتال وكأنه يهرب من أمر أرهقه، التفتت كارين إلى كوزيت قائلة:

— بشري "آن" صديقتك.

ابتسمت حينها، وابتسامتها لم تكتمل، حينها فهمتُ كارين ما يدور بعقلها فأكملت مطمئنة إياها:

— الأميرة تمتلك قوة كبيرة، ووصولها هنا سيكون في وقتٍ قياسي، حاولي فقط التخفيف عن صديقتك حتى وقت وصول الجيش لإنقاذها.

— سأفعل.

عادت لارتداء رداؤها لتستعيد تخفيها، ثم انطلقت من الكوخ صوب القصر.

قتل أوكتافوس الكثير، دماء.. تلوّنت بحيرات مدينة النور بالأحمر، فمن رفض الانضمام ذُبح كالخراف أمام صغاره ووالديه وزوجته، لم يترك لأحدهم الخيار، فإمّا أن تكون معنا أو لا تكون على وجه الأرض على الإطلاق.

جمع مَنْ تَبَقَّى بساحة التدريب، وقف إلى جوار أنطونيو يتابعهم، يتأملًا تبارزهم استعدادًا للحرب الكبرى.

- ما الجديد؟

سأل أوكتافيوس ليجيبه أنطونيو بالتفاصيل:

- كما ترى سيدي، قتلنا مَنْ رفض والبقية بالساحة، أرسلتهم أمهاتهم خشية قتلهم.

- جيد، كثف التجهيزات للحرب فقد اقتربتِ المعركة، لا نعلم في أي لحظة سترتفع الأبواق.

- أمرك.

رحل تاركًا أنطونيو ووجهته القصر، الأخبار لصالح ملكهم على ما يبدو.

وقف أوكتافيوس منحنياً في تذلل أمام مقدنيو وزوجته، يتجلىان على العرش ينتظران سماع الجديد، سرد الجديد على أسماعهم فتهللت أساريرهم، حينها تحدثت إيزابيل تمحّسه:

- أريد أن أسمع منك دائماً أخباراً جيدة أوكتافيوس، الملك يثق بك.

- أعمل جاهداً لأكون عند حسن ظنه سيدي.

غادر المكان بعد أن سمح له مقدنيو بالرحيل، فانتقلت إيزابيل بحديثها إلى مقدنيو:

- أريد أن أريك شيئاً.

انتبه حينها ينتظر ما تحدث عنه زوجته، ارتفع صوت إيزابيل يهز القصر.

- جانبيت، أيتها الخادمة.

حضرت مهرولة، انحنت لتلقي التحية:

- أمرك سيدتي.

- أخبرني الملك مقدنيو ما خبرتيني به.

أومأت في خضوع ثم بدأت في السرد:

- بالأمس وأنا في حديقة القصر لمحت شيئاً غريباً، إحدى الصخور المثبتة في الأرض ليست كمثيلاتها، وكأنها غارقة في شيء ما، حاولت زحزحتها بقوة فإذا بباب سحري في الأرض مغطى بالحشائش ينزاح، تأملت. يطل على درج صخري مظلم، استعملته في حذر، وما أن وصلت إلى نهايته حتى اشتعلت فتيلة مصباح معلق على جدار صخري تلقائياً، خفت قليلاً فأنا بمفردي، استجمعت قواي وبدأت في استكشاف المكان من حولي. كأنه كهف، أتأمل الأدوات المتناثرة في أرجائه، بدا وكأن أحدهم سكنه في حقبة زمنية ما بعيدة، فالعنكبوت مستقر بأعشاشه، ثم... ثم...

بدت وكأنها تذكرت شيئاً ما شوّش على عقلها، انتبه مقدنيو ثم سأل في فضول واهتمام:

- ثم ماذا؟!

- وأنا أفتش حولي، لفت نظري كومة ما مغطاة، وفوق الغطاء طبقات من التراب، اقتربت.. لا أعلم ما الذي دفعني لإزالتها رغم خوفي الشديد مما قد أجده، وجدت بلورة وبعض الكتب القديمة، وبالجوار دائرة على الأرض

داخلها نجمة تَمَسُّ أطرافها وشمع من حولها يغطيه التراب، انتشر الرعب بعروقي كالسَّمِّ ما أن رأيت ذاك الشيء.

- أي شيء؟

- هيكل عظمي لآدمي، اقتربتُ منه. وجدت قلادة تشبه الدائرة المرسومة على الأرض حول رقبته، فتحت الكتاب الملقى بجانب الدائرة، مليء بتعويذات تعلم صاحبها تسخير الأرواح والأشباح السوداء. تصنع من صاحبها سيداً للشر، وسلطاناً للشيطان، أظنه ساحراً حاول امتلاك قوّة التعويذات، ولم يتحمل فمات على وضعه.

- أوجدت شيئاً آخر؟

- نعم، صولجان. يعتليه ياقوتة سوداء اللون.

وقف مقدنيو في مكانه، طلب منها أن ترشده إلى ذاك المكان سرّياً.

تقدّمت جانيت وكلاهما يتبعها، يطويان الأرض حتى وصلا إلى باب الكهف، وما أن دخل ثلاثتهم حتى بدأ مقدنيو في البحث، يفتش. ينبش ويستكشف.

مسك الصولجان في حذر يقلبه بعينه، انحنى على الهيكل وسحب القلادة قابضاً عليها، التفت إلى الخادمة قائلاً:

- أريد رجلاً متمكناً بأمور السحر، خبرة مكتسبة وليست متوارثة.

- أليستر.

أجابت دون تفكير، نظر إلى زوجته ففهمت إلى ماذا يرمي، سألت تطلب التفصيل:

- من أليستر؟

- رجل مسلوب القدرات ناظمٌ على سحرة المملكة، قرأ الكثير في أمور السحر محاولاً اكتساب قدرات، يعلم جيداً عن السحر الأسود، يتهمونه سكان المملكة بالجنون فهو غريب الطبع لا يخرج إلا في الليل.

حينها أعطى مقدنيو الأمر بإحضاره، فقد ظهر أليستر في وقته، مناسباً للقلب. ناظم على وريثي السحر فسيُفعل أي شيء يرضي غريزة الحقد لديه، وإن كان الثمن ذبحهم جميعاً.

انحنت أمامه جانيت مشيرة إلى تلبية طلبه، فخرج من الكهف ثم أعطى الأمر بعدم الاقتراب منه أو السير بقربه.

ما أن دخل أليستر حتى بدأت إيزابيل بتأمله.

رجلٌ نحيف شاحب الوجه، وكأنه لم يذق الطعام منذ أيام، طويل القامة، تحيط الهالات السوداء بعينه، بارز عظم الخدين، يسقط شاربه على شفثيه من طوله، واسع المحجرين تزوغ عيناه.

كأفعى تدرس الفريسة، فالخطر في عقلها يكمن بدواخل هؤلاء الضعفاء، المظهر لا علاقة له بأي شيء على الإطلاق.

- أمرك سيدي.

انحنى يتذلل، فبدأ مقدنيو برمي شباكه:

- أخبرني أحد جنودي كونك تعرف الكثير عن السحر.

- نعم سيدي.

ابتسم مقدنيو ثم أكمل في دهاء:

- وأخبروني بكونك فاقداً لقدرة ممارسته.

ادّعى الشفقة، وكأنّه مسّ جرح تاهت عينيه، فأكمل مقدنيو:

- أعلم شعورك هذا جيداً، وطلبت استدعاءك لأعوضك ألم قلبك.

ظهرت علامات التعجب على نظراته بعد أن استمع لكلمات مقدنيو، ما الذي يدفع ملكاً كهذا للالتفات لمن مثله، سأل حينها:

- وما المقابل؟

تعالت ضحكات مقدنيو تهزّ الجدران، ثمّ بدأ في إزاحة الستار عن نواياه:

- أحترم الرجل الذكي، وأنت يا أليستر هكذا.

هناك شيء أريده منك، إن حققت مرادي منه لك ما تريد من الكنوز.

لمعت عيناه، أوماً برأسه في استسلام، فدعاه مقدنيو إلى اللحاق به حيث الكهف المجهول، وما أن دخل كلاهما حتى جنّ جنون أليستر، وكأنه رأى هذا المكان من قبل. يفتّش في زواياه، كلما مسّ شيئاً امتلأ محجريه اندهاشاً، جلس على الأرض بجوار الكتاب يقارن ما بين النقوش، النقش على الأرض هو نفس النقش على الصولجان والقلادة والكتاب.

فتح الكتاب يتصفّحه بتركيز، ثمّ أخذ يتمتم بصوت مسموع:

- يا إلهي!! مقررّين.

- مَنْ؟ مَنْ فرين هذا؟

رفع أليستر وجهه إلى مقدنيو، ثمّ عاد إلى الكتاب في شروء، وكأنه يستدعي شيئاً ما من قعر ذاكرته، ثمّ تحدث قائلاً:

- كبير السحرة، سيد السحر الأسود، أسطورة الشر.

- تحدّث أكثر..

اعتدل حينها في انتباه، يسرد ما ضاع عمره في البحث عنه:

- قصّت كتب الأوّلين عن زمن عاش فيه ساحر بلغ ذروة الشّرّ قاد مملكة النور، كان غذاؤه أرواح البشر، يتلذّد بقتل الفتيات وسماع صراخهنّ فيقدّم أرواحهنّ قرايين للشيطان لتتضاعف قوته، خشاها الكبير والصغير، حاول الكثيرون الفرار من بطشه فلاقوا الهلاك، غطّى الظلام سماء المملكة في عهده، فلم تظهر شمسٌ في كبدها قط، انتشر الشياطين والأشباح بأرجائها، فرّ النوم واحتلّ الخوف القلوب، إلى أن ظهر ذاك الصولجان..

استأنف الحديث شارداً، فسأله مقدنيو في ترقب:

- أي صولجان؟

- صولجان النور، داخله طاقة نقية، روت الأساطير بتوارثه لنسل الملوك الأصليين للمملكة، وطالما ظهر الصولجان السفلي هنا، فالآخر ليس ببعيد.

- أتقصد أنه في حوزة ابنة سليمان.

صمت حينها يفكّر، ثم استطرد قائلاً:

- عليك إخباري. ماذا عليّ أن أفعل لهزيمتهم؟

أشار حينها أليستر إلى الصولجان السفلي، فالتفت إليه مقدنيو. بدا وكأنه يفكّر بما عليه فعله.

- هناك طقوس يجب عليك ممارستها لتتمكّن من قوّة الشر التي امتلكها فارين، عليك التفرغ لكتاب السّحر الأسود هذا.

كلّما استطرد في الحديث، حدّثه مقدنيو بأنه يريد الاستزادة، فجلس يشرح له طقوس تحضير قوى السحر الأسود:

- أعدّ رسمَ الدوائر وترتيب الشموع، اثلُ كلمات التعزيم من الكتاب، ثمّ قدّم القربان.

- أي قربان؟

اضطرب حينها، صمتَ لوهلة، ثمّ أجاب:

- دم خادمة مخلص، يكسو الشرّ قلبها.

- أصيبها؟

- لا.

عليك ذبحها، صَفّ دمها حتى آخر قطرة ثمّ اغتسل به، تتم بطلاسم الكتاب أثناء الاغتسال، لا تخرج من الدائرة. لا تشعل سوى الشموع حولها.

لم يكن مقدنيو بهذه القوّة، فرغم ما وصل إليه فالجنُّ يملأ صدره حتى آخره، استنكر حينها قائلاً:

- النتيجة تستحقّ هذا العناء؟!

- قوّة السحر السفلي ستكون بين يديك، ستصبح سيّداً للشرّ، ستمتلك القدرة على تسخير الأرواح والأشباح، جيش من الشياطين سيمسي تحت طوعك أنت.

اتسعت ابتسامته بعد أن سمع ما سمع، قفز إلى عقله المختار فسأله:

- متى أبداً؟

— بعد منتصف الليل.

كوحش بالبرية سقط على فريسته، لمعت عيناه، فقد أتى من ينقذه من سليمان وجيشه.

وبعدما مرّ الكثير من الوقت في تدريبات كاميليا، أنهكت تستريح على صخرة فجلس إلى جوارها فارس، بدت عينها حزيتين، لم يدر أيّ حديث. كلاهما صامت يفكر.

فارس على دراية بمصدر تعاستها، فمعاملته الجادة قد تكون ليست عادلة مع كائن رقيق مثلها، كلّ ما أراده تعويدها على القادم، لن يكون إلى جوارها في حربها مع الشر، حاول حينها التخفيف. قطع شرودها هامسًا:

— فيم تفكرين؟

التفتت إليه بعينين حزيتين يشوبها الجمود، ثمّ عادت إلى شرودها، أعاد المحاولة في التقاط خيط للحديث:

— أتدرين؟.. حتى في شروذك تبدين رائعة الجمال.

اتسعت محاجرها ثمّ أشاحت بوجهها عنه، أظهرت الغضب من كلماته وداخلها يرقص فرحًا، خشيت افتضاح أمرها فحاولت المغادرة، وما لبست أن تحرّكت خطوة حتى أمسك معصمها، سألتها في برود:

— ماذا؟

— كيف تركيني وأنا لم أنه حديثي؟

نظرتُ إلى معصمها بين كَفِّيه، ثم رفعت عينيها إليه تجيبه في برود:

- لا أريد الجلوس معك.

جذبها إليه بقوة، ثم حدثها في تحدٍّ:

- ولكنني أريد الجلوس، هَلَّا جلست الآن؟

صرخت فيه، وكأن الغيظ الذي حجبتَه تجمع في حنجرتها:

- تعاملني بقسوة، ثم تتصرّف وكأنك لم تفعل شيئاً، والآن تريد مني أن

أجلس بقربك.. هاه؟!

بدتُ كالطفلة، يتأمل صراخها صامتاً ثم انفجر ضاحكاً، ازداد غيظها

فأكملت:

- تضحك وأنا سأموت من الغيظ بسببك!!؟

لم يكفّ عن الضحك، حاول التّخفيف من حدّة غضبها:

- لم دائماً تصرخين؟! اهدئي.

- كيف أهدأ وأنت....

- أحبك.

ابتلعتُ كلماتها، أأذنّها تحتال عليها الآن؟

- ما.. ماذا قلت؟

تنهّد ثم تكعكع، أجاب بنبرة هادئة:

- قلت إنّي أحبك.

تجمّدت تنظر إليه، تجمّعت العبرات في مقلتيها ثم انفرط عقدّها، تبكي بغزارة وكأنّها لم تعرف البكاء قط، وقف مقابلها صامتًا، يتأمل عينيها الباكيتين، مدّ أنامله في رقّة يمسح دموعها..

— ماذا هناك!! لم البكاء!؟

أجابت بمزيدٍ ومزيدٍ من الدموع، ارتفع صوتُ بكائها فجذبها إلى ذراعيه، يمسح عى رأسها ويهمس إليها بأن تهدأ.

— اهديني، لا تبك.

تمسّكت بأحضانه وكأنه أبوها، صمتَ كلاهما، والصمت يعدّ في بعض الأحيان حديثًا.

لم تكن لتتوقّع أن ييوح، لطالما بنى ألف جدارٍ لتفقد الأمل، والحبّ داخلها لا يفتر، تزداد شعلته اتقادًا.

كلّ ما كانت تدركه هو الأمان بقربه، اتّخذت منه ملاذًا آمنًا، بين ذراعيه وطنها وقلبه الكبير ملجؤًا.

أمّا عن فارس الذي لطالما أخذ بركان شعوره، يدرك أنّ الطريق شائك، لكنّ فقدانها سيجعله أكثر تعقيدًا، ففي خسارتها الموت وإن بقي على قيد الحياة.

استأجر جمال أحد المطاعم الشهيرة لليلةٍ واحدة، أراد التقرب من جميلة أكثر، جلسا معًا في ظلّ صوت الموسيقى الهادئ، ابتسم إليها يحدّثها بعينين لامعتين:

— أتعلمين؟

انتبهتُ إليه، تنتظر حديثه في اهتمام، فتابع:

- أنتِ أول امرأة يدقُّ لها قلبي.

ابتسمت، أسدلت جفنيها خجلاً:

- لم تحبّ ولا مرّة بحياتك!؟

- ولا مرّة.. ولا مرّة.

تدلّت السعادة من محاجرها، طار قلبها بين أضلعها:

- أنا حبّك الأوّل إذاً، أنت أيضاً أوّل رجل أحببته.

- أعلمُ ذلك.

- كيف عرفت!؟

أجابها بسؤال، وعيناه صوبَ عينيها ينتظر إجابتها بترقب:

- سأكون حبّك الأخير أيضاً؟

- أثقُ بك، لا تخفِ عني شيئاً، بالتأكيد ستكون.

حبست كلماتها القليلة أنفاسه، استعرضت ذاكرته ما يخفيه عنها،

أخبرها؟! ماذا لو تركته. وإن أخفى سيأتي يومٌ تعرف فيه.

قرّر حينها البوح، لتكن رصاصة الرحمة، استجمع قواه وحاول الحديث

فتجمدت الكلمات على لسانه، ارتفعت دقات قلبه يهمس باسمها. فالتفتت

له..

- أريد أن.....

قاطعته بابتسامة، تنفجر حماساً:

- أريد أن أرقص على تلك الأغنية معك، هيّا بنا.

جذبتة حائراً، تتمايل معه على أنغام هادئة، لم يتسنَّ له الحديث عما أراد.
 - عندما كنتُ صغيرة، كلما ارتديتُ فستاناً جديداً، وقفتُ أمام المرأة
 وحملت دميتي، أراقصها وأتخيّل كونها حبيباً لي اخترته.
 كبرت الآن وتحققت أمنيّتي، أنت خيارِي.
 ابتسم بقلبٍ متناقل، تمرق الأفكار عقله، تنهّد يحدث نفسه "لو كانت
 انتظرت".

- ما بك؟

- سعيد أنا معاً.

ألقت برأسها على صدره، ابتسمت.. أغمضت عينيها، وجدت أمانها، لم
 تشعر يوماً بالأمان رغم حبِّ والدها لها، أخطأه لطالما حطمت استقرارهم
 وإن بدا للجميع أنّ كلَّ شيء بخير.
 ساد الصمت، وإن كان صمتُها راحة، فصمتُه كان رعباً.. يخشى خذلانها،
 يخشى خسارتها.
 مؤلم الكتمانُ ضعفَ ألم البوح، فالصمت أفضل وإن كان قاتلاً، ففي
 جدرانها نقشَت حكايات.

كم تمنى جمال لو أنها سرقت الكلمات من عينيه، لكن تمنّيه يتلاشى فور
 تخيله رحيلها، وكأنَّ روحه ترحل عنه، فيعود للصمت.

لا علاقة مستقرّة دون اهتمام، وإن وجد الحبّ فالاستقرار حبّ واهتمام،
 إن سقط ركنٌ لا معنى للآخر دونه، وعلى هذا الأساس مارس مدحت
 لعبته.

يوم يمرّ تلو يوم يجذبها إليه أكثر. استغلّ انشغال سمير عن أسماء يغدق عليها من اهتمامه وعطفه، فلم يكتفِ بمطارقتها عبر الهاتف، فلا تذهب إلى مكان حتى تجده فيه، حتى بدأت تستلطفه هي الأخرى، فعلى الرغم من احتلال سمير لقلبها إلا أن ذلك لم يشفع فقر اهتمامه، انجذبت لمنبع آخر يعوضها ذاك الفقد.

برغم استمتاعها باهتمام أحدهم إلا أن داخلها يخشى فقد الآخر، وكأنها اعتادت على الفوز بكل ما رغبته، فلا تملك ثقافة التنازل عن شيء لأجل آخر، فكل طلباتها مجابة أيّا كان الثمن، روضها والدها على الأنانية والاحتكار، فلا مصطلح خاصّ بالإخلاص أو التضحية من أجل شيء أحبّته في معجمها.

جلست في حديقته تستمتع بتناول الشاي، ارتفع صوت هانفها فابتسمت، لم تر الاسم.. علمت فقد اعتادت اتصاله في هذا الوقت.

- اشتقت إليك، أريد أن نخرج معاً.

حدّثها بصوت هامس فابتسمت، لم تجبه فأكمل في لهفة:

- لم أرك منذ يومين عندما كنّا في النادي، حاولت الحديث معك فتركتيني...

أفتقدك بشدّة.

أجابته في نبرة جدية، تحاول مماطلته:

- أنا مخطوبة، ألا تلاحظ؟!

- اعتبريني صديقاً.

- كيف لي أن أعتبرك صديقاً وأنت لا تراني صديقة؟

- اعتباراتي ليست بأهميّة اعتباراتك، لكنّ أصدقاء ومنتقابل.
نصبَ شباكه وألقى بالطّعم، وهي على وشك التقاطه، تتحرّك الكلمات
في رأسها والشيطان يزين رغبتها، طال صمتها. حينها أكّد على كلماته فلا
يدع مجالاً للتردد:

- سأتصل بك لنحدد موعداً لتناول الغداء معاً.
أغلق الهاتف، فلا فرص للرفض. تركت هاتفها على المنضدة المقابلة، ثمّ
تناولت فنجانها تفكّر في كلماته بعينين مبتسمتين.
بدأ سميع العمل بشركات والده بجانب دراسته، جلس على مكتبه يتأمّل
هاتفه بين يديه في تعجب، فلاوّل مرّة يحاول الاتصال بأسماء فيجد هاتفها
مشغولاً.

حاول الاتصال مراراً وتكراراً ولا فائدة، الهاتف مشغول. "مع مَنْ
تحدث منذ ساعة وأكثر؟"، يتساءل في حيرة لم ينخرط فيها كثيراً، انتشله
منها جمال قبل أن يغمسه الشرود بدخوله المكتب.

- ما بك؟ مع مَنْ كنت تتحدّث بالهاتف؟

استفاق ثمّ التفت إليه. ابتسم يحدّثه:

- لم أتحّدث بعد، كنت أحاول الاتصال بأسماء، الهاتف مشغول ما يقارب
الساعة وأكثر.

- إيمم، ربما تتحدّث مع صديقة أو شيء كهذا.

ضحك ساخرًا، فهو يعلم مدى غرورها. فلا صديقة واحدة لها:

- صديقة تتحدّث معها لأكثر من ساعة!! أنت لا تعرفها أبداً.

- أليست كباقي الفتيات؟

- هي فتاة.. لكن ليست بكبيرة الفتيات.

فهناك نوعٌ يصادقها لأجل مالها وحسبها، وذلك معروف حدود افتراضه في حياتها.

ونوعٌ آخر يصادقها لتحاشي إيذاءها، وبالتأكيد لن يحب الحديث معها خمس دقائق وليس ساعة، هي لا تحب تكوين صداقات، إنها تعشق السيطرة والتملك فقط، تحصل على كل ما ترغب حتى تملّ تلقي به بأقرب صندوق قمامة، متعة الشيء عندها تنتهي فور الحصول عليه.

أصيب جمال بالصدمة من كلمات أخيه، لم يكن يدرك أنها بهذه البشاعة، مشفقاً عليه يسأله:

- أهذه الدرجة!؟

- وأكثر يا جمال، أنا أعرفها أكثر من نفسها.

- أتكرها!؟

سأله ليغطّ في الصمت، وكأنه يفكر في إجابة، أحقاً يكرها؟ وبعد وهلات أجاب:

- لا أكرها، ولكني لا أحبها، كانت نزوة لولا والدك.

- أتفكر في تركها؟

تنهّد حينها، ثم ابتسم في سخرية:

- كلانا يشبه الآخر كثيراً. لا أظنّ إلا بكارثة.

- ألا تخشى خيانتها؟

- أتوقّع منها أيّ شيء، لكنّها إن فعلت ذلك سأحرق قلبها وأتركها بجرح تتألم به لآخر العمر.

- لا تفكّر بهذه الطريقة .

- أنت طيّب القلب، أنا وهي نملك نفس الماضي، كلانا لعنة الآخر، دعك منّا وأخبرني أنت، ما بك هذه الأيام؟

استرجع جمال حيرته في أمر جميلة، لاذ بالصمت، ربت سمير على كتفه يعيد السؤال.

- عقلي سينفجر، أريد أن أخبر جميلة بما حدث لكنني أخشى تركها لي إن علمت بالأمر.

انفعل سمير، صرخ فيه مستنكراً:

- أجننت!!، الموضوع انتهى أكمل حياتك كأنّ شيئاً لم يحدث.

استطرد في حزن قائلاً:

- أشعر بأن الأمر لم ينته، قلبي ينفطر يا سمير، أعيش في رعب. أنا أحبّها كثيراً لا أريد منها تركي.

شعر بالشفقة عليه، فللمرة الأولى يتعلق بشيء، يعلم كونه رقيق القلب، كيف لذلك أن يؤثر عليه، حدّثه في رقة يطمئنه:

- لا عليك، دعك من ذاك الأمر ولا تفكّر فيه، من يدري!.. فقد يأتي اليوم الذي تبوح فيه دون خوف.

- أظنّ أنها ستسامحني حينها؟

اقترب منه حينها، ابتسم إليه في هدوء:

- طالما تحبّك ستسامحك.

فزع كلاهما من صوت الباب فانقطع حديثهما، فتحته السكرتيرة في لهفة دون استئذان، لوح سمير في غضب يوبّخها..

- آسفة سيدي، الأمر لا يحتمل. حسان بيه فاقد الوعي في مكتبه.

هُرِعَ إلى المكتب وأخوه خلفه، يجسّ نبض والده ثم طلب من السكرتيرة الاتصال بأقرب مستشفى. دوى صوت عربة الإسعاف بأرجاء الشركة، خرج حسان على سرير متحرّك والجميع خلفه، فللمرة الأولى في حياته يسقط، سقط وكأنّه لن ينهض بعدها أبداً.

انتهى الطبيب من الفحص، وما أن خرج من باب الغرفة حتى أسرع إليه ولدا حسان، فبادر جمال متحدّثاً يسأل عن صحة والده:

- أهنأك أيّ أعراض غريبة ظهرت على والدك في الفترة الأخيرة؟

- وزنه فقط. لكنّ ذلك بسبب إجهاد العمل فهو لا يترك شركاته إلا للضرورة القصوى.

- حسناً، ألم يشكّ من شيء آخر كارتفاع درجة حرارته، تعرّق ليلاً، نزيف لثة. آلام في كبد أو طحال؟ هل ظهرت أيّ أعراض مثل هذه عليه؟!

- لا أعلم سيدي. هو نادراً ما يشتكي من شيء.

أوماً الطبيب برأسه في أسى، ثم طلب مجموعةً من التحاليل يستعجل إجراءها، شعر سمير بشيء غريب فحاول التدخّل:

- أهنأك أمر تخفيه؟

- بصراحة. لا أخفي عليكم، هناك بعض العلامات بإصابة والدكم بمرض ايضاض الدم، لا نريد تعجيل الشر، التحاليل ستظهر كل شيء، وأتمنى أن أكون على خطأ.. وإن صدقت التحاليل فيجب البدء في العلاج بأقصى سرعة، التأخير ليس بمصلحة المريض.

غادرهما الطبيب فالتفت جمال معلقاً ناظره على سمير في صدمة، وكأنّ الكلمات تجمّدت في فمه لا يتفوّه بأي صوت، ربت أخوه على كتفه مواسياً متنهّداً، حاول حينها استجماع نفسه والتمالك، خرجت الكلمات ترحف بلسان ثقيل:

- والدنا مُصاب بالسرطان يا سمير.

غرق سمير في صمّ مدقع، ثم رفع وجهه مطلقاً ضحكة قصيرة ساخرة، حدّث نفسه بصوت مسموع:

- عجباً للحياة، إن أعطت اخترت. وإن اخترت صبرت، فإذا تجبر المتلقي استردت ما وهبت، لا كاملاً.. بل شيءٌ مساوٍ لكل شيء، إن سقط لا معنى للبقية، تشعره بمدى ضآلته، تجعله يتمنّى لو عاد كما كان، بلا أي شيء سوى ما سُلِب. ولا ندم يعيد ما رحل، تلك صفقة الحياة لمن غفل عن النهاية.

امتلاّت عينا جمال بالدموع، ضمّ قبضته إلى صدره. تحدّث بصوت ضعيف:

- أشعر وكأنّه ذنب الفتاة.

- أهى فقط؟؟

أمسك أخاه يهزه ثم استطرد:

- انظر إلينا. كم ظلمنا من أجل المال!، تأملني أنا.. أتدري كم قلب بريء أحبني بصدق ثم كسرتُه!!؟ والدتك.. أتدري للمرة الكمّ تدخلت بنفوذها فقلبت الظالم مظلوماً والمظلوم ظالماً؟!

استسلم جمال لكلماته، صمت كلاهما فعاد للحديث:

- لا وقت لعتاب الآن، دعنا الآن ننهي ما طُلب.

خرج سمير من غرفة الطبيب منكس الرأس، يتردد في عقله كلماته "كما توقعت، علينا أن نسرع. عليه بدء دورات الكيمياء في الحال"، استقبله أخوه فعلم من نظرة عينيه المنكسرة دون حديث.

دخلا على والدهما المستلقي على الفراش مكّليين بالصمت، أثار ذلك الريب داخله فبادر بالسؤال:

- ماذا هناك؟! ماذا أخبركما الطبيب؟

نظر كلّ منهما للآخر لا يدري ماذا يقول، فصرخ فيهما حسان:

- ألم تسمعا؟

مسح سمير جبهته في توتر، يستجمع كلماته فتشتت منه، فبرغم قوّته لا يعلم كيف يوصل خبراً كهذا لرجل كأبيه، كيف يخبر ذاك الشامخ بأوان ضعفه وانكساره!!

- في الحقيقة. لا أدري ماذا أقول، حقيقة. أنت..

- أنا ماذا!!؟

- مصاب بسرطان الدم.

خرجت الكلمات من بين فكّيه زحفاً، موقن بوقوعها على أبيه، فقد بدت اللامبالاة على وجه حسان كأن لم يسمع. انتظر سمير ردّة فعله، أذهنه المتلاشي من المرض السبب في ذلك، أم أنه لا مبالٍ بالفعل، رفع وجهه من جديد وكأنه ينتظر إجابة أخرى:

- ماذا كنت تقول؟

نكّس حينها رأسه، أجاب أباه في هدوء:

- أبي، لا تصعب الأمر أكثر.

سرت رعشة ما بجسده، استند محاولاً التظاهر بالتناسك، وولده يتأمله. لا يرفع ناظريه عنه، يحدث نفسه "أذاك الذي نسي كونها فانية، باع كل شيء حتى يملك إمبراطوريته الفارهة. باع الصديق والقريب، حتى الولد والضمير. وإن اشتراه الشيطان بمقابل أكبر سيبيع!".

قطع شروده الطبيب بدخوله:

- يجب أن نبدأ العلاج.

صرخ فيه حسان بما بقي لديه من قوّة:

- لن أفعل، عملي ينتظرنى.

يعاند مع مرضه، ذاك الجندي الذي لا يرحل بالتّجاهل. ولا تُذهبه رشوة، حاول الطبيب إقناعه فلم يعطه فرصة للحديث، جذبه من ملابسه في عنف، نظر صوب عينيه ثم حدّثه في تحدّد مصحوب بعناد:

- ليس أنت من يحدد ما أنا عليه، يمكنني السّفر إلى أيّ مكان بهذا العالم والاستعانة بأهمهر أطباء للقضاء على هذا المرض.. يبدو وكأنّك لا تعرف شيئاً عن عملك، وجاهل بمن تتحدّث إليه.

حاول سمير تخليص الطبيب من بين يدي والده:

- اهدأ يا أبي؛ هو يقوم بعمله فقط.

- لا تلمسني يا غبي.

أمسك الطبيب بقبضتي حسان في حذر، حدّثه في اضطراب ممزوج

بهذوء:

- سيدي اهدأ، ذاك المرض خبيث، وهذه مستشفى خاصّة مصمّمة على

أعلى مستوى من التجهيزات.

أرخی قبضتيه ثمّ جلس في استسلام فأكمل الطبيب محاولاً تخفيف

الأمر:

- إن كنت تريد السّفر فلا بأس، لكن هنا أفضل. إن احتجت لسفرٍ

طلبت منك ذلك، تقبّل الأمر وساعدنا لتساعد نفسك سيدي.

ساد الصمت من جديد، ثمّ عاد للسؤال بصوت حادّ وكأنّه يخفي خوفه

وضعه خلف صوته العالي:

- متى سيرحل هذا المرض عن جسدي؟

قاطع سمير من جديد يطلب من الطبيب الرحيل، وما أن خرج من

الغرفة حتى التفت إلى أبيه محدّثه:

- أبي، كفأك.

رفع حسان كفّه، ثمّ صفعه في قوّة، تجمّد جمال مذهولاً. حينها صرخ

سمير:

- أَلن تتعظ أبداً، فلتجعل أموالك تشتري لك أياماً إضافية في عمرك،

اجعلها تسترجع صحتك التي بدأ المرض بالتهامها، أعطِ المرض من مالك

ليتوقّف يا حسنّ، ألا حدّ لذاك الجبروت، انظر لنفسك جيّدًا وأجنبي، كم ستدفع للألم كي يتوقّف عن مهاجمتك. ولو دفعت مالك كلّه لا قيمة.

طرقت الكلمات جليد قلبه فتشقق، وكأنّه أراد البكاء لولا كبرياؤه، ضعفه تسرب إلى ملامح وجهه.

تأمله سмир في حزن. تنهّد ثمّ استأذن في الخروج، استوقف الطبيب يعتذر عمّا بدر من والده.

— لا عليك، الأمر صعب. علينا مراعاة صدمات المرضى، يمكنكم أخذه معكم إلى المنزل، لكن عليه المواظبة على العلاج الذي سأكتبه له بانتظام، المرض ليس هينًا، من فضلك حاول إقناع والدك بالراحة.

بدا الانكسار على وجهه، أوّماً برأسه تاركًا الطبيب، اعترته الحيرة يسأل نفسه "أهذه البداية؟"، ومن بين شروده تذكّر أدهم، ثمّ سرعان ما تناساه. فهناك الكثير مؤخرًا يشغل تفكيره.

أمّا عن أدهم فلم يكن أحسن حالًا، فقد كان هو الآخر يمرّ بأسوأ أيام حياته، والدته بين الحياة والموت، قبل إجراء العملية الجراحية طلبت رؤيته، دخل الغرفة وقلبه يُعْتَصِر من الألم، فالقلق والخوف يعتريانه، أمسك كفّها برفق. حدّثها يستمد الأمان من كلماتها:

— أنت بخير؟

استطردت في وهن تلتقط أنفاسها:

— أيمكنني طلب شيء منك؟

ابتسم إليها بعينين لامعتين، أوّماً برأسه، حينها أكملت:

— كن بخير.

انقبض قلبه، فكيف لها أن تتحدّث وكأنّه آخر لقاء، تمالك نفسه يجبس دموعه.

- سأكون بخير بوجودك إلى جوارى.

- أو دونه يا عزيزي.

- أمي لا تقولي هذا من فضلك، الخوف يملأني بحديثك هكذا.. ستبقيين إلى جوارى، ستمسكين بيد عروسي، ستحملين أحفادك.

ابتسمت إليه تتأمّله، لمست وجنته في ضعف، حينها أكمل:

- لن تتركيني، أليس كذلك؟!

- سيكون كلّ شيء بخير.

أمسك كفّها في رقّة، شرد في مقلتيها والرّعْب يملأ قلبه، نظراتها ليست كلّ مرّة، نادته فانتبه إليها..

- إيّاك أن تنسى ما اتّفقنا عليه معاً.

- على وعدي يا أمي.

ساد الصمت. عادت للحديث:

- لا تترك جوارى.

- اقترب وقت الجراحة.

عادت إلى الابتسام:

- لم يبقَ الكثير إذاً.

قطع حديثهما دخولُ الممرضة فقد حان الوقت، نقلوها إلى سرير متحرّك، لم تغادر وجهها ابتسامتها لا تزوغ عيناها عن وليدها، وكأنّها تخشى غمضة لا تراه بعدها أبداً.

رافقها حتى انغلق باب غرفة العمليات، وقف بالخارج يعتريه القلق تارة فتسوقه قدماه ذهاباً وإياباً ثم يعود للثبات، يتأمل باب الغرفة علّه يفتح ولا جديد، ساعة تلو ساعة مرّت، القلق التهم قلبه والهواجس داخله لا تنقطع. توحيده وزوجها إلى جواره يحاولان التخفيف.

خرج الطبيب. وغطاء الفم يخفي تعابير وجهه، ماذا يخفي هذا الغطاء. أغبطة لنجاتها أم حزناً على روح لم تلمسك بالجدس؟!

علّق أدهم ناظريه في رجاء، وما أن أزال الطبيب الغطاء حتى وضع الأمر. وجهه يتحدث بما لم يُنطق بعد والأخير ينكر عقله، ينتظر كلماته عل ما قفز إلى ذهنه مجرد وساوس لا أرض لها، فتحدّث ينهي الشك بيقين.

— حاولنا، لكنّ مشيئة الله فوق كلّ شيء، البقاء لله.

تركه خلفه راحلاً. لم يبك، وقف بملامح جامدة والصمت سيّد للموقف، أكان يعي ما قاله الطبيب أم لم يصل إلى عقله عبارة كالبقاء لله، وكأنّه كابوس.

وقفّ جاره إلى جواره بأسى، مهددين لجراحه التي لن ينكأها أيّ مواساة. فكيف لهما التخفيف عن بقايا روح. رحلت أمّه وأخذت كلّ ما هو رائع داخله، آخر شعلة أمل بقلبه قد انطفأت.

وكأنّ جوارحه غطّت في النوم، لا يرى ولا يسمع. وما أن بدأ يدرك ما يدور حتى خطفه الماضي، شريط من الذكريات معها يمرّ أمام عينيه، بات يتيمّاً. كسر ظهره، وكأنّه صغير ضاع في الزحام.

لم تردّ غلق عينيه، أدركت كونها النهاية. تمتّ لو دام النظر إليه إلى الأبد، فالحظة التي أسدلت فيها جفنيها لم تفتحها بعدها أبداً.

طال صمته، لم يتفوّه بعدها إلّا بعارة واحدة "أريد رؤيتها".
 ما أن نقلوا جثمانها حتى سمحوا له بإلقاء نظرةٍ أخيرة، تأمل جسدها
 الممدد على فراش الموت، كشف عن وجهها. حدّثها وكأنها لم تزل على قيد
 الحياة:

- لم الآن يا أمّي! لم الآن؟!!

علق مقلتيه مترقبًا، وكأنه ينتظر إجابة.

- أمّي، ألن تجيبيني؟!!

أدرك كونه لا أمل، لن تجيب. لن تجيب أبدًا، نام إلى جوارها للمرّة
 الأخيرة، انغمس بجسدها البارد، يكيها كما لم يبك شيئًا من قبل.

لم يمنع سمير انشغاله بمرض والده من الشكّ بأمر خطيئته، اعترتها الغرابة
 بآخر الأيام للدرجة التي دفعته إلى مراقبتها، فلم تعدّ تلحّ عليه بالخروج كما
 اعتاد منها، امتقاع وجهها بصُفرة التوتر كلّما رنّ الهاتف في حضرته، مذمتي
 وهي تهتمّ بالحديث إلى أحدهم؟! لطالما كانت وحيدة بلا صديقات.

دعاها على الغداء بالنادي الذي اعتادا اللقاء فيه، جلسا على منضدة
 متطرفة، لمحهما مدحت فاقترب جالسًا على أخرى قريبة مواجهًا لها، تعلّقت
 عيناها به وتشتّت كلماتها، يحدّثها سمير وتجييه بكلمات لا رابط بين بعضها
 البعض، اكتمل المشهد بصوت هاتفها يعلن عن رسالة قصيرة أرسلت.

- ماذا هناك؟

سألها فازداد اضطرابها، جذب الهاتف من بين أناملها ليجد رسالة فحواها
 "اشتقت إليك".

دقّ الخوف أبواب جوارحها، تراقب اندهاشه الممزوج ببركان غضب على وشك الانفجار، تصنّع حينها الهدوء محاولاً الاتّصال على صاحب الرسالة، فرنّ هاتف مدحت من خلفه بمسافة، التفت سمير متتبّعاً مصدر الصوت ففرّ مدحت صعباً.

قدما سمير كانتا أسرع، استطاع اللّحاق به، قفز عليه ثمّ طرحه أرضاً، انهال باللّكمات على وجهه حتى سال الدّم من فمه.

— كفاكم.

صرخت بها أسماء ثمّ طلبت الاستغاثة من رجال الأمن، ومن بين عدّة محاولات بائسة استطاعوا تخلص مدحت من بين يديه ومساعدته على النهوض بعد أن أوشك على قتله، وكلاهما قد تأدّى.

اقتربت من سمير في خوف تحاول مساعدته، أخرجت منديلاً ورقياً تمسح عن وجهه نرف جروحه إثر الشّجار، دفعها صارخاً بها:

— إياك ولمسي، أتفهمين؟

ارتفع صوت بكائها في محاولة لتدارك الموقف:

— هناك سوء تفاهم.

— لا أطيق سماع صوتك، أغلقي فمك.

— سمير...

— لا تنطقي اسمي على لسانك.

تركها غارقة في حيرتها، تشعر بالكثير من الألم، وكأنه جذب روحها فتدلّت تأبى الخروج عنها وتركه، يسحبها إليه وهي تتألم أشدّ الألم، فلا منها

رحلت عنها وارتاحت، ولا منها استقرت داخلها فسكنت، أخطأت عندما انصرفت إلى آخرَ تطلب منه الاهتمام، لكنَّ الحقيقة تنتعش عند الصدمات، لم تعرف الحبَّ مع مَنْ سواه.

أمسك جمال قدحًا من القهوة الساخنة يرتشفه متأملًا السماء، يستنشق دخانه مسترخيًا، يصرف نفسه عن كلِّ الأفكار التي طارده منذ يوم الحادث، استأذنه سمير قاطعًا انفراده بالدخول، جلس بالقرب دون التفوّه بحديث.

- اطلب من الخادمة إعداد القهوة لك؟

أجاب نافيًا بالرأس، طقطق رقبتة معبرًا عن إجهاده، مقلته تشوبها حمرة ما، وكأنَّ عقله صرعه التفكير.

- أنت بخير؟

ومن بين حديثهما رنَّ هاتفه، التقطه ثم رماه في ازدراء:

- مَنْ المتصل؟

- أسماء.

شرد بعد لفظ اسمها في فعلتها، ففهم الأخير حدوث خلاف ما بينهما.

- ماذا هناك؟!

في البداية رفض الحديث، ومع ضغط جمال أخبره بما حدث في النادي:

- عرفت مَنْ يكون؟

- نعم.. مدحت بن كامل الخناوي.

اتَّسعت حدقتاه، يعلم كَوْن كامل الحناوي المنافس الوحيد لوالدهما،
فاستطرد قائلاً:

- أتعلم أنّ أباه وأباك نشبت بينهما الكثيرُ من المشاكل المعقّدة قبل أن تأتي
أنت للعمل هنا بالشّركة، خطبتك لأسماء أضاعت عليه فرصةً كبيرة، فهو
يرمي إلى ما رمى إليه والدك، فقد بدأ مشروعًا جديدًا مع حمدي مكرم لتوّه.

- تعني أن كامل الحناوي له يد بالموضوع؟

ابتسم جمال ساخرًا، وقد انكسرت نبرة صوته:

- لقد دخلت عالم الأعمال والتجارة، كلّ الوسائل مباحة والمشاعر تحت
الأقدام، الفائز فيه مَنْ برع في قتل ضميره.

صمت سميّر طويلًا، يفكر مليًّا في ما عليه فعله في الأيام المقبلة، أوتركها
له أم يتمسّك بها، فاختر إكمال اللّعبة، تحوّلت أسماء إلى تحدٍّ، جرّدها من
كينونة أسمى إلى شيء جامد، ينال منه مَنْ يصل إليه أولاً.

انتهى الجنود من تحضير مراسم حفل السّخر الذي سيقام من أجل
مقدنيو ليتراًس عرش الشّر، أمر الجميع بالخروج عدا جانيت، جلس داخل
دائرةٍ محاطة بشموع يقرأ الطلاسّم الموجودة بالكتاب.

بدتْ أشباح من اللاشيء تتطاير حول الدائرة، تأملتْ جانيت وقلبها
يلتهمه الفزع التهامًا، تراجعت حتى التصقت بالجدار الصّخري خلفها،
انتصبَ مقدنيو في مكانه، وجّه كفّه لجانيت دون التحرك خطوة واحدة

فجذبت إليه بفعل قوة خفية، صرخت تطلب الغوث، وتوسلاتها هباءً
مشوراً، أشهر سكيناً وعزف على أوتار جيدها.. نفر الدّم وسقطت على
الأرض تنتفض.. تتلوى بخروج الروح.

فمن يخدم الباطل سرعان ما تنقلب خدمته عليه، أسياد الباطل لا يعتزّون
بأحد، عند انتهاء وظيفتك تكن أول ضحاياهم مهما بلغ ولاؤك لهم، من
خان أحدهم مرة يخون ألف مرة.

غمس كفيه في الدماء مكملًا تعويذته بتمتمة الطلاس حتى احترقت
تلك الأشباح الدائرة، دخلت جسده ثم خرجت من عينيه.

كسا اللون الأسود بياض الملتحمة، عيان سوداوان تلمعان بالشر،
تحركت نسمة خبيثة وأطفأت الشموع من حوله، وجه ناظريه إلى الصولجان
فتحرك إليه وكأن روحهما اتحدا معًا، اشتعلت جوهرة الصولجان بعينين
مقدنيو، هدأت الأشباح واصطفّت صفًا أمامه، مرددة بصوت واحد متكرّر
"يا سيّد الشر، يا ملك السّحر الأسود، اطلب تطاع، نحن خدمك".

ارتفعت قهقهاته، شعر بنشوة الانتصار وقرب مراده، عند انتهائه بدأت
خيوط الشمس تُنسج في كبد السماء، خرج من كهفه رافعًا صولجانه عاليًا
مردّدًا "فليكسو السّحر المملكة، فلتغطي قوتي تلك الأرض"، انفجر دخان
أسود مصدره الصّولجان غطى السماء، انسدل الظلام كالستائر، وانتشرت
الأشباح في كلّ مكان.

مقدنيو أمرًا: "انتشروا في أرواح جنودي، احتلّوا أجسادهم لتكونوا
القوة"، تعالت صرخات الجنود، يحاول الواحد منهم الهرب ولكن أين

المفر؟! سلبت أجسادهم فباتوا مسوخًا، آلات للتدمير.. التدمير فقط، حلّ الظلام الدائم وانتشر الخوف في الأرجاء، عادت المملكة يغطّيها السحر الأسود.

شعرت كارين بشيء غريب، خرجت للتأكد، تغير لون الرقيع إلى الأسود، يموّج بها كالدخان ويحجب الشمس التي ما لبثت أن أشرقت، صعقت.. عادت إلى الداخل، جلست القرفصاء أمام بلورتها التي علّققتها على الأرض، بدأت بالاستغراق في التأمل تبعث رسائل إلى السّاحرات ذهنيًا بالتجهيز لإرسال رسائل إلى الأميرة كاميليا.

قطع تدريب كاميليا فقاعة نورانية انفجرت بجوار أذنها تحمل أصوات ما، وكأنّها استغاثات من عالم آخر، هرولت حينها إلى فارس تسأله عن ماهية الأصوات، تجمّد مصعوقًا..

— ماذا سمعت؟

— أصوات تقول سحر أسود، سماء.. أرض النور، إغاثة، لم أفهم.

بدا عليه الاضطراب، تتمم لنفسه "لقد استحضر مقدنيو روح فرين"، التقطت مسامعها تلماته فسألته عن صاحب الاسم.

— من فرين؟!

— ساحرٌ برع في استخدام السّحر الأسود، له تاريخ سيئ، بات واحدًا من أساطيرها، مقدنيو أيقن انهزامه فلجأ إلى أكثر الوسائل قذارة.

ساد الصمت، وبدأ القلق يأكل قلب كاميليا، فكيف لها مواجهة كل هذا الشر بمفردها، الأمر ليس هيناً أبداً.

- أخائفة؟

حرّكت رأسها نافية، رغم شدّة خوفها أبت أن تطلعه فتزيد من ثقل همّه فاستطرد قائلاً:

- لا تخافي من شيء، سأعلمك كيف تحمين نفسك، وسأحميك.

- لن تتركني؟

- أبداً.

تبسّمت طمأنينة، أحدهم يحبّك بالجوار؛ لم الخوف؟!



الفصل الثامن

تناول السَّجَّان طعامه ثمَّ غَطَّ في نوم عميق، تسلَّلت كوزيت إلى محبس "آن"، تناديهَا فانتبهت لها، لم تعرفها في البداية، فحالتها يرثى لها، يأكلها الإنهاك والضعف، ذهنها المشتَّت لا يقوى إلَّا على تذكُّر القليل، أجابتها بصوتٍ يشوبه الأمل كغريق انتشلوه:

- أين كنت كلَّ هذا الوقت؟!

- كنت أحاول الوصول إلى الأميرة "آن".

انتبهت حينها، حدثتها بنوعٍ من الترقُّب، تسألها عما توصَّلت إليه، أجابت كوزيت تشدُّ من أزرها:

- اقتربوا يا "آن"؛ اصمدي.

ساد الصمت، انحنى رأسها في استسلام، حدَّثتها بكثير من الألم:

- أنا تعبَةٌ يا كوزيت.. تعبَةٌ.

تعلم كم أنَّ صديققتها تعاني بالقيد، كلمة الحقِّ ثمنها غال، والحزن يطفئُ قبسه الحبِّ، قطعت خاطرها الحزين بحديثٍ عن رجل انتظرتَه:

- رأيت وجه هنري ببلورة كارين، يعمل بجهد للعودة إليك.

ابتسمت حينها حتى بدت ثناياها، هنري برهنَ صدقه، عادت للحديث عن الظلام الدامس، لم يخترق شعاع النور جدران الحائط منذ أيام، وكأنَّ الليل أعلن موت النهار.

اضطربت، كيف لها أن تخبرها أنّ الحال يسوء أكثر، وأنّ الشرّ تمكّن من أرض النور، بدت نبرة كوزيت محمّلةً بالكثير من الأقنعة.

- إن كان هناك شيء فلا بدّ ألاّ تخفيه عنيّ، أعلم من صوتك أن أمرًا مريبًا يحدث.

استسلمت تحدّثها بعد وهلات من الصمت، تذكّرها بأسطورة فرين التي تداولها الناس على مرّ القرون.

- الملك مقدنيو وجد مخبأه القديم وتعلّم تعويذاته، استحضر قوى الشرّ فخيّمت على المدينة بأكملها، اختفت الشمس وحلّ الظلام بالبقاع.

- ألم تكن أسطورة!!؟ كنّا نقصّها على الأطفال بغرض المتعة، لم أتخيّل يومًا كونها حقيقة.

- لم تكن أسطورة يا "آن"، عثرت جانيت على مخبئه، وأخبرت مقدنيو. امتلأت غيظًا، بدأت بالسّباب على جانيت تندّد بأفعالها التي ستقلب عليها يومًا فأوقفتها كوزيت قائلة:

- لا داعي لذلك "آن"، لقد قُلت جانيت.

وبرغم أفعال جانيت الدنيئة التي ارتكبتها في حياتها، شعرت بالأسف حيالها فور أن سمعت خبر مقتلها، تستفسر عن قاتلها.

- من قامت بخدمته، قتلها مقدنيو ليفعل تعويذته، لقد حوّل الأرض إلى موطنٍ للوحوش والأشباح، القصر هو المكان الوحيد الخالي منهم.

قطع أحبال الحديث تحركُ السَّجَّان في مضجعه، تجمّدت أطراف كوزيت، حبست أنفاسها خشية استيقاظه فيكشف أمرها، انقلب مكملًا نومه، تنفّست الصعداء.. تحدّثت إلى "آن" بصوت هامس:

- عليّ الانصراف الآن، سآتي مجددًا لا تقلقي.

غادرت تاركة "آن" في قيدها، تأمل فرجًا قريبًا.. تفكّر في هنري الذي سيعبر الأراضي لأجل سلامتها، وتحلم بيوم يعود فيه السلام للأرض كما كانت.

يتمايل رداؤها الأبيض مع الرّيح القادمة من الوادي، تشاهد التّنانين من أعلى التّل، جامدة كالوتد، عقلها يغطّ بعالم عميق، أمّا فارس وقف على مقربةٍ منها يفكّر في النهاية التي تقترب، الفراق قادمٌ لا محالة وعليه إنهاء رسالته، التفت إليها ثمّ تبسّم يستردّ ذكرى، حدّثها:

- أتذكّرين ما علمتك إياه في استدعاء التّنين الخاصّ بك؟

أومأت برأسها، أكمل بصوت شجنٍ وقد ازداد تبسّمًا:

- عليك تكرار الأمر مع التّنانين هناك، بأمرٍ مختلف، سخرها لخدمة الجنود ليستطيعوا استخدامها.

تراجعت تنهادى لتفسح المجال، ضمّت معصمها إلى صدرها تستجمع تركيزها، حاولت الوصول إلى نقطة اتصال بذهنها مع التّنانين بالوادي، تحدّثهم في نفسها: "هزولوا إليّ، اسمعوا ندائي، كونوا في خدمة جنودي".

رفعتُ جفنيها تتأمل الوادي، الثَّنائين في صف جنبًا إلى جنب، خاضعون للأمر، تعالت ضحكات فارس مشجَّعًا:

- ها أنتِ فعلتِها، سأصدر أوامر للجنود بالحضور.

وقفت أمامه بعينين ضاحكتين فرحةً بدَّعمه لها، كطفل كتب أوّل حرف له وكأنه كتب كتابًا، هرول الجنود إلى الوادي، كلّ يطاءً تنيًا.

- ثمّ ماذا؟!

قالتها تنتظر الخطوة التالية.

- بقي أمرٌ وحيد قبل تحرّك الجيش.

نحتاج للمرور بأرض الوحوش بأمان، تذكّرين ما مررنا به هناك.

اضطربت تسأله عن السبيل للهرب من هناك.

- علمتك كيف تتواصلين مع الصّولجان، أليس كذلك؟

قواه عظيمة، اذا اتّحدتِ معه لن يستطيع هزيمتك أحد.

سألت في براءة:

- وكيف أفعّلها فارس؟

- مُرّيه من كيائك.

تنحّى ليفسح لها المجال، تطايرت خصلاتُ شعرها المنسدلة على خديها، تحرّك رداؤها.. قوّة ما أضاءت بعينيها، ارتفعت عن الأرض يحيطها هالةٌ نورانية، وجّهت قوى الصّولجان ناحية صخرةٍ فغلقتها الهالة، حاول فارس اختراقها بالسيف، لم يستطع، تركتها كاميليا ثمّ بدأت بالهبوط تدريجيًا.

صرخ في الجيش:

- تجهّزوا، ستوجّه إلى المملكة عند الفجر.

وقفتُ أسماء إلى جوار سمير بشرفة منزله وقلبها كشعلة نار، أمّا عنه فقد كان كالجليد، حاولت إصلاح الأمر وقد باءت محاولاتها بالفشل، انفرط عقدُ عبراتها أمامه ندمًا، للمرة الأولى تبرز دموعها.

- لم لا تردّ على الهاتف؟ لم تتهرّب منّي؟

لم يجب، حتى لم يلتفت، صرخت بصوت باكٍ:

- أجنبي.

- أنتِ من اخترت.

- بل أنتِ من فعلت بنا ذلك.

ابتسم ساخرًا، التفت إليها يتحدّث بازدراء:

- لا تبرّري خيانتك.

ارتفع صوت بكائها تلوم بروده:

- أنا تعبت، عقلي تعب.. قلبي.. مشاعري استنزفت لم أعد أستطيع

التحمل.

جذبت حقيبتها هرولت تخفي دموعها تاركة إياه خلفها، حاولت والدته إيقافها فلم تستطع، دخلت على سمير تسأله عمّا حدث بينهما، تنهّد في ضيق:

- لا شيء أمّي.

انتكس إسماعيل بسبب ألم ضميره منذ اليوم الذي زاره فيه ياسين، فلم يغادر غرفته إلا لعمله أو للصلاة، يحاسب نفسه، يعيد حساباته، يفكر في الذي عليه أن يفعله.

تأخذه أفكاره ذهاباً وإياباً، يشعر بالحزي.. وقعت عيناه على الورقة التي تحتوي أرقام ياسين.. التقطها، لم يشعر سوى بأنامله على الهاتف.. وصوت الأخير في أذنه يسأل عن المتصل...

صمتَ لوهلة، ثم بدأت الكلمات تخرج منه كحبّات عقد منفرطة.
- إسماعيل، الشاهد في قضية جمال حسان.. أين تكون الآن؟، أريد مقابلتك.. سأشهد.. سأشهد لصالح ابنة خالتك.

ابتسم فرحاً، أملاه العنوان وحّدته بانتظاره، سألته ياسمين عن المتصل فأخبرها:

- أخيراً فرجها الله، سيشهد إسماعيل لصالحنا.
تهلّلت أساريرها، اقترب عقاب من تسبّبوا بكلّ هذا الأذى لأختها، وسرعان ما انطفأت فرحتها.. تذكّرت كون أميرة لازالت طريجة الفراش.. فلم تخرج من غيوبتها بعد، انسحبت إلى غرفتها من بين سعادة الجميع.. تتأمّلها من خلف الزجاج، همست إليها وكأنها ستسمعها:

- اشتقت إلى بسمتك وحديثك، ألن تعودني إليّ؟
حرقت العبرة مآقيها، أسندت رأسها على الزجاج تبكيها بحرارة، استفاقت على تربيت ياسين، حدّثها في لين:
- كفأك بكاءً.

استدارت، توقّفت للحظات.. ثم انفجرت دموعها كالسيل من جديد.

- اشتقتُ إليها، اشتقت إليها كثيرًا.
- أعرف، ولكنني على معرفة أيضًا بأنها في القريب ستستيقظ.
- مسح عَبراتها المتفرقة بلطف، هدأت كطفلة بين كفيه..

باتت مقابلات جميلة بالنسبة لجمال تمثّل ثقلاً على قلبه، كلّما لمس نقاءها تذكر فعلته، خشي تركها له إن رأت ما يخفيه في انعكاس حزن عينيه، بات شروده ثالث كليهما في أيّ مقابلة، لاحظت ولم تعلّق حتى زاد الأمر عن حدّه، حاولت أن تفهم دون التدخّل بشكل مباشر فلا تضايقه.

- أعلمُ كَوْن مرض أيبك يؤلمك.

ابتسم إليها منكسراً، ليته فقط تخبره أنها لن تتركه لو علمت فعلته، تنهّد صامتاً، اقتربت بكفّها تربت على كفّه، بنبرة حانية تسأله:

- أخبرني ما الذي يثقل صدرك؟

- جميلة أنا متعب جداً، أشعر وكأنّ قلبي حجرٌ يمنعني التنفس ويعيق خروج الكلام.

- لهذه الدرجة!!؟ شاركني ما يؤلمك، سأستمع دون عتاب..

ضغط على كفّها وكأنه يخشى أن تفلت من بين يديه.

- ليتني أستطيع البوح لما تردّدت لحظةً في إخبارك.

- أنا سأنتظر، سأنتظر أن تأتي وتشاركني أثقالك.

صمت طويلاً، ثمّ حدّثها بنظرة خوف:

- لا تتركيني مهما حدث.

- دَعَا من مخاوفك هذه، اتفقنا؟

أوماً برأسه، ابتسم في انكسار ثم استأذن في المغادرة.

- أَلن نتناول العشاء معاً.

- سأعوّضها لك.

ترك كَفَّها، عيناه تقول الكثير، اعترتها الحيرة بينما يعتصره الألم.. ما سبب كل هذا يا جمال؟!!

دائماً ما تكمن المعضلة في أن تكون غير ذاتك، تغرق في آخر هرباً من كينونتك، تُكره نفسك القديمة التي تذكرك بأفعال توّد لو ثقبّ أسود ابتلعها، الأمور لم تكن على ما يرام يوماً، أنت توهم نفسك بذلك.

الأقنعة ثقيلة على النفوس التي لم تعتدّها، القناع قطعة من القلب الأسود، أمّا القلب الذي طالما احتفظ بذاته من الصّعب أن يتقبله.

الغموض فأسّ يطعنُ جدرانَ العلاقة، يصدع بالشّروخ بنواحيها، تخفي جميلة الرّيب.. فهي أيضاً تحبّه.

جلس أدهم بشقّته بعد انتهاء العزاء يبحث حوله عن روح أمّه، فما أن تركت المنزل حتى حلّ الشتاء، رحل منبع الدفء، يتأمل الجدران، باهتة رحلت عنها الألوان، الأسود احتل كل ركن، حتى أركان قلبه ابتلعتهما الظلمة ولم يبق سوى أطلال الماضي، يجلس نواحيها ويعتصر روحه الفقد والوحشة.

دخل غرفته وأقفل الباب ثم جلس على السّرير ينظر إلى المقبض ينتظر أن يتحرّك لتدخل أمّه للاطمئنان عليه كما كانت تفعل، لن يتحرّك.. لن تدخل،

فقد رحلت للأبد، عصفت به اللحظات الراحلة، وضع وجهه بين كفيه يبكي كما لم يفعل من قبل.

فقد كل شيء، لم يعد هناك ما يخشاه، ترددت كلمات أمه الأخيرة على رأسه، عليه أن يتحرك علّه يكفر عن بعض خطاياها، لن ينتظر منها كلفه الأمر من ثمن.



وقف إسماعيل أمامهم منكس الرأس، اعتلى الحزي أكتافه فصار ثقيلاً يمنعه رفع رأسه، فكيف له بعد فعلته أن يتعلّق بعيني والدي أميرة، جلسا صامتين ينظران إليه دون كلام، حاول حينها ياسين الحديث فقاطعه إسماعيل يطلب الغفران.

ربّ ياسين على كتفه يحدّثه:

- الدواخل تكمنُ بالنهايات، حتى وإن كان الأمر بدايته خطأ، في النهاية أنت هنا لتصلحه، لا عليك.

امتلات مقلتا إسماعيل بالدموع، رقّ قلب هالة فأخبرته أنها سامحاه، بدأ بالحديث من البداية منذ أن استدعاه حسان وطلب إبداء شهادته.

لم يدم الحديث طويلاً فقد قطعه دخول أحدهم، ما أن رآته سلمى حتى وقفت في ذهولٍ صارخة باسمه "أدهم"!!

أوماً برأسه، كشف انكسار ملامحه عن حزنٍ دفين فسألته عن والدته، فأجاب بصوتٍ يقاوم الدموع:

- ماتت.

هربت الكلمات من رأسها، كيف لها أن تهوّن عليه ما هو فيه بالكلام، نسيت حتى أن تسأله عن سبب حضوره، أمام صمت الجميع أشهر محمود سؤالاً:

- من هذا؟

سأل في حدة، نبرات صوته جدلتها الغيرة، عندما أوضحت علاقتها هي وأميرة به سأله إن كان يحتاج لمساعدة.

- جئت لأشهد في القضية.

عصفت عبارته بالجلوس، وكأنّ ما سمعوه منه محض وهم، بعد صمت ليس بقصير، ما أن وعث سلمى ما تحدّث به حتى حدّثته معاتبه:

- أكنت تعرف الفاعل منذ البداية يا أدهم؟!!

لم يجب، فما قاله كفيل.. أكملت حينها:

- وما السبب الذي جعلك تأتي الآن؟

- أمي.

قالها وكأنها سكين يمزّق لحم قلبه، لمعت عيناه بعبرة هاربة من ضيق صدره، طلب منه ياسين الجلوس، اتّفقا ثلاثتهم على الخطوات التالية..

انتصب ياسين يجري مكالمته مع الشرطي فأجاب:

- هل توصّلت لجديد؟! مرّ وقت طويل.

- ظهر شهود في القضية، وإسماعيل طلب تغيير أقواله.

شعر الضابط وكأنه التقط خيط أمل، التيقّن من الحقيقة والعجز عن الدّفاع عنها من أسوأ ما قد يشعر به المرء، قد يجعل منك رجلاً ساخطاً على العالم.

- عليك الآن كتابة طلب وتقديمه للمحامي العام لإعادة فتح القضية. سأنتظرك بالقسم لاتخاذ الإجراءات.

أغلق الهاتف بعد أن أنهى المكالمه متوجّهاً إلى القسم، فالنهاية بدأت للتو.

تمكّن الضّعف والمرض من جسد حسان، برزت أعراض الكيماوي على جلده، هزل جسده.. اشتعلت عظامه بالألم كما تسري النار في الهشيم، لآخر رمق لم يبرز ضعفه.. التفت إلى سمير الجالس على مقربة منه يسأله عن أدهم، عجب كونه لم يتصل حتى اللحظة لأخذ المال.

- لم يتصل بعد.

- لماذا؟!

- سمعت كون أمه مريضة، لا تحمل هما لن يترك المال.

ساد الصمت، عاد حسان لسؤاله عن حاله، وعن خطيبته أساء، امتلاً حينها وجهه بالدهشة، لطالما امتثل حسان الجمود، لم يضيع وقته في السؤال عن أحد أبنائه، لم يشغل باله حتى وكأنه ليس أباً، فهم علامات التعجب على وجه ابنه فاحترم صمته، لم يشهدوا منه سوى القسوة والتجاهل، ظنّها الطريقة الأمثل للحفاظ عليهم، لكنّه أدرك خطأه عند دنو النهاية.

استفاق على عيني والده تحمّلان الحزن، يشعر بالخجل من أيام طويلة ضيعها، دمر عائلته بغرسته وغروره، قطع حينها الصمت مربّتا على روحه النازفة:

- كلّ شيء بخير، لا تقلق.. عليّ الذهاب الآن.

التفت مغادرًا، وناظرًا حَسَنًا يتتبعانه، يشعر بدنوّ الأجل، أراد لو يصلح القليلَ مما أفسده قبل مغادرته الدُّنيا، استسلم أخيرًا وعلم أنّ الله فوق كلّ شيء، وأقوى من أيّ شيء، نسيه فأمهله ولم يهمله، حتى أمسكه لم يفله، سامحه الله.

فتحت القضية من جديد، أخذت أقوال إسماعيل وأدهم، صدر أمرٌ بضبط وإحضار جمال حَسَنان، وتحضّرت قوّة لتنفيذه. طرقٌ شديد على باب منزل حَسَنان، فتحت الخادمة لتجد فردّين من الشرطة يطلبون "جمال"، انتبهت فريال التي كانت تتناول قهوتها في الشّرفة، تسأل من الداخل عن الطّارق.

- سيدتي، إنهم رجال الشرطة، يريدون السيد جمال.

انتفضت في دعر، ارتفع صوتها محذّرًا تجرّأهم على شقة منزل حَسَنان الدمنهوري، وكونها ليست المرّة الأولى، ردّ أحدهما حينها:

- سيدتي، هذه أوامرٌ ونحن علينا تنفيذها وفقط.

استسلمت، بعينين منكسرتين.

- لا أريد أن يشعر أحد، سأناديه وسنذهب معكم.

يفصل بينه وبينهم بالخارج جدار، سمع كلّ ما دار.. لم يهاب السّجن، ولا حتى ما ينتظره، أول من قفز إلى ذهنه جميلة.. أحبّها بشدّة، للمرّة الأولى يشعر كَوْن للحياة قيمة، أو شك الأمر على الاقتضاح، يخشى خسارتها للأبد.

تسرّب بردُ الفقد إلى وجدانه، ارتفعت دقات قلبه، كالطبل في ساحة الإعدام.. تساق روحه للقتل، خشى لحظة الحقيقة، فأتت إليه هرولة على عجل.

خرج من غرفته مستسلماً صامتاً لا يتحدث بأي كلمة، تجمّدت الدموع في عينيه وعصفت رياح باردة بين ضلوعه.

استقلّت فريال سيارتها، وجمال بجوارها، تلحقهم سيارة الشرطة، اتّصلت بسمير تصرخ بالهاتف:

- سمير، الشرطة قبضت على أخيك، أنا معه الآن.

اضطربَ يفكر فيما عليه فعله، حاول التماسك فلا يريدُ أن يظهر ذلك أمام والده، شعر حسان بأمر مُريب، سأله فتهرّب.. ومع محاولات أجابه.. انقبض قلب حسان، حدّث نفسه "ها هو المعبّد يُهدم فوق صاحبه"، هرولا إلى القسم بصحبة رأفت منصور المحامي.

حملت الثّنائين أفراد الجيش وحلّقت بهم فوق أرض الفردوس، للمرّة الأولى تنفصل كاميليا عن فارس، استقلّت تّينها بمفردها دونه، لطالما كان خلفها ممسكاً بها فهي تخشى السّقوط، عليها الآن أن تقود كلّ شيء، هو بالقرب يدعمها.. يشعر بالخوف الذي يحتلّ أركانها، يمدّها بالدعم النفسي دون التدخل، فالقرارُ قرارها الآن.

توقّف الجميع بعد ساعاتٍ من الطيران فوق أرض الفردوس أمام مدخل أرض الوحوش، جثمت الثّنائين، التفتت كاميليا خلفها تحدّث "فارس"

بالصمت، ترك تيّنه واقرب منها محاولاً مساعدتها في النزول، شعر بانتفاض
كفّها الصغير بين يديه.

- اهدهني، أنا هنا.

تنهّدت تلتقط أنفاسها، شهيقاً تارة وزفيراً أخرى، تهرب من التوتر الذي
سكن خلاياها، تسأله عما عليها فعلة.

- تتذكّرين القوّة التي غمرت بها الصخرة؟

- نعم.

- عليك غمر الجيش بها بالاتّحاد مع الصولجان، سنجتاز أرض الوحوش
دون عبورها مباشرة بلحظات.. عليك التركيز.

تأمّلت الصولجان بين كفّيهما، ثم رفعت ناظريها إلى الصفوف المترابطة،
التقطت نفساً عميق، رفعت الصولجان ثم بدأت تلوح به فانفجر نوراً، انتشر
من فوق الجيش ثم أحاطه كالهالة، ازداد توهّجاً حتى بدأ في ابتلاعهم شيئاً
فشيئاً، ارتفعت الأميرة عن الأرض، تلاشوا وكأنهم خيال، لحظات مرّت
كالدهر.

خرجت من شقّ في الزمن، تنهاوى رويداً فوق المنطقة الجبلية بعد أرض
الوحوش، اختفت الهالة لتكشف عن الجيش، اجتازوا الأرض الملعونة
بنجاح.

استنزف الانتقال كامل قوتها وتركيزها، فقدت وعيها ما أن لمست أقدامها
الأرض، فتحت عينيها لتجده بالقرب محفّزاً، هامساً "أحسنّت".

ابتسمت في وهن.

- أمتّعبة؟

- قليلاً.

ابتسم، ثم أكمل بصوت أجش:

- ننتظر قليلاً؟ ستحتاجين لكامل قوتك بالمعركة.

- لا، دعنا نكمل.

جذب كفّها مساعداً إيّاها على النهوض، ساعدها على تسلّق تيّنها، أكمل الجيش مسيرته وما أن اقتربوا من الغابة حتى لاحظوا السّواد الذي غطى المملكة، قاتم مخيف.. كاميليا ما أن رآته حتى توقّفت فأوقفت الجيش من خلفها.

تقدّم ثلاثتهم؛ روبرت وهنري وفارس للسير بجانبها، لاحظوا الخوف الذي ملأها.. تأملتهم تثبت قلبها، نظرت أمامها ثم أكملت المسير دخولاً إلى الغابة.

شمّت الأشباح رائحتهم فبدأت بالظهور من حول الجيش تباعاً، أشار فارس إلى كاميليا بإشعال الصّولجان، تلوّن بلون عينيها مطلقاً شعاعاً أحرق الأشباح من حولهم.

همس أحد الأشباح إلى مقديو بصوت كفحيح الأفاعي "قادمون، إنهم قادمون"، تحبّط بالجدران مطلقاً صرخةً حتى ابتلعتة إحداها، فرع مقديو ثم صاح بالقصر:

- جهّزوا الجيش، فليخرج الجميع.

خرج من القصر، لاح بصولجانه، فبدأ من بين السّواد تيّنٌ أسود مجنّح، وطأه وتقدّم الجيش الذي بدأ في الاصطفاف.

مرّت كاميليا بأحد التلال، لمعت عيناها.. ذاك التلّ الذي التقت به فارس
للمرّة الأولى، تذكّرت كم كانت خائفةً منه حينها، والآن بات كلّ أمانها..
وأعلى ما تملك.

بدا الكوخ الذي استضافها فيه بحالةٍ يرثى لها، لكنّه في النهاية يبقى أجمل
مكانٍ رأيته عيناها.. يجمّل أطلاله الذكريات.. ففيه كان أوّل لقاء.

تشابكت عينا فارس بعينيها الغارقتين بعالم آخر، فرغم كونها على مشارف
معركةٍ خطفت الذكريات لبّها، كما خطفته هو الآخر ما أن التقطته مقتلته.

سرعان ما عاد إلى أرض الواقع، يأكل القلق عقله، يخشى عليها من خطرٍ
قريب، عليه حمايتها ولو كلفه ذلك حياته.

عبر الجيش الغابة في ذاك الظلام القاتم ليجد جيشَ مقدنيو في الانتظار،
مسوخٌ لا يشبهون البشر، لا يبدو من أعينهم إلّا السواد، تتدلّى أنيابهم
للأرض، يسقط سائلٌ لزج من نتوءاتٍ بجلودهم المتهرّئة، وكأنهم مسلوبو
الألباب لا يشعرون.

صرخ روبرت في الجنود: "التحمووووا".

من بين المعركة لمح مقدنيو كاميليا، أحدث شقاً بالصّولجان مرّ من خلاله
في لمح البصر ليقف أمامها، رفع سيفه في محاولة لقتلها، لم يسعفها انتباهها..
كاد يمسّ السيف عنقها حتى صدّ فارس هجمته بسيفه، زأر مقدنيو في
غضب:

- أتتحدّى سيّد الشر يا أحق.

صاح فارس فيه متأهّباً بسيفه:

- لن أسمح لك أن تمسّها بمكروه.

استفزّه فرفع صولجانه صوبه، تحرّكت كاميليا بقوة منبعثةً من صولجانها تصدّد هجمته، التحمت قوتاهما.. كاميليا تقاومه بكلّ قوّة تملكها حتى تقهقر بتّينه يلتقط أنفاسه، تبعها فارس بعينه بينما نصفُ ذهنه أنهك بالقتال.

وكأنّ كاميليا باتت شخصاً آخر، تبدّلت ملامحها لأخرى غاضبة، اتّحدت اتحاداً كلياً مع صولجانها، اشتعلت عينها تلمع بالأحمر، انفجرت جوهرة الصولجان تشع قوّة، لوّحت بالصولجان ناحية تينها ليتحوّل إلى كائن أسيري دون أجنحة يلتحف السماء، يبرز شعاع عينيه وتنفجر النار من فتحة فمه ينتظر الفتك بمقدنيو، لوّح مقدنيو هو الآخر بالصولجان خاصّته، فتحوّل تّينه إلى طيف أسود.. انتقلت المعركة من الأرض للسماء.



هرول هنري إلى القصر يبحث عن "آن" كالمجنون، حدّثته كوزيت عن مكانها، أسرع فتبعها.. دخل كلاهما إلى الزنزانة أسفل القصر فانتفض الحارس.. أشهر سيفه ملتحماً معه، ارتفع صوت صليل السيوف يتقاذف هنري الحارس تارةً ويتقاذفه الأخير أخرى، حتى اختلّ توازن الحارس فذبحه هنري.

لم يخرج دون خسائر، فقد جرحه قبل وفاته جرحاً غائراً بإحدى ساقيه، ساعدته كوزيت على النهوض.. نزع المفتاح من السّجان وفتح الزنزانة، رفعت "آن" ناظريها في ضعف تسأل عن الوالج، اختنق هنري بالبكاء.. كيف صمدت أمام كلّ هذا العذاب، حالتها يرثى لها.. حرقت الدّمة مآقيه، سمعت أنينه.

- هنري!! أتيت أخيراً.

لم تشفع ابتسامتها لنفسه، يلوم روحه على ما نُكِّل بها، لم يكن هنا ليحميها، رفعت أناملها الضعيفة إلى وجنتيه تمسح عنهما الدموع.

- لا عليك، انتهى الألم، وأنت الآن هنا.

نزع القيود عن معصميهما، التقطها بين ذراعيه آسفًا على كل ما مرت به من ألم.

- هنري..

أجاب دون أن يفلتها بصوتٍ مختنق:

- نعم "آن".

- أنا أحبك.

لأجل هذه الكلمة عبر أراضٍ وحارب وحوشًا، فقط لأجلها.. هدأ قلبه بين ضلوعه، انطفأت النار التي أضرمها رفض مشاعره، حظى أخيرًا بقلبه.

صمت طويلاً، وكأنه يتنفس عقب الكلمة.. يخشى أن تفلت حلاوتها أذناه.. اعتصرها أكثر، أخفى وجهه فيها كطفلٍ هارب من نظرات المارة.

- وأنا يا "آن"، وأنا...

ابتسمت، هي الآن تشعر بالأمان.. لم تحسب أن يستطيع من في قسوة هنري أن يعرف الحب، تهدد ذاك العملاق الذي انصهر باكياً، تحدّثه أنها لن ترحل عنه بعد اليوم دون صوتٍ يُسمع، تُهَامِس قلبه الهشّ، كلاهما تعب كثيراً ليحظى بالآخر.. حتى نالا ما طمحا إليه.

مَنْ أَحَبَّ.. أَحَبَّ بِصَدَق، حَطَمَ كُلَّ الْعُقَبَات لِيَحْظِيَ بِمَحْبُوبِهِ وَإِلَّا لَمْ يَسْتَحِقَّ، الْاِسْتِسْلَامُ ضَعْفٌ.. الْمُبَرَّرَاتُ وَاهِيَةٌ مَعَهَا عَظُمَتْ.

لَا زَالَ اشْتَبَاكَ الْجَيْشُ بِالْأَرْضِ، وَكَامِيلِيَا وَمَقْدَنِيُو بِالسَّمَاءِ، التَّحَامِ الصُّوُلُجَانِينَ يَكْسِرُ ظِلْمَةَ السَّمَاءِ، تَرَكْتَ تَنْيِنَهَا يَنْهَالُ عَلَى تَنْيِنِ مَقْدَنِيُو، ارْتَفَعَتْ أَكْثَرُ، فَتَرَكَ الْآخِرَ تَنْيِنَهُ يَكْمُلُ الْاِلْتِحَامَ، وَقَفَ التَّنِينَانِ عَلَى حَافَةِ سَطْحِ الْقَصْرِ يَتَقَاذِفَانِ اللَّهَبَ يَتَقَاتِلَانِ، دَفَعَتْ كَامِيلِيَا مَقْدَنِيُو بِقُوَّةِ الصُّوُلُجَانِ إِذَا بِهِ يَقَاوِمُ دَفْعَهَا بِصُوُلُجَانِهِ حَتَّى خَارَتْ قَوَاهَا، وَكَادَ يَقْتُلُهَا، اسْتَجْمَعَتْ مَا تَبَقَّى مِنْ قُوَى فَانْفَجَرَتْ قُوَّةُ صُوُلُجَانِهَا تَطْرَحُهُ أَرْضًا.

مَا أَنْ مَلَحَ فَارَسُ سَقُوطُهُ حَتَّى انْهَالَ عَلَيْهِ يَغْرُسُ سَيْفَهُ فِي قَلْبِهِ، انْطَلَقَتْ صَرْخَةٌ عَالِيَةٌ، شَخَصَ بَصْرُهُ، يَتَحَرَّكُ فِي ضَعْفٍ.. بَدَأَ اللَّوْنُ الْأَسْوَدُ فِي الْاِنْسِحَابِ، ارْتَفَعَ الْغَطَاءُ عَنْ مَلْتَحِمَتِهِ، تَمَرَّزَ بِهِ الْأَشْبَاحُ وَكَأَنَّهُ سَرَابٌ.. يَتَأَلَّمُ.. لَمْ يَتَوَقَّفْ صِيَاحُهُ حَتَّى لَفَظَ النَّفْسَ الْآخِرَ.

بَدَأَتْ الْأَرْوَاحُ الَّتِي احْتَلَّتْ أَجْسَادَ الْجُنُودِ فِي الْخُرُوجِ، هَذَا الْقِتَالِ وَانْقَشَعَتِ الظُّلْمَةُ عَنِ السَّمَاءِ.. تَتَهَادَى كَامِيلِيَا وَكَأَنهَا تَسِيرُ عَلَى الرِّيحِ حَتَّى لَمَسَتْ قَدَمَاهَا الْأَرْضَ، اقْتَرَبَتْ مِنْ فَارَسٍ بَعِينِينَ تَتَلَهَّفَانِ لِلْأَمَانِ.. وَكَأَنهَا اسْتَرَدَّتْ طُفُولَةَ قَلْبِهَا بَعْدَ مَعْرَكَةٍ دَامِيَةٍ.. أَزَاحَ خَصْلَةً شَعْرٍ غَطَتْ أَحَدَ مَقْلَتَيْهَا، ثُمَّ حَدَّثَهَا هَامِسًا:

— أَحْسَنْتِ.

اتسع بؤبؤ عينيه لحظة، ثم انطلق مسرعاً صوب كاميليا، برهات خاطفة من الزمن تجمّد فيها عقلها، استفاقت على صرخة روبرت يهجم على إيزابيل، حاولت قتل الأميرة بسهم فأنقذها الفارس.

صمتت الأصوات، توقّف الدم في العروق، بمحجرين قد اتسعا فزعاً تتأمل الواقف بين يديها، حاول طمأنتها بابتسامة تقاوم الألم، نزع السهم المنغرس في كتفه من الخلف، صرخ ألماً..

فتح ذراعيه يناديها، ارتمت بهما باكية، غرقت فيه تبحث عن الأمان، ضمّها بها تبقى له من قوة، همس إليها:

- لن يكون هناك ما يخيفك بعد الآن.

ارتفع صوت بكائها، ذراعاه تخورا رويداً، تفلتتاها فيقاوم لآخر لحظات، تهاوى في بطاء.. حاولت رفعه وكأنها ترفض التصديق.. حرقت الدّموع مآقيها، السهم مسموم، وكأن خوف العالم احتل قلبها، تناديه.. تناديه فتزوغ عيناه.. تسرّبت زرقة الموت إلى شفّتيه، برزت عروق رقبتة، تمسك بالابتسام حتى آخر رمق، تصرخ والعالم صامت..

- إيّاك أن تفعلها وتتركني.

أشار لها فدنّت منه.. بصوت ضعيف متقطع:

- أحبتك، وسأنتظر.. لنلتقي..

صمت الفارس الذي طالما تحدّث بحبّها، صمت فتحدّث ذاكرتها باللحظات معه، وكأنه كابوس، تصرخ ليسمعها العالم ولا تسمع سوى صوت الألم، تناديه وللمرة الأولى منذ أن التفتة لا يحيب، تذوب عبراتها الحارقة على وجّته.. لن يستيقظ يا كاميليا، لن يستيقظ.

بدأت أميرة بفتح عينيها، همس مرّدة في وهن "فارس"، هرولت واحدةً من الممرضات تنادي الطبيب "أحمد" ..

لم تتوقّف عن الهمس باسمه، دفعه كثرة همسها به إلى التساؤل "مَن فارس هذا؟"، فرغم سعادته بعودتها إلّا أنّ القلق اعتراه، علّها تحبّ شاباً ما يدعى فارس، انتهى من فحصها ثم خرج مبشراً.

تهلّلت أساريرهم، ضاقت الحلقات حتى استحكمت، وعندما أتى الفرج .. أتى كانفراط العقد.

— ستبقى بالعناية بضعة أيام حتى تستعيد كاملَ وعيها، وبعدها سيتمّ نقلها إلى أحد غرف المستشفى إلى أن تستردّ عافيتها، ويمكنها بعد ذلك العودة للمنزل.

استأذنتهم عائداً إلى غرفته الخاصّة بالمستشفى، قلبه من فرط السّعادة يقفز بين ضلوعه، عادت للحياة مَن أحبّها دون حديث، لكن عقله لم يتوقّف عن الحديث عن ماهية "فارس" الذي كانت تردّد اسمه، عادة يردّد المريض أسماء أحبّابه أثناء استعادة وعيه.

بدأت الشكوك بمهاجمته، حاول إبعاد الوساس عن عقله، هو إلى الآن لا يعرف فعليّاً مَن يكون، عليه ألاّ يسبق الأحداث، يفكّر بلمعة عينيها التي رآها للمرّة الأولى، لم تفقدها رغم المرض والإعياء.

قطع اتّصال هاتفي شروده، أحد المستشفيات التي يعمل بها تطلّبه للضرورة، أغلق هاتفه متنهّداً، يجب أن ينوب طبيبٌ آخر حالتها، قد لا يراها مرّة أخرى ..

اتّجه إلى غرفتها يلقي نظرةً طويلة قبل مغادرته، عادت للنوم من الإعياء فما زالت تحتاج للراحة، جلس على مقعد بالقرب من سريرها الحديدي، اقترب بوجهه منها وكأنّه يحاول الحديث، همس يحدّثها وكأنها مستيقظة تسمعه:

- قد تكون المرّة الأخيرة لرؤيتك هنا، أعدك لن يكون آخر لقاء، سعدت بتمريضك ومرافقتك رغم كوني لم أر عينيك إلا مؤخراً..

ابتسم من نفسه ثم أكمل..

- رائعتان، سعدت برؤيتهما يفتحان أبوابهما لمسكينٍ مثلي.

فتحت عينيهما بتهادٍ، لمحت صورته المشوّشة فابتسمت، ثم عادت إلى النوم، ابتسم لابتسامتها وقد حدث نفسه "وكأنّ ورود الكون تفتّحت في قلبي".

ما أن خرج من الغرفة حتى نادته ياسمين، التفت مبتسماً..

- حفلة خطبتي ستقام بعد خروج أميرة من هنا.

- مبارك.

- أريدك أن تشرفني بالحضور.

- لكن.. المشكلة أنّي لدي عمل لن أنهيهِ مؤخراً فقد لا أراكم هنا مرّة أخرى.

احتلّ ملامحها الحزن، فكّر لوهلة ثم استطرد قائلاً:

- سأحضر.

- هل أستطيع الحصول على رقم هاتفك؟

أوماً برأسه مملياً إيّاها رقم الهاتف، ثم هرول مغادراً.

علمتُ جميلة الأمرَ برمتِهِ من والدها أثناء حديثه مع والدتها، قلبها بات كالشوك بين ضلوعها، تصدّع بالخذلان..

كسرها مرّتين، الأولى أن أخفى عنها فعلته برداء الخديعة، والثانية صدمتها بأول من دقّ له قلبها؛ فالفراق وإن كان عمّن لا يستحق مؤلم كالاحتضار، عليها فسح خطبتها.

— سأتصل بهم الآن وأبلغهم بأنّ خطبة ابنتنا من ابنهم ألغيناها.

شاردة جميلة وكأنها بعالم آخر، تلتقط الكلمات دون إجابة، أشارت والدتها في رآفة إليه بقلب ابنتها ألا يفعل، من بين الصمت المضجع الذي أصاب الجلوس أجابت ابنتها في جمودٍ يوراري فيضاً من الدموع:
— لن أستمّر في هذا الارتباط.

نهضت من مكانها مرتحلة صوبَ غرفتها، أخفت وجهها في وسادة تكتم شهقات بكائها، تمرّ الذكريات معه كشريط يلتفّ حول رأسها، تحرق العبرات قلبها قبل مآقيها، لن تنسى بسهولة أبداً، ولن يعود قلبها كما كان. تلوم نفسها أن سلّمت قلبها لمن يحطّمه، لطالما خشيت اقتراب أحدهم.. ظنّته سيهديها السعادة فأهداها الوجع والخذلان.

— ستتهار شركات حسان، عليّ فضّ الشراكة بأسرع وقت، الأمر سينتشر في خلال وقت قصير وسيخسر الكثير، الحمد لله كون جميلة طلبت هي الأخرى فضّ الخطبة.

قالها فتنهّدت ناريان، تعلم أنّ قلب ابنتها تعلق بهذا الشاب، تشفق على قلبها الذي توقن اعتصاره الآن من الألم، لن يدرك والدها ذلك، ولن يفهمه.

غرقَ جمال في الصَّمت أُمَام وكيَل النِّيابة، فالألم أقوى من أيِّ قدرةٍ لديه،
ففي كلِّ مرّة يوجّه إليه سؤالاً يتأمّله ولا يتحدّث بكلمة، جميلة سترحل عنه..
الشيء الوحيد الذي أرادَه من الدُّنيا سيفقده.

- يا سيد جمال، صمتك لن يفيدك، عليك الإجابة حتى أستطيع مساعدتك.

جمال جامد، وكأنّه فقد لسانه، متأملاً وكيَل النِّيابة دون حديث، تنهّد
مستسلماً ثمّ استطرد قائلاً:

- ألنّ تجيب؟ سأضطرّ أسفاً لحجزك أربعة أيام على ذمّة التحقيق.

نادى على العسكري بالخارج لحجزه، خرج مكبلاً من غرفة التحقيق.
أثناء خروجه سمع جدالاً والده مع سالم كمال بشأن الشرّاعة والخطبة على
الهاتف، فأدرك أنّ أمر جميلة انتهى، أغلق حسن هاتفه يسحب ربطة عنقه في
اختناق، التفت ليجد ابنه، هرولوا جميعاً إليه.

ضاق العالم من حوله، لم يعدّ يشعر سوى بنزيف قلبه، لاحظ سمير
فحدّثه:

- كن قوياً يا جمال، ستمرّ تلك المحنة وسينتهي كلّ شيء، أعدك.

فليذهب العالم إلى الجحيم، فقد رحل كلّ شيء، تأمّله جمال غير مبالي،
ابتسم ساخراً ثمّ تركه مكبلاً طريقه إلى الزنزانة.

بينما كان يتناول حمدي مكرم فطوره مع ابنته، تصفّح أحد الجرائد
ليجد الخبر يتصدّر الصحيفة كعنوان رئيسي، بدا على وجهه الحزن الممتزج
بالدهشة، لاحظت أسماء فحاولت سؤاله.

- قُبُضَ على جمال.

- جمال مَنْ؟

سألت وكأنَّ الشَّخص المقصود بعيدٌ عن تفكيرها فأكمل والدها:

- جمال الدمنهوري، أخو خطيبك، متَّهمٌ بدَّهس فتاة.

للأسف قد أضطرَّ لفضِّ الشَّرَاكة، ستنخفض أسهمه في خلال أيام، لن يستطيع تغطية المشروع.

حاولت أسماء الاتصال بسمير لتفهم منه الأمر فلم يجبها، من بين زخّات اتصالاتها التي لا مجيب لها كان اتّصالٌ ملدحت فأجابت.

- أريد مقابلتك بالنادي، هناك أمر مهمٌّ أريد الحديث معك فيه.

رفضت مغلقة الهاتف، لم يكفَّ عن الاتصال فاستسلمت موافقةً على مقابلته، استقلت سيارتها متوجّهة إلى النّادي، تتأمّل ساعتها في انتظاره.

حضر.. جلس بالقرب، أزاح نظارته الشمسيّة كاشفًا عن عينيه، حدّثه في لا مبالاة:

- ما الأمر شديد الأهميّة الذي تريدني فيه؟

- أريد خطبتك.

- أجننت!!؟

- علمت ما وقع لحسان الدمنهوري، لن يشرف أباك أن تكون ابنته

زوجةً لشخص أخوه قاتل، أسهمُ حسان يومٌ وآخر ولن يكون لها وجود، وأنا أحبُّك.. لا أعتقد كُون سَمِير يناسبك بعد الآن.

بدأ باللعب على أوتار عقلها، يحدّثها كَوْنُ علاقتها بسمير مؤلمة، كيف سيغزل لها من الشّمس خيوطاً إن وافقت، كادت توصله لمراده فأوقفته عند حدّه مغادرةً مقعدها، تفكّر في كلماته.. يتردّد صداها.

عادت للاتصال بسمير فلم يجب.. ملّ من محاولاتها فأجاب في عصبية:

- ماذا تريدین؟

- أن أطمئنّ عليك.

- سأكون بخير إن تركتيني وشأني.

أغلق الهاتف فأنفجرت باكية، لم يستمرّ بكاؤها طويلاً، قرّرت إنهاء كلّ شيء، عادت للاتّصال بمدحت تخبره بموافقتها على عرضه.

تهلّلت أساريه فقد نجحت خطّته، ينسج لنفسه طريقاً يظنّه المال، لا يعلم أنّ أسماء تحمل السمّ لحياته، من يعلم.. قد يقع بحبّها، وتصبح الطريق لموته بدلاً من حياته.

استردّت أميرة كامل وعيها، في البداية لم تقدر على استيعاب ما يدور، انتقلها من عالم كامل كانت تعيش فيه، وكأنها بين وهمين.. تتذكّر الجميع هنا وهناك.. أيقنت في النهاية كونها أميرة وليست كاميليا، عبرت من أرض النور للواقع وبداخلها فارس، مشاعرها تجاهه حقيقة لم تزل يبقظتها، تضرب على قلبها وكأنها تطلب منه الهدوء حينما يشتدّ اشتياقها له.

في واحدة من لحظات شرودها دخلت عليها ياسمين، طبعت على جبينها قبلة، ثم سألتها في ابتسام يخالطه بعض المزاح:

— ما أخبار أميرتنا اليوم؟!

أومأت برأسها تشير لها بالرّاحة، فأكملت حينها تبسرها:

— استرديّ كاملَ صحتك، هناك مفاجأة لك.

انتبهت وكأنها تنتظرُ معرفتها، بدا وكأنّ والدتيهما استمعت للحديث كاملاً، فأحرقت الفرصة على ياسمين قائلة:

— خطبة ياسين وياسمين لن تكون إلّا بوجودك.

— أميبي كنت أريدُ أنا إخبارها، ساحك الله.

دخل الطبيب لمتابعة حالة أميرة، بينما انتباهم غارق في الحديث والضّحك، وبعد أن انتهيا مالَت ياسمين على أختها تمازحها:

— ليتك استعدت وعيك قبل يومين أو ثلاث.

— لم؟!

— كنتُ أدركت ذاك الطبيب الذي أشرف على حالتك بينما كنت في

غيبوبتك، ما هذه الوسامة، ما هذه الرّقة، ما هذا ال....

انفجرت ضاحكة، ثم رفعت صوتها قائلة:

— يا إخوان، لينادي أحدهم ياسين من الخارج.

— لا.. لا، ماذا ستفعلين؟

امتقع لونُ وجهها فازدادت قهقهاتُ أميرة حتى كادت أنفاسها تنقطع، ورغم الجوّ الباعث على الراحة والضحكات، لم يكن لأحدهم أن يتصوّر الحرب الدامية التي تقيمها مشاعرُها بالداخل، فارس الجرح المؤلم الذي بدا وكأنّه لن يندمل، فرغم كونه حلماً إلا أنها عاشته بكاملِ جوارحها.. فصدّقه وأحبّه حتى رفضت الاعتقاد بكونه سرّاً.

حدّثتها ياسمين بتفاصيل ما حدث منذ سقوطها وحتى عودتها، تستمع وكأنها تشاهد فيلماً سينمائياً.. ما حدث بالفعل يشبه الأفلام، وما أن انتهت من الحديث حتى سألتها في انتباهٍ عن سلمى، وكأنّها تفكّر في شيء ما.

ازدهمت المحكمة بالصحفيين من كلّ صوبٍ وحذب، فضيحةٌ لرجل أعمال تسترّ على ابنه القاتل، اعتراف جمالٍ أمام وكيل النيابة كان بمثابة التهلكة لفقدانه الأمل، وقف خلف الحديد يتأمل الجلوس بقاعة المحكمة، يأكل أسرته القلق من حُكم القاضي، أمّا عنه فغير مبالٍ، ماذا بعد؟

دخل القاضي وخلفه اثنان من المستشارين بعد النّظر في القضية، وقبل نطقه بالحكم صمت الجميع في اندهاش.

دخلت أميرة من باب القاعة مستندةً على سلمى، تجمّد سمير.. لم تلتفت إلى أيّ من الجلوس.. رفعت وجهها إلى القاضي تحدّثه:

- أنا المدعوّة أميرة أمجد، أنا صاحبة تلك القضية، أريد التنازل عنها.

صمّت القاضي لوهلة.. ثم طلب منها التفكير مليًا، وعندما أصرّت رفع الجلسة بإغلاق القضية، خرجتا من الجلسة محاولان الفرار من مطاردات الصحفيين، عادت إلى المشفى.. علم أهلها بما فعلته فوقفت ياسمين مأثبة إيّاها:

- لم فعلت ذلك؟ لم يرحمك في ضعفك لتتنازلي أنتِ عن حقّك.

ابتسمت حينها مجيبة:

- يكفي كلّ منهم ما عاناه.

- ماذا تقصدين؟

- أخبرتني سلمى بكلّ شيء.. جمال تركته خطيبته، كانت بالنسبة له الدّنيا، رحلت عنه وتركته أجوف كالمنسخ، أنا أعلم ما يشعرُ به جيدًا، يكفيه ألم قلبه.. أتمنّى لو ساحتته وعادت إليه.

سمير خائنه أساء وخُطبت لآخر.. ذاق من نفس الكأس.. والدّهما أصيب بمرض خبيث، انهارت إمبراتوريته، وذُلّ بعد غنى ونفوذ.. علينا أن نرحم، كلّ منهم استحقّ العقاب والله قد فعل.. أنا بخير الآن، ولا يهتمّونني في شيء لأنّني بعذابهم.

عانقتها ياسمين.. فبعد الألم وما مرّت به أختها، لا زالت تحتفظ بنقاء قلبها.

سمح الطبيب بعودة أميرة للمنزل، فللمرة الأولى منذ شهور ترى بيتها.. دخلت غرفتها ثم بدلت ملابسها واستلقت على سريرها.. شردت في كل ما دار، تفكر في لحظاتها مع فارس.. على الرغم من كونه حلمًا طويلًا إلا أنها تصدقه قلبًا وقالبًا.. يأبى عقلها وكيانها إلا الإيمان به.

امتلات عينها بالدموع، انقلبت على جنبها.. سقطت عبرة حارة، همست:

- اشتقت لك فارس.

في صباح اليوم التالي، تركت منزلها في طريقها إلى الجامعة.. استقبلتها سلمى، وما أن لمحها زملاؤها حتى التفوا حولها يهتفون بسلامتها، ومن بين المهنيين لاح طيف سمير، في البداية أصابها الاندهاش، ثم غرقت في الصمت.. وقف أمامها منكسرًا منكس الرأس، حدثها بمقلتين هاربتين:

- هل يمكنني الحديث معك على انفراد؟

أومأت برأسها، انزوت بأحد الأركان بعيدًا عن ضجيج زملائها، والأخير يتبعها، توقفت تترقب حديثه فاستطرد قائلاً:

- ساحميني، عذبتك كثيرًا، وأسرتي عذبتك أكثر.

ابتسمت إليه.. أجابت بارتياح:

- ساحمتك.

- أميرة.. هل من الممكن أن نعود معًا كـ...

قاطعته قبل إكمال عبارته، أدركت ما قد يقول:

- آسفة لن أستطيع.

امتلاً حزناً، نطقت عيناه بالحسرة والندم.

- تعلمين.. لو عاد بي الزمن لما فعلت بكِ ذلك أبداً، أدركت قيمتك.

اتسعت ابتسامتها، أجابته بثأر:

- ولو عاد بي الزمن يا سمير لن أقرب منك أبداً.

أعطته ظهرها، وكأنها تقلب صفحةً من الماضي.. تركته وقد زاد يقينها أن من ترك شيئاً ذا قيمة في يوم.. ندم على خسارته إلى آخر عمره، فالناس كنوز.. والحب نعمة، ناقم من يصل إليه ويزجه بنعله.

عادت إلى صديقتها بعينين مبتسمتين، ليس إلا تعجباً من حكم الأقدار، سألتها:

- ما الذي كان يريده ذاك المعتوه؟!

- لا شيء مهم.

التفت يمينها فلمحت شيئاً ما.. همست في لهفة:

- فارس!!

أثار الاسم انتباهَ سلمى..

- ماذا هناك؟

حدّثتها في ترقّب "أن انظري".. وما أن التفتت حتى اختفى ما أشارت إليه، عادت إليها بمقلتين متعجبتين فلا أحد هناك، استطردت أميرة وكأنها تحاول درء نظراتها:

- كا...كان..كان.

تنهّدت، فبماذا تبرّر! وأي شيء تبرّر؟ أتبرّر وهمّها، حدّثتها بنبرة خائبة بالنهاية:

- حسنًا.. لا شيء.

انفجرت حينها ضاحكة.

- يبدو عليك التعب.

- لربما كما تقولين.

- حسنًا علينا اللحاق بأختك، تريد مساعدتنا باختيار فستان الحفل الخاصّ بخطبتها.

- والله للآن لا أفهم لم العجلة! لم لم يؤجّلوا الحفل لغدٍ أو حتى بعد غد، أنا لم أخرج من المشفى سوى بالأمس.. حفل الخطبة بتجهيزاته في يوم واحد.

تعالت قهقهات سلمى، أجابت بنوعٍ من المزاح:

- أخّرت الخطبة بسباتك، أرادوا إقامتها قبل أن تُجَنِّي وتعودي للغيبوبة مرّة أخرى.

قابلت مزحتها بابتسامة.. فكلّماتها إلى حدٍّ قريب منطقية، فلا أحد يدري ما الذي تحمله لنا اللحظات القادمة.. فمن استطاع اقتناص لحظة سعادةٍ في الحاضر عليه ألا يفوّت الفرصة؛ فقد لا تعود.

بين الملابس المترابطة وقفّت أميرة، هادئة شاردة الذهن.. وياسمين وسلمى غارقتان في البحث عن رداء مناسبٍ للحفل، قرصت ياسمين وجتتها ناشلةً إيّاها من شرودها:

- ما بك؟! -

بدت ابتسامة خافتة على شفّتها، نفت برأسها "أن لا شيء".

- هيّا اختاري فستاناً، سلمى ستختار فستاناً أيضاً لربما تحظى برقصة مع محمود.

اتسعت مقلتا سلمى ما أن سمعت تعليقه، احمرّت وجتها في خجل، فتعالت ضحكاتها.. أكملت حينها واضعةً كفّها على فمها:

- حسناً، سأصمت.. سأصمت.

اتَّجهت أميرة للأثواب المعلقة تبحث عن شيء مناسب يمكنها ارتداؤه في الحفل، جذبها ثوبٌ ما يشبه الثوبَ الأبيض الذي ارتدته بحلمها، تذكّرت نظرات الإعجاب بعيني فارس حينها..

حملته بين يديها في رفقٍ تتأمله بعمق.. ضربت أختها على كتفها تسألها:

- اخترت شيئاً؟

- نعم.. أعتقد أنّ هذا الثوب مناسب.

علقت سلمى على جماله:

- يشبه فساتين الأميرات.

ازدادت ابتسامة أميرة، طلبت حينها ياسمين منها قياسه.

ذهبت لتبديل ملابسها، وما أنّ خرجت حتى انهالت عليها نظراتُ الإعجاب.. علّقت حينها:

- وكأنّه صمّم لأجلك.

همست لنفسها محببةً، وكأنّها موقنةٌ بذلك "ربما"، تابعت سلمى مازحة:

- يبدو أنّ أميرة ستسرق منكِ الأضواء في الحفل ياسمين.

ادّعت حينها الحزن:

- يبدو ذلك، لن أقبل من فينا العروس أنا أم هي؟

استأنفوا الحديث للضحك، وما أن انتهوا حتى أكملت:

- بالمناسبة لقد اتصلت بالطبيب أحمد الذي حدثك عنه.. لأبلغه موعد الحفل.

- ماذا!! هذا الوسيم سيحضر الحفل؟

ما أن عقلت سلمى بهذا حتى هدّدتها أميرة في قهقهة:

- معي رقمي ياسين ومحمود، لقد سجلت حديثكما وسأُتصل لأسمع كليهما ما كنتم تقولانه عن ذاك الطبيب الوسيم.
تراجعا فعَلَقَتْ كلتاها:

- لا.. لا، نحن نمزح معكِ.

- أصدّق ما نقول، هذا مزاح.. مزاح.

أجابت حينها بعينين دامعتين من كثرة الضحك:

- الجبن سيد الأخلاق.

أسدل الليل أستاره معلناً بداية الحفل، خرجت ياسمين تتهادى في أبهى حلّة، فما تمَنَّتْه سابقاً بات جزءاً من واقعها.. اليوم سترتدي خاتماً باسم ياسين تعلنُ به للعالم كونها صغيرته وحبيبته وأُمّه وأخته وشريكة حياته في مستقبل قريب.

التقط ياسين كفّها في رقّة، يتأمّلها وكأنه يراها للمرة الأولى.. دنا من أذنها هامساً لها "رائعة الجمال"، احمرّت وجنتاها فإذا به يقف بمنتصف القاعة جاذباً إيّاها.. أخرج خاتمه ثمّ ألبسها إيّاه.. لثم يدها وكأنه يعطي ختماً بملكيتها.

الجميع يصفق عدا محمود الشارد بسلمى.. أمّا عنها فغارقة في سعادة مما ترى.

وأميرة تتهادى بثوبها الأبيض كمن لا قدم لها في خفّة من بين المعازيم، تتأمّل الوجوه من حولها ولا ترى سوى فارس.. يلوح لها مبتسماً من بين الحضور.

تظنّها قد جنت، هي بالفعل قد جنت.. جنت بحلم تمتّ أن يتحقّق، تشبّثت جوارحها به علّ القدر يشفق عليها فيجسّده.

فاجأ دخول الطيب أحمد الحضور، التفّ الجميع حوله مرّحين.. حتى العروسان تركا القاعة للترحيب به.. عدا أميرة الغارقة بعالم آخر مع حبيب لا يبصره إلّاها، لم تلتفت إلى ذاك الواقف هناك.. أخفاه عن مرمى البصر كثافة الواقفين حوله، يكفيها من بجوارها بعالم آخر.

لمحها أحمد.. بلمعة مقلتيها الشاردين خطفت قلبه، تجمّد مكانه مبتسماً، التفتت فالتقطت عينها ابتسامته.. كاد قلبها ينفجر، همست في دهشة:

- فارس!!

اقترب منها وفي كل خطوة تتأكد من ملامحه أكثر.. صدمة احتلتها
بتجسده أمامها، همس باسمها:

— أميرة؟

دُهِشت من نبرة صوته، هي ذاتها بنفس الأسلوب، سألته في اضطراب:

— فارس!!؟

ابتسم.. سألها متعجبًا:

— مَنْ فارس؟!

— مَنْ أنت؟!

اتسعت ابتسامته حتى بدت ثناياه:

— أنا أحمد، الطبيب الذي أشرف على علاجك وأنت في الغيبوبة.

ارتفع صوت الموسيقى..

— أأسمحين؟

مدّ راحته إليها طالبًا منها الرقص، جذبها برفق.. سكن قلبها لأول مرة
منذ أن استفاقت من غيبوبتها، عاد الأمان لها.. القطعة الناقصة داخلها
اكتملت الآن، همست في نفسها "أعاد إليّ، تحقّق حلمي؟" .. عاد يسألها:

— مَنْ فارس؟

صمتت و طال صمتها ..

- أهو أحدهم يشبهني؟

- وقد يكون أنت ..

- كيف؟!؟

ترددت في إخباره، من ذاك الذي سيصدق ما مرّت به!!

- لن تصدّق.

- جرّبيني.

- التقيت بك في حلمٍ طويل، اسمك كان فيه فارس.

- وأنا أحبّك.

امتلاأت اندهاشاً، خرجت من بين شفّتيه كفارس .. وعدّها أن يكون لها

في حياةٍ أخرى، أتحقّق بعد كلّ هذا العناء.

- أميرة.

همس باسمها .. رفعت وجهها إليه ..

- أتزوّجيني؟

تجمّدت مقلّتاها وكأنّها غير مستوعبة لما يدور.

- لم أسمع إجابة .. أتزوّجيني يا أميرة؟

أومأت برأسها بعينين دامعتين، ضمّهما إليه.. ارتمت بأحضان حلمها،
عناقٌ طويل ملأت به فجوات روحها التي نهشها الألم.. الحزن، والفقد.

والحضور من حولهم متأملين بسعادة بالغة....

نعم.. قد تحقّق حلم أميرة، ذاك الحلم الذي بدأ بالألم، ثم سار على جسر
الأحلام وانتهى بأرض الواقع، حلم أرادته وتشبّث فيه بكامل قوتها، حتى
استجاب القدر لرغبتها.

تلك هي أميليا، لفظٌ قد يكون وقّعه على سمعك غريباً، فالأميليا جمعت
نصفي كاميليا وأميرة، وجهان لشخص واحد (أم-ي-ليا)، والأميليا هي
القتال الشديد، معركة قادها الخيال ضدّ الواقع، فانتصر فيها مجسداً نصره.

تمسّك بأحلامك مهما استحالت، فالإرادة تحطّم العقبات عندما يكون
هناك إيمانٌ كامل.

وتذكّر.. من لم يقاتل من أجل حلمه ويتمسّك به؛ لا يستحقّه أبداً.

فقاتل وقاتل من أجل حلمك، من يدري.. لعلّك تنتصر في معركتك
الخاصّة، ويتحقّق ما سعت إليه كما تحقّق لأميرة.



أنا وأميليا



مرّت هذه الرواية بين يديّ بثلاث مراحل، في كلّ مرحلة كنت أعيدُ كتابتها من البداية، فقط لأصل إلى الحدّ الأدنى من الرّضا...
تارةً أبكي وتارةً أخرى أضحك.. وفي بعض المرات كنت أشعر ناحيتها
بالبغض الشّديد، ثمّ يتتابني الحماس بالحديث عنها لأحدهم..
حاولت أن أكون كاتبًا جيدًا، حان دورك الآن كقارئ جيد..
إنّ أعجبتك الرّحلة؛ فأنا سعيدة لذلك.
وإنّ لم تعجبك؛ فقدّم نقدك بلطفٍ؛ فرحلة كتابتها نالت مني الكثير.